

الإنسان والكون والحياة

رجائى عطية

الهلال

سلسلة شهرية تصدر عن مؤسسة دار الهلال

رئيس مجلس الإدارة
عبد القادر شهيب
رئيس التحرير
مجدى الدقاق

المستشار الفنى
محمد أبوطالب
مدير التحرير
عادل عبد الصمد
المدير الفنى
محمود الشيخ
سكرتير التحرير
أحمد شامخ



الأصدار الأول يونيو ١٩٥١

العدد ٦٥٨ - رمضان ١٤٢٦ هـ - اكتوبر
(تشـــــرين الأول) ٢٠٠٥ - توت ١٧٢١م

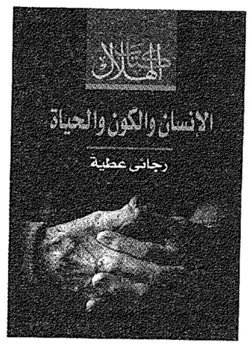
الإدارة

القاهرة - ١٦ شارع محمد عزالعرب بك (المبتديان سابقا) ت: ٣٦٢٥٤٥٠ (٧ خطوط) - المكاتبات: ص. ب: ٦١ العتبة - القاهرة - الرقم البريدى ١١٥١١ - تلغرافيا: المصور - القاهرة ج. م. ع.
تلكس:
Telex 92703 hilal u n
فاكس:
FAX: 3625469

ثمن النسخة ٧جنيهات
سوريا ١٢٥ ليرة - لبنان ٥٠٠٠ ليرة - الأردن ٢٠٠٠ فلس - الكويت ١.٢٥٠ فلسا - السعودية ١٢ريالا - البحرين ١.٢ دينار - قطر ١٢ ريالا - الإمارات ١٢ درهما - سلطنة عمان ١.٢ ريال - اليمن ٤٠٠ ريال - المغرب ٤٠ درهما - فلسطين ٣.٥ دولار - سويسرا ٤ فرنكات .

البريد الإلكترونى:
darhilal @ idsc. gov. eg


الإنسان
والكون والحياة
رجائي عطية



الغلاف للفنان
محمد أبو طالب

تقديم

مـا من آدمى إلاّ وهو مـشـدود إلى ذاته ، يفكر من هو ؟ وكـيف كـان ؟ وإلام سـيكون ؟! مـا مـوضـعـه فى هذا الكون المعجز للأفهام ؟ ومـا سبيله فى هذه الحياة التى يأتيها غير مخيّر ويغادرها فى أجل محتوم ؟!

حـول الإنسـان ، والكـون ، والحـيـاة ، تدور هـذه الخـواطر التى تشغل الآدمى العاقل حيث كان .. الإنسان مجهول إلى ذاته ، يريد بمعـرفـة نفـسـه أن يلتـحم مع حـاضـره وأن يستشرف مستقبله ، وأن يكون لحيـاته مـعنى .. إن حيـاة الأحيـاء ومن بينهـا البشـر ، نظام كـونى إلهى جليل جداً ، يجمع بين شدة البساطة وشدة التعقيد والتركيب .. مهما بدا لنا من المعرفـة والفطانة والذكـاء ، فإننا لا نرى مـا يحـفل به الكون والحياة إلاّ من ثقب ضئيل جدا .. شديد الضآلة ، ومن زاوية بالغة السطحية !

فهل نستطيع فهماً أعمق للإنسان ، والكون ، والحياة ؟

رجائي عطية

تنمية الأمان . بغرس الإيمان

الالتفات الجاد ، خاصية تلازم الآدمى باستثناء الشواذ والكسالى وغير المبالين ، وهذا الالتفات الذى يحرص عليه الآدمى ، ويبذل له كل ما يستطيعه من الشحن والتركيز والعناية والتبصر والفطنة والانتباه ، يخطو بوعينا وفكرنا واهتمامنا خطوات تتجاوز دائما " اللحظة " و " اليوم " إلى نظرة أو توقع لما هو قابل ، هذا التوقع قد يلتزم الحكمة والصواب والتوفيق والسداد ، ولكنه يمتد بالضرورة إلى ما هو حسن يومئ بالخير والرضى ، أو غير حسن ينذر بالشر والعبوس .. ويلازمه ما نتصوره أو نتوقع حدوثه فى المستقبل القريب أو البعيد ، شاغلين أنفسنا وأماننا بالتوجس بما سوف يأتى به الغد من المخبوء (المتوقع) فى رحم الغيب ، بينما هذا التوقع قد يصيب وقد يخطئ ، وقد يحدث أو لا يحدث قط وفق سير الأمور المعتاد ، أو لا يحدث طبقاً لما تصوره أو توجسه خيالنا !

وتلك خفة فى النوع الإنسانى ، تسوقه كثيرا ـ بما يتوقعه أو يتوجسه ـ إلى الخوف والفزع والهلع !. ونحن عادة لانشعر بكمال الهدوء والطمأنينة ، فنعتبر وجود التطلع والانشغال والقلق والخوف فى داخل كل منا ، شيئا مألوفاً لا تخلو منه حياة الناس ، وينبغى من ثم ألاّ نأبه لحدوثه ! وهذا خطأ لا نقدر جسامة عواقبه إلاّ متأخرين حين تدق أبوابنا الأزمات النفسية والأمراض البدنية والشيخوخة المبكرة ، فندرك ـ متأخرين ! ـ أننا قد حرمنا أنفسنا فيما مضى من تنمية " الأمان " بغرس " الإيمان " فى قلوبنا وعقولنا طيلة السنوات التى عشناها ، وأنه لم يعد فى مقدورنا ـ بعد أن جفت الينابيع ـ أن ننمى هذه النعمة الحقيقية من جديد بتكلف العبادات والابتهالات والزيارات وأنواع البر والصدقات ، لأن هذه القربات قد صارت من أسف ضعيفة الاستجابة حيال آثار الماضى المشغول بالمخاوف والهواجس والاحتمالات التى انتشرت وتشعبت داخلنا وخارجنا ، وصار متعذراً اقتلاعها

بمجرد اصطناع القُرَب التى لا تصحح أو تزيل الآثار الناشبة فينا بعد أن زادت سعةً وعمقاً واستفحالاً برغم تطور الحضارة الحالية ومعارفها وعلومها وفنونها نتيجة لاتساع الفروق المطرد ـ اقتصاديا واجتماعيا ـ بين الطوائف المختلفة من البشر !

فغالبية الناس إلى اليوم والغد ، مازالت متمسكة بمصدقاتها وأعرافها السابقة والقديمة ، مشدودة إليها ، محبوسة فيها ، حتى بعد ما زودت أبناءها ـ فى المدارس والمعاهد والجامعات ـ بزاد غير قليل من المعارف والعلوم المتقدمة جدا ! .. ذلك لأن الاتجاه إلى تعلم وتحصيل هذه المكتسبات ، لم يحدث أصالةً وأساساً بنية ترقية العقل والفكر والروح فى المتعلم ، وإنما لغاية قصيرة ضيقة محدودة تنحصر ـ فى الغالب ـ فى تحقيق مصلحة مادية تبعاً للسائد ، بتحسين الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية لمن ينجح فى الفوز من تلك المؤسسات العلمية بدرجاتها وألقابها التى أخذت تحل ـ بالانحصار فيها ! ـ محل ما يحصله الآدمى أو ينبغى

عليه تحصيله من معارف وعلوم هى الغاية التى بها يرتقى عقله وفكره وروحه !

وربما بلغت معاناة ذلك القلق والانشغال والهلع حد الخطر فى أيامنا ، بسبب سخونة وحدّة السباق وشدة التزاحم والمتزاحمين من كل لون وجنس وجماعة ، وتصور بعض الناس ـ إخلاصاً أو حيلةً ـ أنه يمكن دفع هذا الخطر بالدعوة والعودة إلى الدين فى عهده الأول الذى يعتقدون أو يظنون أو يدّعون أنهم عرفوه حق معرفته ووضعوا أيديهم عليه وأمسكوا بمفاتيحه ، وهذه غاية بعيدة يتصور بعض الساخطين الإمساك بها ، مما يقود إلى قلاقل وربما فتن قد تُزيد الموجود منها اتقاداً واشتعالا !

وقد أفسح المجال لهذا وغيره ، احتياج وحرص وسعى الجماعات الغنية القوية فى أيامنا ، إلى المحافظة على استمرار وتكريس وزيادة غناها وقوتها ، وإلى نشدان الاتساع المتزايد الدائم فى العلاقات مع الجماعات الأخرى ، سواء ماكان منها أدنى غنى وقوة ، أو أكثر فقراً وضعفاً ! .. يحدوها فى ذلك كله إتاحة الفرص

لمزيد من ثرائهـا وقـوتهـا وخلـق الأسـواق لتـصـريف إنتاجها الكبير المتقدم الوافـر الفائض بالثمـن الغالـى الذى تريد ، وللحصول فى الوقت نفسه على ما تحتاجه من خامات أو منتجات بثمن بخس أو عمالة رخيصة لازمة للتسخير لدفع وخدمة إنتاجها المتقدم وزيادة ثرائها المتزايد بغير حدود !!

هذا النوع من التعامل غير المتكافئ ، يزيد الغنى غنى ، والفقير فقراً ، ويؤدى بالضرورة إلى ارتفاع " دائنية " الأغنياء الأقوياء ، وافتقار و " مديونية " غير الأغنياء والفقراء ، ويسوق بين وقت وآخر إلى تأزم الأمور والعلاقات ، وإلى تولد ثم تزايد مشاعر السخط والضيق والنقمة ، وإلى إثارة القلاقل وانفجار الغضب والتطرف وربما الفتن هنا وهناك ، لا يوقف ذلك أو يحاصره أو يشفيه ، اجتهاد الأغنياء فى " التلطيف " أو " إعطاء المسكنات " بتقديم المعونات والمساعدات والتنازلات ، أو إعادة البرمجة وإرجاء وجدولة أقساط الديون مع أو بدون تخفيض الفوائد التى

تستهلك مايعجز معه الفقراء عن الوصول إلى سداد أصل الدين ، فتتفاقم المديونيات حتى تبدو عسيرة الوفاء ضاغطة ضغطاً لا يهدأ على حياة وحرية ومصير الفقراء !!!

الروابط التى تنشئها موازين القوى المختلة ، بين أطراف العلاقات الدولية المتباينة القوة والثراء ، يصيبها بالحتم والضرورة الخلل وعدم الاتزان ، وتزيد إحساس المقهورين بالقهر ، وتعمق شعور المغلوبين بالانسحاق .. وهو إحساس أو شعور أو اختناق لا ينحصر فقط فى أنظمة أو حكومات ، وإنما يتسرب إلى الناس ـ كل الناس ـ وينمى تحت السطح مشاعر دفينة ومتزايدة بالسخط والنقمة ، مجدولة بالإحباط والعجز عن ملاحقة ما يصاحب ثراء الثرى وقوته ، من قدرة على إنفاذ مخططاته وتحقيق أغراضه ، بالسياسة تارة ، وبالحيلة تارة ، وبالبطش والقوة تارة أو تارات ، مع قدرة ناضحة لايجاريها الفقراء والضعفاء ! ـ على تعديل حساباته واهتماماته ومخططاته من يوم إلى يوم ، وربما من ساعة إلى ساعة ، تبعا لمؤشرات وبوصلة مصالحه ، وما يبدو له

أولاً بأول ، أو وفقا لاستطلاع طويل مرسوم ـ محققاً لمصالحه أو مؤثراً عليها !!هذا كله لاتخطئه العيون والأفهام ، كل العيون والأفهام !!.. لا يعز الفهم أو الرؤية على من يغلبه فقره أو تضيق به ظروفه وأحواله !! هذا السخط المتنامى لا تحصيه أو تدرك ردود أفعاله وآثاره وعواقبه ، حسابات الكومبيوتر أو الدراسات والبحوث الصماء التى لا تغوص فى مشاعر الآدمى ولا تقبض على ما فيها من التهاب يأخذ مسارات أو اتجاهات قد تبدو للأغنياء الأقوياء غير مفهومة ، أو يعزونها إلى غير أسبابها الحقيقية ، فيزيدون التعقيدات تعقيداً ، والأزمات تأزماً ، ويأخذون البشرية ـ بلا وعى ! ـ إلى هاوية سحيقة ما لم يتداركها لطف الله وعنايته !

الأمل قاطرة البشرية :

دنيا المصالح غابة كثيفة لا تكف عن الفوران ، ولا تهدأ فيها الصراعات التى تستغرق الآدمى فرداً أو عضواً فى

جماعة أو مواطناً فى دولة .. لا يشغله فقط ما يهم أو يهدد أو يصيب شخصه وأهله ، وإنما هو مهموم على قدر وعيه بهموم وطنه .. يكتشف الآدميون فى هذه العوالم التى تفور بالتزاحم والصراعات ، أنهم أخلاط مختلفون أشد الاختلاف فى الخلقة والصفات والمعتقدات والأغوار النفسية والعقول والتوجهات والأهداف والأغراض والمآرب ، وأن محاولاتهم المحاكاة أو التفاهم والتقارب مع التسليم بحصولها ، مشوبة على الدوام بالسطحية ، ومعرضة بسطحيتها وقلة الإيمان الحقيقى بالأسرة الإنسانية للأزمات التى تجتاحها الصراعات وتأخذ الأفراد إلى عداوات وثارات ، والدول إلى إشتباكات وفتن وحروب !!

الأمل قاطرة البشرية ، بيد أن الأمل يبدو بعيدا فى محاصرة أسباب الخلف الفردى والجماعى والدولى ، سواء بالاتفاقات أو المصالحات الفردية ، أو فيما تعقده الدول من مؤتمرات ومفاوضات ومعاهدات ! .. فلا تكاد الإنسانية تتعلق بهذه الآمال لإطفاء نار الخلافات الهائلة التى تأخذ حياة

الناس فى خاصة شئونهم وعامتها ، حتى يتباعد الأمل ويبدو الرجاء مستعصيا على التحقيق ، ويتمكن القلق والخوف والهلع ويضيع مع تغشيهم الإحساس بالأمان !!

ومع ذلك ، فإن الأمل البعيد أو المتباعد ، لا يلبث أن يولد من جديد ، لامعا متوهج البريق مع كل جيل جديد . باختفاء الآباء بعجزهم أو بموتهم - يختفى باختفائهم ما لازمهم من اخفاقات وانطفاء وتباعد آمالهم ، وتحل حماسة الجديد وشعلة الأمل فيه محل الذؤابة الخابية ، متطلعة إلى مغالبة اليأس الذى ران ، ومعاودة الاندفاع بطاقة مشتعلة ترنو إلى تحقيق البعيد !

وربما كان اطراد هذه الظاهرة - ناموسا من نواميس الكون لبقاء الجنس البشرى بقاءً فاعلا ملائما متسقا على " نحو ما " مع التغيرات الشاملة الدائمة للزمان والمكان ! فالأجيال الجديدة التى يرتفع صوتها فى وجه الأجيال القديمة بذلك الأمل الذى يصاحبها بصيغ واصطلاحات جديدة تناسب أفكارها وأنواقها ، ويندفع بها خطوة أو خطوات فى تغيير

أنظمة الحكم وفى الاستيلاء عليه - لا تلبث هى الأخرى أن يدركها الهرم والتعب والشك من كثرة المصاعب والأزمات ومرارة الصراعات والنواتج ، فيصير جديدها قديما ، ويزحف عليها الإخفاق والفشل ، ويلاحقها تناقص ثم نضوب المقدرة على اجتذاب واحتواء وإقناع جمهور الناس ، ويزحف بدلاً منها الميل الطاغى أو المعتدل إلى اللجوء إلى القوة والعنف فى مواجهة الشرود أو شيوع الاستياء أو السخط وعدم الولاء !

هذا ومثله معتاد ومألوف حصوله فى البلاد التى اعتادت استدامة الحكم المطلق ، يفلت من دائرته البلدان التى يطرأ على حكوماتها التداول والتغيير الدورى فى مواعيد تكاد تكون معروفة مقدما للكافة ، على دورات متعاقبة تحكمها انتخابات تعطى المساحات الزمنية القائمة بينها وانتظار مواعيدها المحققة ، أملاً فى تغيير يعطى الأجيال الجديدة فسحةً ومساحةً وفرصاً واسعة ومشروعة وعلنية ، لتغيير نظرتها وفكرها ، وتجربة آمالها البعيدة العسيرة التحقيق !!

وفيما يبدو فإن قرب الأمل لا يعنى فى كل الأحوال اتصال نجاحه ، سيما حين يقتصر عطاء الجديد على الحلول " الجزئية " " النسبية " ، فيصيب صيغ وحجج ونظريات " الجزئى " " النسبى " ما يحدث فى الغالب من ذبول وتناقص عدد وزخم المتحمسين ، وخفوت الجذوة التى بدأت لامعة متوهجة !

يس من السهل ، ولا من الهين أن تنتحل نظم الحكم المطلق واجهة الحكم النيابى ، لأن هذا الانتحال سريع الافتضاح ، تصحبه فى الغالب تنافرات واضطرابات ومشاكل وتعقيدات ، قد تبقى تمور تحت السطح ، وقد تطفو بما يصاحب طفوها من تداعيات !

إلتفات الناس إلي ما إعتادوه !

على أن التفات الناس إلى ما اعتادوه من همومهم ومشاغلهم اليومية التى لا فكاك منها ، مع انشغالهم قل أو كثر بالمسائل العامة فى مجتمعهم أو فى العالم ـ قد جعل

حياتهم - شعروا أو لم يشعروا - ذات مستويين يخالف أحدهما الآخر أشد الاختلاف وأعمقه . مستوى خارجي معظمه أفكار واهتمامات دائمة التعديل والتغيير ، تملأ المقابلات واللقاءات والاجتماعات والمجالس والنوادى والإذاعات والصحف والرسائل والكتب والمجلات ، وتزداد هذه الأفكار والاهتمامات - كل يوم بل كل ساعة - كثرة واتساعاً وامتدادا ولفتا للأنظار العاجلة وجذبا للانتباه الوقتي، وتصير من ثم محلا وموضوعا لتعليقات الساعة أو اليوم أو الأسبوع !

أما المستوى الداخلى ، فلا يصل إليه شيء من ذلك السيل العرم المتدفق من الخواطر والحوادث والأخبار - .. ويكاد هذا المستوى الداخلى الكامن فى ركن معتم من نفوس الناس ، لا يعرف لغة هذا المستوى الخارجى ، لأنه لم يعد قادرا على اجتذاب الآدمى - العادى أو غير العادى - اجتذابا جادا يسمح بمسايرة ومواكبة ذلك المستوى الخارجي والإدلاء بدلوه فى خضمه .. فقد توقف منذ مدة غير قصيرة عندما يحتفظ

به الآدمي ويلوكه بين وقت وآخر ، جادا أو غير جاد ، من عقائد ومصدقات وأعراف ومبادئ وقيم .

ومع أن هذه المعتنقات بأنواعها ، قد باتت قديمة ، ويراها الناس أو معظمهم ـ قد تجاوزها العصر ، إلا أن الناس يتهيبون أن يجاهروا بذلك ، فيبقى المختزن في المستوى الذى بداخلنا على حاله من " الجفاف " وعدم الاستعمال الجاد ، ومن ثم لا يحظى ـ فى الزمن الحديث ـ إلاّ بعناية هامشية !! ربما كانت ظاهرية خطابية فى الغالب ، أو مقرونة بنزعة تخريبية تدميرية فى أحيان قليلة مليئة بالشذوذ والحماقة !

على أن اتساع المسافة بين هذين المستويين ، الخارجى والداخلى ، لا تبدو أبدية أو مستعصية تماما على التقارب .. إذ لا بد مع المزيد من التقدم الفكرى والعلمى ، مع التطور الذى أحرزته وتحرزه الإنسانية ، والاضطرابات والشدائد التى تصاحب الحياة ، أن يزداد التفات الإنسان الجاد الناضج إلى داخله ، وأن يعيد النظر إلى محتوى هذا الداخل

الذى لم يراجعه الآدمى منذ دهور ، وأن يعدل مع هذا الالتفات الجاد فى مادة ومحتوى ومناحى هذا المخزون ، وأن يراعيه وينميه بما يمكن أن يلاحق ويساير ما بلغه من تطور ومعرفة .. هذه المعرفة يصيبها الخطر والتدمير إذا لم يفلح الآدمى فى ربط هذا التطور بداخله وضميره !

هذا التلاحم المأمول حصوله بين مستويى عالم الآدمى : الخارجى والداخلى ، سوف يكون راية لإنسان جديد كل الجدة ، بما طور به داخله وارتفع به بعد طول الإهمال ، ليستقيم له بهذا البناء النفسى وعمار الداخل ـ القدرة على الالتئام الواعى بتطورات " المستوى الخارجى " الحافل بالتحديات والالتواءات التى تحتاج دائماً إلى أمان داخلى قادر على محاصرتها والتعامل معها ، وترويضها ومغالبتها ، وليتيسر للإنسان وللإنسانية مع اطراد الرقى ـ اطراد الانسجام والأمان إزاء النكسة أو الردة التى نراها تهدد الآن كل ما معنا مما لا يجوز للعقلاء التفريط فيه مهما كانت الدواعى أو التعلات !!!

إحساسنا بفرديتنا !

إحساسنا ـ على اختلافنا ـ بفردية كل منا ، إحساس عميق شديد غامر ، بيد أن هذا الإحساس " بالفردية " خالٍ تماما من أى اهتمام جدى بالجماعة أو الجنس ، وإجداب هذا الاهتمام بالمحيط الأوسع مرده فيما يبدو إلى تمحور " الذات "حول نفسها ، ودورانها باستمرار حول ما تشتهيه النفس وترنو إليه وتطمع فى زيادته أو تقلق خوفا عليه .. فهى فردية عقيمة مجدبة فى الغالب الأغلب ، تلهينا بإستمرار عن القيام بأى اهتمام مخلص بمصالح ومستقبل جماعاتنا وجنسنا ، وتلهينا عن المجموع انكفاءً على نفس كل منا ، فتحصرنا فى أنانية " الذات " حتى فى أدائنا للخدمات العامة التى تقتضيها الجماعة من كل منا حسب دوره أو وظيفته أو موقعه ، وبذلك لم يعد الآدميون فى أى بلد مواطنين صادقين مهيأين ـ حقيقة لا تظاهرا ـ للتعاون معا والصمود والتضحية والبذل المشترك فى جدية وإخلاص من أجل الأهداف العامة ، مع أنهم دائمو الترديد لهذه المعانى ، يلوكونها بألسنتهم

ويتشدقون بها فى مجالسهم ومنتدياتهم وأحاديثهم وكتاباتهم وخطبهم المنصرفة للسمعة والتظاهر .. يجرى ذلك فى الوعى وفى اللاوعى لطول مفارقتنا للجد والجدية ، وطول اعتيادنا على إدمان التظاهر والافتعال لأشياء لم تعد فينا حقيقة ، ولكننا نصطنعها اصطناعاً تلمسا للصورة التى نحب الظهور بها ، دون أن نجل هذه المعانى أو الأشياء إجلالاً حقيقيا فعليا، أو نشعر بيننا وبين أنفسنا أنها ضرورية لازمة لوجود أى منا !!

هذا التظاهر والافتعال التمثيلى هاوية حقيقية ، تحيل حياتنا إلى تمثيلية مظهرية أو صوتية أو شكلية لا تترجم عن واقع حقيقى فاعل ، ولا تحقق أو تنتج حصاداً !!.. وهذا الذى يحدث إنما مرده إلى " خواء الداخل " .. خواء الداخل هو المنزلق لكل شىء مظهرى غير جاد ، وليس من سبيل لإنهاء هذه "المظهرية" الفارغة عديمة الحصاد الجاد ، إلا باستعادة "عمار الداخل" بأن يكون لكل منا حياة داخلية سليمة ، وهذا لا يتأتى بالتمنى أو بالكلام ، وإنما يحتاج إلى

توجيه اهتمامنا الجاد إلى داخلنا ، مع الإصرار على تعميره وتنميته بمعطيات جديدة نعتنقها بصدق وولاء تام وإيمان !

بغير هذا لا تتحسن الحياة ، ولا يكون للحضارة الإنسانية أساس متين آمن يصونها ويؤمنها من الانحدار والزوال ! ..
إن البشر يعانون منذ قرون من زحف هذه " الأتربة " دون أن يعرفوا لها آخرا ، ولم يعد صالحا للعمار الحقيقى للحياة والحضارة ، العودة إلى " قديم مجرب " محكوم بزمانه ، ولا بصورة له " معدلة " أو " مجملة " ! .. لا قيمة ولا جدوى إلا بما يستقر فى قلب كل آدمى قبل أن يستقر ثانية فى عقله وفكره وخياله دائم التحرك والتغير والتقلب !

معتقدات وأديان البشر

معتقدات وأديان البشر ، كانت منذ قديم القديم تسبق بأشواط معارفهم وعلومهم ، وكانت هذه العلوم والمعارف تحاول ما أمكنها الالتصاق بالمعتقدات والأديان من طريق

التفسير والتأويل الذى يسمح لها بأن تعيش وتتداول بين الناس ضمن ما للمعتقدات والأديان من نفوذ مؤثر يغرى بالالتصاق بها استمداداً للقوة أو الحصانة أو البقاء ! قد كان هذا فى القديم أو قديم القديم ، ولكن الأمور قد تغيرت فى الحضارة الحالية إلى حد بعيد ، فلم تعد تلتصق عندها العلوم والمعارف بالمعتقدات والديانات ، ولا عادت العلوم والمكتشفات والمعارف تطلب غطاءً ولا دعماً إلا ما تورى به حقائق العلم ومنجزاته .. وبصورة أو بأخرى صارت العلوم والمعارف الوضعية مقلقة لسواد الناس ، برغم أنهم يتعاطون منجزاتها وقد يتعلمونها فى معاهدهم ويتعاملون معها فى أشغالهم ويستخدمون أساليبها وطرقها وأدواتها وأجهزتها وآلاتها ، واستغرقهم ذلك استغراقاً أدى إلى نضوب أو انعدام التفات الآدمى إلى أعماقه ، فباتت هذه الأعماق راكدة خاملة منعزلة انعزالاً يكاد يكون تاما ، ولم تعد هذه الأعماق (الراكدة) تتحرك مع حركة الحياة الاجتماعية من حيث الآمال والمخاوف والأفكار والمقاصد والخطط والمشروعات ، وصارت

«مادة» هذا القديم الراكد فى الأعماق شيئا كالخيال يبدو ثم يختفى !! .. ولا يقوى مع هذه " الهشاشة " على أن يحدث تأثيرا حيا كامل الحياة ، جادا وعميقا ، فى حياتنا " الفردية " أو " الاجتماعية " .. ولم يعد هذا " الداخل " "الهش " مسموع الكلمة ـ نوعا ما ! ـ إلا فى العبادات والطقوس والقُرب التى زحفت عليها الشكلية والآلية والمظهرية هى الأخرى ، فصارت لدى الغالبية الأعم مجرد اعتياد وصيغ وحركات لا تسايرها نوايانا الحقيقية وتصرفاتنا المشغولة دوما بما ألفناه فى الواقع الفعلى الخالى فى معظم الأحيان من المعنى الباقى !!

داخل وأعماق الآدمي

يبدو أن العناية بداخل الآدمى وأعماقه ، هى الحبل الذى يرد إليه المعنى والأمان وسط المخاوف المهولة التى يحفل بها عالم اليوم .. هذا العالم المنطوى على حضارات مختلفة ، وعقائد وديانات مختلفة ، قد يشتط بعضها فيجافى أو يعادى

الآخرين فينضب بالتبعية أثر الدين فى " عمار الداخل " ..
فهل يمكن لعموم البشر أن يستمدوا من " معالم التقريب "
بين الأديان السماوية ، ما يجمعهم على معتقدات روحية
مشتركة ، مخلصة ومستقيمة ، تستقر فى داخلهم وفى
ضمائر سوادهم ، تساير علومهم ومعارفهم .. تعطيها وتأخذ
منها كل ما تراه واقعا وحقا ومعقولا ، وتحظى فى مجملها
بترحيب وثقة واحترام يقى الإنسانية من حمى التعصب
والغيرة والعداوة !! ..

لم يعد البحث عن الحقيقة إلى أقصى ما فى الإمكان ،
مجرد حق لكل إنسان يبذله أو يهجره إذا أراد ، بل هو واجب
على كل عاقل ، أن يتأمل بوعى وفهم وإخلاص فى أحوال
الناس ، وما يصارع ويوشك أن يصرع حيواتهم ويقوض
حضارتهم ، وأن ينقب عن سبيل إلى رد الأمان إلى الإنسانية
التى عافت الإيمان من زمن ، فانتهبتها المخاوف والهواجس
والأهوال !

وربما كان من واجبنا فى سعينا هذا لاسترداد الأمان بغرس الإيمان ، أن نضيف إلى معرفتنا بالله وأوصافنا له ـ المحدودة ببشريتنا ! ـ خلاصة ما أدركناه ويسره العلم والمكتشفات من معرفة ببديع وهائل خلقه ، هذا الإبداع الذى لا تزال المكتشفات والعلوم الوضعية تضيف الجديد إلى معرفته وإدراك عوالمه الهائلة المجهولة لنا .. تلك الإضافات التى تصب فى وعينا وعقولنا وأرواحنا ، وتحيطنا إحاطة أوسع وأعرض وأعمق بما أرادت الأديان كشفه لعقولنا ومداركنا المحدودة .. وربما أدت هذه الإضافات التى يحققها العلم للإيمان ، إلى زيادة تنبه الإنسان الحالى إلى خالقه العظيم بديع السموات والأرض ، وإلى نمو معرفته به والتقرب الدائم إليه ، والاتصال المستمر به فى العلم والعمل ـ لأننا من الخالق وإليه سبحانه ، يبقى لنا المعنى ما بقيت أفئدتنا وأرواحنا مشدودة إليه سبحانه ، تستلهم المعنى وتحقق الأمان بالإيمان !

ظواهر ومعالم دنيانا

موضوعات المعارف والعلوم الوضعية ، ومع التسليم بتنوعها وتفرعها ، محصورة دائما فى ظواهر ومعالم دنيانا .. هذه الدنيا التى فيها ولدنا وأُنبتنا لنقضى ما قسم الله لنا من حياتنا الدنيوية كمخلوقات لا آلهة ! .. وكلما زدنا على صفحة الدنيا معرفة وعلما وبصيرة وخبرة ، زدنا وعيا وفهما لحقائق حياتنا الخافية والبادية ، وزادت لدينا فرص اتصالنا الواعى المدرك بالخالق جل وعلا ، وزادت قدراتنا على فهم موقعنا منه ، وزدنا مع ذلك رقيا وثباتا وابتعاداً عن الحماقات والاندفاعات والتقلبات والانحرافات والأحقاد والعداوات التى ليس لها آخر .. فينا وفى نسلنا الآتى فى الزمن القابل !!

متى التهبت هذه الحماقات بمفرزاتها ـ وكثيرا ما تلتهب ـ تنفصل عنا أو تتوقف فينا اليقظة والفطنة والاعتدال ، مثلما تتوقف استقامة الضمير وراية العقل .. هذه الراية التى ينبغى أن تكون رائدنا الأول والأخير فى حياتنا وواقعنا ـ حقيقة لا افتراضا ، عندئذ سيتغير تبعا لذلك معظم ما معنا

الآن من مفاهيم وعادات فكرية وعاطفية ، ومن أخلاق وقيم ومناسيب ومعايير ومقاييس ، وسوف تتغير تبعا لهذا كله معظم أحكامنا الحالية على الأشخاص والأشياء وعلى فهمنا للكون بأسره !

عندئذ ستتحول حضارتنا الحالية غير المسبوقة والتى تعطل كثرة الاضطرابات والأزمات خطاها الواسعة ، إلى حضارة واعية رشيدة تامة الرشد واثقة الخُطى ، لا يلتفت أهلها إلى غير ما هو مبسوط أمامهم بلا نهاية من ثمرات الفهم والعقل والعلم والمعرفة ، فلا تنوى هذه الثمرات ولا يهدد ترقيها وتقدمها عصبيات ولا تعصبات أو عداوات أو حماقات !

هذا الأمل ممكن التحقيق إذا تخلينا كجماعات وأفراد عما اعتدناه من قديم من زهو وغرور واستغراق فيهما ، وتعلق مريض بهما ، وانتبهنا إلى أنهما ضيق صدر وعقل لا يليق بإنسان ترقى وترقت ملكاته ومفاهيمه وتحضره . ذلك أن ضيق الصدر والعقل صفة " بدائية " عامة فى

الحيــوان ، جاهد الإنسان ويجاهد ليتجاوزها ، ويتبقى له من ثم أن يحـرص على مـفارقـة هذه " البدائية " والابتـعاد عنهـا واستـهجانـها ، لأنها تعوق نموه وتحضـره ، وتعرض تطوره للشد لأسفل ولمخاطر التأخر والهمجية !

زهونا وغرورنا !

لقد بدأ زهونا وغرورنا من قديم القديم .. بدأ مع الثدييات وأخـذ فى السـعة والعـمق كلمـا اكـتشف الآدمى مـا فـيـه من قدرات اختـصه الخالق بها دون سائر الخـلائق ، وتميز بـها عن باقى الأحياء !! .. ولم يتوقف زهو وغرور الإنسان عند الفـارق بينه وبين عـالـم الحـيوان ، وإنما أخـذ يسـتمـد أسـبـاباً لهـذا الزهو والغـرور كلمـا أحس بفـوارق تميزه عن بنـى جنسـه ، أو بما أتاحتـه لـه هـذه الصفة من نواتج قدراته التى استطاع أن يحـوز بهـا القـوة المادية أو المعنوية ، أو النفـوذ أو السـلطة أو المال !!

مع اتساع رقعة هذه " النواتج " ، واتساع طرق وأساليب استعمالها ، باتت مفصومة الرابطة الفعلية بصاحبها ذاته ، فامتدت آفاق الزهو والغرور لتشمل كل ما نعرفه من مساعى الآدميين وأغراضهم ومطامعهم ومخاوفهم ! ولذلك شوهدت آثار الزهو والغرور على درجات وصور وصنوف ، فى كل حاكم أو محكوم ، غنى أو فقير ، حضرى أو ريفى ، متدين أو غير متدين ! .. عبر البشر عن ذلك الزهو بإقامة حضاراتهم والعناية فيها ببناء ما يشهد عليها وعلى ما يشبع هذا الزهو والغرور .. فى بناء المدن والحصون ، وفى تجييش الجيوش ، وترتيب الرتب والدرجات والألقاب ، والوظائف والاختصاصات والأعمال ، والالتفات المبالغ فيه لمظاهر الترف والأبهة ـ سواء فى الحلى والملابس والمآكل والمشارب ، والقصور والدور والأثاث والرياش ، أم فى تجميل وتزيين وزخرفة دور العبادة والأضرحة والمزارات .. حتى الطقوس وما شابهها لم تنجُ من هذا الإغراق فى مظاهر الترف الذى صار " الترجمان " عن زهو الآدمى وغروره !

حضارات البشر لم تعرف نفسها حتى الآن ، إلاّ من خلال الرغبة فى إشباع الزهو أو الغرور المتحكم فى الإنسان من قديم ، وهذه الحضارات على تنوعها واختلافها واختلاف زمانها ومكانها ، نراها على الدوام قابضة بهاتين الكفين السائدتين القويتين : الزهو والغرور ـ على كل ما معنا فى الدنيا والدين ، والسلم والحرب ، والتقدم والتأخر!

فالتقشف ـ مع التسليم بقوة البناء النفسى لصاحبه أو أصحابه ـ لا يمت بشىء لأى حضارة .. لاهو ولا " احتقاراً " أو " ازدراء " حياة الإنسان ولوازمها ! .. فالحضارات لاتدين فى نشأتها وقوتها ورقيها للزهد أو الاعتكاف أو الخلوة أو التقشف ! .. قد يكون هذا مطلوبا لسواء موازين الحياة بين الروح والمادة ، أو بين العقيدة والشريعة ، أو بين العقل والجسد ، من خلال " منارات " تفارق دنيا الناس وغرائزهم ومطالبهم وشواغلهم العارضة ، وتنصرف إلى سبحات الروحانيات ـ إلاّ أنه يبقى أن بناء

الحضارات لايتأتى فى النهاية إلا بحصاد تفاعل وحركة وسعى وعمل وجهد ونَصَب !!

على أنه يلزم الآدمى أن يفطن إلى أن الزهو أو الغرور بغير سند حقيقى يشهد له ويبرره (أحيانا) ! ـ ليس إلاّ ضيق صدر وعقل لا يليق بإنسان واع راق متحضر حضارة عارفة عاقلة ، فلن يرجى لأى حضارة إنسانية نجاحا تَفْضُلُ به ما سبقها ، ما لم يفطن غالب البشر ـ بفهم وعقل ، وعزم وإصرار وحماس ـ إلى أن مستقبلهم أجدر بالتأمل والنظر والاعتبار من " الماضى " الحافل بالأوهام والخيالات والأحلام والأحقاد والضغائن والخسائر والكوارث والمجازر والمعارك !!

قد يصدق علينا ما قاله الشاعر : كلنا فى الهم شرق !.. فلو سألنا جميعنا أنفسنا فى صدق وصراحة عن نصيب أى منا من الزهو أو الغرور ، لوجدنا أنهما يغمران كياننا من أخمص القدم إلى شعر الرأس ! .. فنحن جميعا غرقى فى الزهو والغرور ، وفى خدمتهما والإغراق فيهما وحمايتهما !..

فبرغم اختلافنا فى الذكورة والأنوثة ، أو فى الأعمار والمواقع والمكنات والحظوظ من مال الدنيا أو من إقبالها أو إدبارها ، فإننا جميعا نكاد نتساوى فى الإذعان للزهو والغرور ، كل بطريقته وتبعا لأوضاعه وظروفه .. من المفارقة أن نجد الزهو أو الغرور في عالم الحيوان .. لايخطئ المراقبون لهذا العالم زهو الأسد ، أو زهو وغرور الطاووس والديك ، وتملك هذه النزعة من هذه المخلوقات .. بها تتعالى على سائر الحيوان والطير ، ولا يعدم بعضها أن يتعالى على بنى فصيلته .. يعبر عن زهوه أو غروره في مشيته ، ورقدته ، والتفاته ، ونظرته !!

نحن جميعا نصحو وننام غرقى فى الزهو والغرور ، مستعدون دائما للنضال والدفاع عنهما بما تواضع عليه الآدميون تحت مسميات " الكرامة " و " القيمة " و " العزة " و " الاحترام " ـ لذلك نجرى دوما وراء هذا السراب ، ونجاهد من أجله فى حركاتنا وسكناتنا وعلاقاتنا وصلاتنا ، ومودّاتنا وعداواتنا ، ورضانا وغضبنا .. لا نفارق الزهو أو

الغرور ، ونجاهد من أجله بالمال بل وبالكرامة ذاتها طلبا " للمظهر " الذى ننشده ونتحوصل فيه ، دون أن ندرك أن قيمتنا وأماننا الحقيقى فى داخلنا لا فى هذا الظاهر الذى نتعلق ونتيه به !!

هل عرف الإنسان السيطرة علي غرائزه ؟!

مع إيماننا بقيمة وإمكانيات العقل ، وأن إليه يرجع معظم ما أنجزناه فى خاصة شئوننا ، وحققته البشرية على مدار تاريخها ، إلاّ أننا ـ فيما يبدو ـ لم نعرف حق المعرفة ، إلى اليوم وربما إلى الغد ، كيف يمكن لعقلنا أن يسيطر على غرائزنا ويسدد ويوجه زهونا أوغرورنا ، ويصد اندفاعات ومبالغات هذا الغرور الذى يتملكنا .. فى كل لحظة تمر بنا ، ترانا نتلمس ـ دون أن نعى وعيا كاملا ـ أسبابا أو أشياء تستحق الزهو بها فى نظرنا! .. ويبدو أن هذا هو سبب إحساسنا باختلافنا فى الطباع والمشارب والأهواء والأذواق والآراء والأفكار والمصدقات والمعتقدات !

ومع أن هذا حاصل فى كل جماعة ، فإنه يصاحبه عادة اتفاق الجميع على أهداف وأغراض مشتركة أو تبدو للجميع كذلك ، لا تمس حساسية أحد بزهوه أو غروره !.. إذ إن إثارة هذه الحساسية تثير وتحرك تضارب وتعارض وتنافر المواقف والآراء والمصالح .. سرا وعلانية ، وبسبب هذا تتوالد الانقسامات والفرق والطوائف والأحزاب .. تتنافس وتتزاحم وتتناحر وتتخاصم وتتصارع وتتعادى !..

لا مناص فيما يبدو حتى الآن من التسليم بأن تماسك أو ترابط كل جماعة من الجماعات البشرية الحالية - ليس شيئا باقيا على الدوام .. بل هو عرضة ، وأكثر كلما طال أمده ، للتفكك والزوال نتيجة تناحر داخلى مزمن ازداد وتفاقم ، أو نتيجة هزيمة أو تشتيت أو إبادة من عدو داخلى أو أجنبى .. وحين تتشتت أو ينفرط عقد جماعة من الجماعات ، يصعب جدا - إن لم يكن من المحال - إعادتها كما كانت بعد أن عاش نسلها فى " الشتات " أزمانا !

والبشر فى مسيرة وجودهم على هذه الأرض ، يستعينون فى تعاملهم مع تلك " النقائص " وما يصاحبها من معوقات ومخاطر ومغارم ، بنسيانهم أو تناسيهم إياها أحيانا ، وبتحميدها وتمجيدها تمجيداً يكسبها قدرة وإصراراً على إشعال هممهم للكفاح والجهد والصبر والجلد ، وإلى حد التضحية بالنفيس وبالنفس ذاتها ، شغفا وطلبا لحسن السمعة وطيب الذكرى ، ذلك أن بلاء الآدميين منهم فيهم ومن أسباب تفوقهم وترديهم !!

ولكن ، هل يكفى ما عرفته وكشفته الحضارة الحالية ، وما سوف تعرفه وتكتشفه فى المستقبل القريب ، من جولات نجاحاتها وإخفاقاتها ، لأن تدرك أن تحقيق الآمال ، وتفادى النوازل والأهوال ، يستوجب على البشر - عامتهم وخاصتهم - أن يتقاربوا وأن يلتئموا ويجتهدوا معا ، وأن يعنوا عناية تامة بفهم وتحديد وفصل ما بين الفروق التى اتسعت الآن - وأكثر فى المستقبل - بين ماضينا المليء بالتواكل والأحلام

والأوهام ، وبين واقع حاضرنا اليوم ومشارف مستقبلنا الذى نستعد لبنائه على هذا الواقع ؟!

هل فات الأوان ؟!

أخشى أن تكون هذه " العناية الجادة " ـ قد فات أوانها فى الخلافات والمضاربات والاتهامات والصراعات والأزمات؟!.. فهذه " العناية " وحدها ـ إذا حظيت بلطف المقادير ـ هى التى تنقذ إنسانيتنا من الدمار التام !!

لم يعد حاضرنا الذى تجتاحه الصراعات ، ويسوده القلق وعدم الطمأنينة ، يتحمل بصبر وثبات خلط الآدميين فى كل مكان بين الواقع ، وبين الظن والمجازفة والمغامرة ، ولا مزجهم مزجا مضلا بلا مبالاة بين الأمانة والإخلاص والصدق، وبين الحرص على الزهو والسمعة والنفوذ والمهارة والمكر والانتهاز !! .. كما لم يعد حاضرنا الآن قادرا ـ كما كان فيما مضى ! ـ على تبرير قبول الانتقال غير المفهوم من

مذهب إلى مذهب مضاد ، أو من فريق أو حزب إلى آخر معاد، كما لم يعد حاضرنا الآن يتحمل - كعادته فى الماضى ! - اختلاط الأوراق والأذواق والأخلاق والمذاهب ، ولا تضاد وتنافر الرؤى والسلوك بين الصداقات والعداوات ، والخير والشر، والصدق والكذب ، والاستقامة والانحراف ، والجد والهزل أو الاستعراض !

ومن اللافت أنه رغم الطفرات المذهلة التى حققتها الحضارة الحالية ، لايزال أغلب البشر حتى اليوم يشبهون آباءهم وآباء آبائهم فى الكثير من حيث المحاكاة والآلية والشكلية والسطحية ! وقد يجاوزون ذلك إلى التحسر على الزمن الفائت ومحاولة رد الحاضر إليه ! ولا سبيل إلى احتواء ثم زوال هذه " المشابهة " ، إلاّ بزيادة العقل والفهم ، واتساع رقعة العاقلين الفاهمين ، وامتداد تأثير هذه الرقعة يوما بعد يوم إلى سواد الناس .. بفعل الاستنارة والاقتداء التدريجى لا الخطابة أو الفصاحة أو الضغط !

ركام الماضي !

أجل . إن معرفتنا لماضينا ضرورية ومطلوبة لبنائنا النفسى ، ولصنع حاضرنا أيضا - على ألاّ يشوب الغموض معرفتنا بالماضى ، أو تختلط الأوراق والمفاهيم ليصير تعلقا مريضا بلا وعى ولا فهم .. إن الماضى تراكمات لا حدود لها فى القدم ، طبقات فوق طبقات ، تكونت عبر مراحل وسنين وأجيال ، صاحبتها ظروف وأحداث وأحوال ، وداخلتها شوائب مثلما صاحبتها عزائم .. ومصادر ذلك كله فى بطون كتب عديدة ، كتبت عبر أزمنة متعاقبة ، منها السمين والغث ، وقد تزامنها سجلات أو آثار أو مشاهد ، وهى بدورها تحتاج إلى فرز .. هذا الركام الضخم من موروثات الماضى ، يعز فرزه ناهيك عن فهمه على غير المتخصصين .. وحتى هؤلاء ، لا يتساوون فى قدرتهم على الغوص ثم العرض .. منهم من يغرق فى التفصيلات وينحصر فيها ، ومنهم من يستطيع التحليق ليخرج بكليات ومعالم وأصول تتيح إطلالاً واعيا وفاهما على صفحات الماضى .. إننا حين نقول

إننا قد عرفنا ماضينا أو ماضى غيرنا ، إنما نعبر عن معرفة نسبية قامت فى حدود تصورنا نحن عن طريق عقلنا وسعينا نحن ، وليس بسعى ولا بعقل من عاشوا وعانوا هذا الماضى فعلا وواقعا .. القدماء فى تاريخ البشرية القريب والبعيد ، صنعوا أمجادهم على أساس الواقع الذى عاشوه وعاصروه ، لا على أساس التهاويم والخيالات والتواكلات وأضغاث الأحلام !

شيوع القلق وفقدان الأمان !

أخطر وأصعب ما يصادف الإنسان والإنسانية فى زماننا، شيوع القلق وفقدان الأمان فى دنيا صارت مليئة بالصراعات والمخاوف والأهوال ! .. يبتعد الآدمى عن الأمان المنشود ، حين لا يفطن إلى أن الأمان الحقيقى من داخله وإليه ، وأن هذا " الداخل " هو الذى تعرض للنحر والتراجع والتآكل إزاء زحف " ماديات " الحضارة الحديثة المهولة والمذهلة .. أعطت الإنسان ما لا حصر له ، ولكنها أخذت

منه الكثير .. ليس يُخشى على الحضارة الحالية من تراجع أو توقف أدواتها ، فهى فى تزايد متلاحق سريع لا ينى ولا يهدأ ، وإنما الخشية الحقيقية هى على روح وداخل وأمان الآدمى .. عمار داخل الآدمى هو الكفيل برد الأمان إلى نفسه، وعمار هذا الداخل ليس عملية "تشوين" مادية ، وإنما هو فهم وإيمان .. هذا الإيمان الفاهم هو الذى يرد للإنسان توازنه ويقى الإنسانية من عوامل نحر لا يشفع فى مقاومتها الخطوات المادية المذهلة التى قطعتها وتقطعها حضارتنا الحالية .. بل إن هذا الإنجاز المادى الهائل ، وبما يصاحبه من منافسات وصراعات وأهوال ، هو الذى يصب القلق والخوف والتوجس فى نفس الآدمى ، ولا خلاص من هذا الشعور المتزايد بفقدان الأمان ، إلا بغرس الإيمان !

بين الخيال والتصور والظن !

قد يبدو أن القدرة على التخيل والخيال والتصور والظن - هى أوسع قدرات الآدمى على الإطلاق ، فهى أوسع من الوعى ومن العقل ومن العاطفة ومن الذاكرة ومن الحركة والسكون ومن اليقظة والنوم ومن الفضيلة والرذيلة ومن الحق والباطل ومن الخير والشر ، وهى أوسع من الشعور بالذات وبالعمر وبالماضى والحاضر والمستقبل والكون كله فى قديمه بالنسبة لنا وحديثه .

ولصيق بقدرتنا على التخيل والخيال والتصور والظن ، قدرتنا على التعبير عنها بطريقة أو بأخرى ، أى قدرتنا على استعمال اللغة بمعناها العام جداً ألفاظا ورموزا ومصطلحات وإشارات وكل ما اتفق عليه بين البشر فى الإيضاح والإفصاح والإشارة والبيان ، فى أى عصر وأى جماعة ، ولولا هذه القدرة على الخيال المصحوبة بالقدرة على التعبير ،

لما كان البشر جنسا متميزا بالغ التميز عن سائر ما على الأرض من أحياء ! .

والقدرة على الخيال والتصور والظن ، قدرة أولية فى الآدمى ، تشمل كل ما يتصوره فى أى غرض وفى أى لحظة من حياته ـ وترد على ما هو فعلى محقق ، وعلى ما هو راجح أو محتمل تحقيقه ، وعلى ما لا يمكن تحقيقه من الظنون والأوهام والأحلام والأساطير والخرافات والأكاذيب والخدع والإدعاءات .. وجميع ذلك ـ جاداً وغير جاد ـ يعبر عنه الآدمى باللغة وما يندرج تحتها من لفظ ورمز وإشارة ، تعبيرا يهمس به لذاته وحده أو يبديه لغيره ـ علانية ، وفى غير علانية!

وهذا حاصل فى كل زمان ومكان لكل آدمى متداخلا وممتزجا مختلطا يخلط واقعه بظنه ، وجده بوهمه ، وصدقه بكذبه ، وصحوه بحلمه .. وهو شىء ليس منه بد لكائن واع يبدأ حياته وينهيها فى ميدان الاحتمالات وساحة الإمكانات ، مضاربا دون أن يشعر أنه يضارب ، ومقامرا وهو لا يدرى

أنه يقامر ، ويموت فاقدا هذا الشعور أو هذه اليقظة حتى لو قتل نفسه بيده ، لأننا واقعون على الدوام فى أسر الظنون والتصورات !

هل بالإمكان تنقية الخيال ؟!

هذا والتنقية الكاملة التامة لميدان خيال الانسان وتصوره وظنه ، من وضر وعكارة الاحتمالات والأخطاء والأباطيل والأكاذيب والأحلام والأمانى غير القابلة للتحقق ، فيها نوع من معاندة لناموس الكون ، لأنها تحيل الآدميين الذين نعرفهم إلى غير آدميين ، وتكاد تجعلهم كاملين وغير فانين ولا زائلين .. وهذا لم يحدث أو يوجد قط فيما مضى وانقضى ، لأنه يعدهم بوقفة كلية فى النمو والرقى نهائية محرومة من إمكانية *الزيادة فى الوعى والفهم وحسن التصرف* ، أى إمكانية التخلص بتاتا من احتمالات التصورات والظنون والاحتمالات والمجازفات .. فإحساسنا الدائم بنقائص ما نعرفه ونعلمه ، وسعى بعضنا هنا وهناك باستمرار

إلى معالجة ما يفطن إليه منها ، هو بداية ونهاية مطاف نسبى يتكرر وعلة وجود جنسنا هنا ، ثم هو مطاف قابل للامتداد والاتساع قد يتصل اتصالا واعيا متزايداً بالكون العظيم إذا التفتنا التفاتا جاداً مطَّرداً إلى ما يمكن أن يكون مدخراً فى الكون لخيرنا كبشر !

إذ يبدو أننا ـ وإن خلقنا وبقينا حتى الآن على هذه الأرض ـ لم نلزم ونقيد باحتباس أنفسنا جميعاً فيها فى حدود ما وصلنا إليه منها حتى الآن ، لأنه إن ضاقت علينا أرض الله الواسعة ، فإن الكون الفسيح الذى انكشفت سعته الآن لوعينا وإدراكنا ـ لن يضيق ـ مع سعته الهائلة ـ بأمثال أمثالنا ، ومهما تعاظمت أعدادنا الآن وبعد الآن فى أى زمان !

ماذا في رحاب الخيال ؟!

وفى رحاب خيال الحى وتصوره وظنه ـ تعيش المعتقدات وتزول ، ويصحو الوعى وينام ، وينمو العقل ويخبو ، وتتماسك

الأعراف والعادات والأخلاق وتتفكك ، وتزدهر العلوم والفنون وتذبل ، وتنشط الهمم وتهبط ، وتضحك الأيام وتبكى وتشرق وتعبس ـ وفى نفس الرحاب يتداول على البشر السعة والضيق، والجلد والصبر ، والثبات والرعونة والخفة والقلق ، وفى تلك الرحاب يتبادل البشر ويتداولون مع السعة والضيق والجلد والصبر والثبات مع الرعونة والقلق والخفة ، والتوسط والاعتدال ، والحكمة مع التطرف والاندفاع والحماقة ، والرخاء مع الشقاء .. فى تلك الرحاب عاش الآدميون مع الموت ما لا حصر له من المرات ، ولم ييأسوا ولن ييأسوا من بقاء جنسهم ومعه خياله أو تصوره أو ظنه المتطور المتقدم ، لأن تطور وتقدم قدرات ذلك الرحاب على اختلافها وتباينها يحول ـ إذا اطَّرد واستمر ـ .. يحول وحده دون ردة البشرية الحالية التى تودى بها إلى الهلاك ، إذ حياة الإنسان من بدايتها إلى نهايتها نَصَبٌ وكفاح لا ينقطع فيما بين قدرات الآدمى الداخلية بين بعضها البعض أو بين بعضها وبين الظروف والقوى الخارجية ، ويخف هذا الصراع باستمرار

مع تناقص وانكماش السلبيات التى ذكرناها ، أى مع إقلاع الإنسان عن تعصبه لخياله وتصوره وظنه !

علما بأن حياة كل منا شبه سبيكة من جملة مكونات وقدرات غير متجانسة ، تنعقد القيادة فيما بينها لهذه أو تلك على حساب سواها من القدرات ، وذلك إلى أن تقوى وتتكاتف القدرات الإيجابية وتتعاون معا على تسلم القيادة على وجه مستقر لا يتزعزع ولا يفلت من قبضتها ، وهذا فيما يبدو لا يمكن أن تحققه أقلية البشر الناضجة وحدها ، بل يتعين أن ترضاه وتتمسك به أغلبية الخلق على أثر بلوغها الدرجة المعقولة المناسبة لها من النضج والاعتدال .

الخيال ونوبات التعصب !

وأغلبية البشر حتى الآن وإلى مدى - لا يعلمه إلا الله تعالى - معرضة تعرضا خطيراً جداً لنوبات حادة هائلة من تعصب الخيال والتصور والظن - فقد لفت أنظار أغلبيتنا بعنف وجشع متوقد متلهف ظاهر وباهر - ما خلقته الحضارة

الحالية مما صار اليوم فى متناول الأيدى والأطماع ، دون أن يفطن عامة الناس إلى أن ما أوجدته هذه الحضارة لا يمكن أن يزداد نماء ، بل ولا أن يبــقى على حــاله ولا ينقلب إلى نوبات تدمير وتخريب وابادة ، ما لم يتفطن الخلق إلى ضرورة تغيير داخلهم الذى زاد ـ بالانتشار والنشر والدعاية ـ تعصبا للخيال والتصور والظن ، وبأضـعـاف مضـاعفة عما كان عليه من قبل .. إننا اليوم أسرع إلى اليأس وأدنى إلى القنوط مما كان عليه آباؤنا ، برغم أننا على الجملة نكاد نكون أهم منهم حيـاة وأقرب إلى ما كـان يعد فى أيامـهم ترفاً .. فقـد اتسع نطاق الخيال المتشائم فى أفقنا ، وامتد تصورنا لنوايا الشر وأفاعيله حولنا ، وتجمعت فى نفوسنا ظنون السوء فى قريبنا وبعيدنا ، وكدنـا نفقـد البر والمودة والصداقـة وحسن النية فى مـعامـلاتنا !.. ليس مـعنا ـ فى أغلب الأحيان ـ داخل جاد فعلى نقى نـأوى ونرجع إليه فى الجاد من أمرنا ليحـملنا على الإبـاء وعـزة النفس والصدق والأمانة والشهامة ، بل معظم ما مـعنا مناظر وتمثيل ومحـاكاة ودعوى وحسد وغـيظ وغيبــة

وحـقـد وهـرب من رؤية الحق ويقظة الضـمـيـر ، ولعله يقـود خطواتنا في هذا التيه أن الخيال والتصور والظن مجتمعة ـ تقدم للآدميين منذ وجدوا ، غذاءهم اليومى الذى تدور عليه حياة الأفراد والجماعة ، وهو غذاء وقتى عرضى يفقد فى الغالب الأغلب كل قيمة فى نظرنا بانقضاء يومه أو أيامه ، وهذا هو الشغل الشاغل عادة لحياة الأحياء أفراداً وجماعات فى كل زمان ومكان فى دنيا الناس المليئة بالأعاجيب والألغاز!!

تيار الخيال الجاري !

الخيال بطبيعته ـ وكذلك التصور والظن ـ وقتى عرضى ، ولأنه وقتى وعرضى فإنه لا يثبت على حال .. طابعه التبدل والتغير .. وهذا الطابع طابع خلقى يلازم تخيلاتنا وتصوراتنا وظنوننا مقرونا بأسباب ومسببات تجرى فى حنايانا دون أن نشعر.. معظم ما يكون معنا فى كل جيل من معارف وعلوم وفنون وأخلاق وعقائد مما ننظر إليه نظرة الدائم الباقى ،

هو فى الواقع عرضى وقتى متبدل .. نغفل عن ذلك ونغفل معه عما كان عليه ـ فى شأن ذلك ـ وعى وعقل وفهم وفطنة من سبقونا إلى الحياة ، ربما كان مرجع ذلك الموقف ـ تماثل الأوصاف اللغوية العامة التى تصف وتشير وتتحدث بها لغات البشر عن أنواع الخيال والتصور والظن .. إذ لغات البشر دائما أقدم من واقع حياتهم الحاضر ، وليس فى مقدورها ـ إلاّ مجازاً ـ تمثيل الواقع الذى يقصده الأحياء ويريدونه .. فقليل أو كثير مما ينطوى عليه مدلول أى لفظ أو أية عبارة لأية لغة ، فيه ابتعاد قليل أو كثير عن المعنى المقصود فعلا فى ذهن قائله أو كاتبه ، وقد اعتدنا إهمال الالتفات لهذا الفارق كما اعتاده آباؤنا من قبل ، فلا يجاوز استعمال البشر للغة ـ المجرى العام المطّرد فيما يقولون أو يسمعون أو يقرءون ، دون أن يتوقفوا متفطنين إلى الدلالات الدقيقة للألفاظ ومدى اقترابها أو بعدها عن المقصود !

الشعور بلآنا !

وشعورنا بالأنا ـ أى بالذات ـ هو وما يصحبه دائما من الشعور بالغير ـ أى غير الأنا ـ إثباتا ونفياً مكانا وزمانا ـ يكاد فى عمومه يساوى قدرتنا على التخيل والتصور والظن ، فهو يتسع لكل من ينتسب إلى الذات بالدم أو بالنسب أو بالخدمة والتبعية أو بالزعامة أو القيادة أو الرعوية حيال الآدميين الآخرين ، كما يضاف إلى الذات ليزيد من حجمها لدى وعيها ـ ما تملكه أو تحوزه أو تسيطر عليه أو تتصرف فيه أو تديره أو تتولى أمره من المرافق والمنافع والسلطات والممتلكات والأموال ، وبالعكس فإن هذا الشعور بالأنا قد يضيق وينكمش بل ينحسر ويتضاءل ويتفه حتى تكاد الأنا تفقد كل قيمة لها فى عين نفسها فتتسول لقمتها وتنام فى العراء أو فى الخرائب !!

أما غير الأنا ، فعبارة عامة بالغة الاتساع تشمل كل ما لا ينحصر فى ذات الآدمى .. تعبر أولاً عن الخالق عز وجل ، وتعبر أيضا عن هذا الكون العظيم وكل ما فيه من حى

وغير حى .. كبير أشد الكبر أو صغير أدنى صغر ، يدخل ضمن ذلك كل ما هو " غير الأنا " إذا تحدثت أو فكرت أو عبرت أو غيرت !

فاعتراف " الأنا " بحياة غيرها من الآدميين ـ اعتراف بكائن " خارج " " الأنا " أى خارج النفس ، لا يحيا بحياتها ولا يموت بموتها .. اعتراف " الأنا " بغيرها هو من قبيل الاعتراف بوجود النهار وانتهائه وشروق الشمس واحتجابها ورؤية إنسان واختفائه .. والفوارق بين بعض هذه الاعترافات وبعض ـ هو ما يبقى فى وعى وذاكرة وعاطفة الحى منا من سيرة وذكريات مصحوبة بعواطف أحداث وتجارب مضت ـ وتركت آثارها داخلنا .. قد ننتفع ببعضها ، وقد نأسى ونحزن منها ، وقد نشعر أحيانا بارتياح لها ، وقد ننساها تماما ، وقد لا نبالى بها ابتداء وانتهاء لأننا لا نتأثر بها على الإطلاق ، وهو ما يقع لكل منا فى أغلب الأحيان عندما يرى أو يسمع بما يحدث لمن لا يعرفه أو من لا تربطه به رابطة

وذلك فى غير الفظيع والمفجع أو الفكاهى المضحك أو الغريب العجيب !!

كان الأصل فى البشر هو ألاَّ يعيشوا إلا معاً فى جماعات ، وهو أصل يحتوى ويشمل حتما فردية كل أفراد الجماعة برغم إحساس كل منهم بذاته وفرديته وبالاختلاف الضرورى الناشئ عن ذلك الاختلاف فى الشعور بالذات . ويبدو أن هذا أصل كلى جامع يجمع مفرداته أى أفراده فى قدرات وخصائص عامة مشتركة دائبة مستمرة ، يخالفها بعض الأفراد أحيانا قليلة أو كثيرة فى قلة أو فى كثرة ، وتلك القدرات والخصائص العامة أقوى وأطول أعمارا من تلك الخلافات والاختلافات ومضاعفاتها المتمثلة فى الاضطرابات والتمردات والقلاقل والفتن التى قد تجرى داخل هذه الجماعة أو غيرها ، إذ تلك الأحداث لا تخرج عن كونها عبارة عن عوارض تجرى وفق عواملها لا وفق تخيلاتنا ، وتحدث آثارها تبعا لدرجة قوتها أو نضجها وليس وفق تخيلات أو

تصورات أو ظنون أفراد البشر الذين من المحال أن يجتمعوا على رأى واحد أو نظر واحد أو أسباب واحدة !!

فالجماعات البشرية يصاحبها من بداياتها اختلاف أفرادها إلى شراذم وفرق وطوائف ، وأبناء بلاد وأحياء وقرى ونجوع ، ولتكوّن باستمرار مجاميع أصغر وأصغر كما تكوّن مجاميع أكبر وأكبر ، وذلك بحسب نوع الرابطة التى تربط المتمسكين بها من الأفراد .

وكما تضم الجماعة البشرية عديداً من الأفراد مختلفين وأحيانا متعادين ، تضم فى نفس الوقت جماعات من الأفراد تندرج من كبراها إلى صغراها نزولاً أو من صغراها إلى كبراها صعوداً .

مكمن دمار الجماعة !

مكمن الخراب والدمار للجماعة البشرية ، ليس مجرد

وجود العداوات هنا وهناك .. هذه الجماعات يلحق بها ما يلحق بالأفراد ، فيصيبها الاختلاف وأحيانا التضاد ، وإنما مكمن انتشار العداوات واشتهارها هوعدم وجود القادرين على كبح جماحها وردها على أعقابها .. فهنا تتجمع أمارات أكيدة لخراب عاجل يدفع ثمنه المحسن قبل المسيء والشريف الفاضل قبل الوغد ويقتضى علاجه فى الجماعة عشرات السنين ، ربما كان فى مقدورها تفاديها لو التفت الملتفتون وتنبهوا حين كان ذلك مجديا نافعاً .!

أما الصدام المسلح أو الحروب بين الجماعات ، فظاهرة بشرية لم تنقطع قط فى دنيا البشر منذ وجود الشعوب والأمم والأجناس وشعور الآدميين بضرورة الانتماء لواحد منها ، وانحياز وتعصب أهل كل جماعة للمجموع الذى ينتمى إليه ، سواء سمي شعبا أو أمة أو مملكة أو سلطنة أو إمارة أو جمهورية أو دولة أو ولاية أو اتحاد دول أو ولايات يرفع علمه ويعتز برعويته إليه ظاهرا أو باطنا إن كان صادقا .

وبين الحروب والثورات والفتن الداخلية قرابات ، أهمها اللجوء إلى استعمال السلاح والغلو فى العداوة وسيادة التعصب وإبعاد السلام من أذهان المتحاربين والثائرين والحكومة القائمة بإخماد أو محاصرة ثورتهم نجحت أو لم تنجح ومن ساندها من رعاياها .!

وإلى اليوم لم يقلع البشر عن التشبث والانتماء لهذه الأرض أو تلك التى يعيشون عليها كجماعة متميزة كما عاش آباؤهم ويتمسكون بها تمسك المتعصب المستميت ـ كما لم يقلعوا عن النظر إلى أبناء أى أرض غيرها كأجانب وغرباء معرضين فى الأعم الأغلب للتوجس والاستراية .. تزداد الاستراية إذا كان اولئك فى الماضى موضع عداوة أصيلة خاصة إذا كانوا يدينون بدين مخالف .. وللأسف لم تنجح الديانات الكبرى حتى الآن ، فى تغيير ذلك الأثر المزعج الهائل المبنى على مجرد اختلاف " المكان " أو " الجنس " أو " العقيدة " .. ويبدو أن الشوط لا يزال بعيداً أمام معتنقى الديانات المختلفة وبين الالتزام بسيادة المودة والأخوة مع

سواهـم مـن البشـر ، ولـو كانوا من أهل الأديان الأخرى مـا سالموهم .. لا يزال البون شاسعا لتحقيق هذه المودة بغض النظر عن الاخـتـلاف فى الأرض والجنس واللون والعـمـر والذكورة والأنوثة والغنى والفقر - ربما اقترب البعيد إذا أدرك البشر أنهم جميعا عباد لإله واحد هو خالق كل شيء وكل حى واهتدوا إلى جوهر الإيمان والتزموا بذات الإخلاص فى السيرة والسريرة .!

هل أفلحت الأديان في نزع التعصب ؟!

نقطة البداية فى تجاوز أى عقبة أن نواجهها ونراها كما هـى بغير خداع للنفس ، أو سقوط فى خدرالتهوين أو الخوف من التضخيم !.. نعم ، علينا أن نقر بأن الأديان بعامة قد أخفقت حتى الآن فى نزع ما بين أبناء كل منها وأبناء الديانات الأخرى من توجس ناهيك بعدم سيادة المودة والإخاء - أو بالقدر اللازم - بين أهل الأديان .. ولم تنجح الأديان بعامة فى الالتفات إلى الأصول الواحدة للديانات السماوية

قبل أن تزحف عليها مصالح أو تحريفات الناس ، ولم تنجح في اقتلاع أسباب الكراهية والتعصب والعداء بين جماعات البشر ، بل كثيرا ما أشعل التمسك المتعصب بتلك الأديان ، حروبا ومجازر دفع بسطاء الناس ثمنها من أرواحهم ودمائهم ومصائرهم .. هذه المجازر العمياء صارت عللاً وأسبابا - أو تعلات ! - لبقاء العداوات في قلوب وعقول البشر ، تلك العداوات التي لم ينج منها حتى المنتمون إلى نفس الدين . ذلك أن الخلاف على الأرض أو على السطوة والسيطرة ، قد حجب عن العيون والقلوب معنى الوحدة في العقيدة الدينية ، مثلما غطى العداء الأعمى للإسلام - في عيون أعدائه - على ما ورد في قرآنه المجيد من أن الإنسانية قد انبثقت من أصل واحد ونفس واحدة (النساء ١ ، الأنعام ٩٨ ، الأعراف ١٨٩)، وأنهم مع هذا خلقوا مختلفين ، وسيبقون مختلفين في عقولهم وقدراتهم ، وفي فهمهم وعقائدهم .. عن هذه السنة الكونية تحدث القرآن فقال : (وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ) "هود ١١٨» .. فلا يقابل

الإسلام هذا الاختلاف بالازدراء والعداء ، وإنما بالهداية والإسماح .. آيته الكبرى : (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ)«الحجرات ١٣» (.. ومنهاجه الواضح أن الأديان لا تعتنق بالقسر والإرغام ، وإنما بالهداية والإقناع ، وأن النبوة دعوة للعقل والوجدان والضمير .. بالإبلاغ والإرشاد ، لا الفرض ولا الإجبار .. (إن عليك إلاّ البلاغ) «الشورى ٤٨» (إن أنت إلاّ نذير . إنا أرسلناك بالحق بشيرا ونذيرا) «فاطر ٢٣ ، ٢٤».. (ليس عليك هداهم ولكن الله يهدى من يشاء) «البقرة ٢٧٢» .. وأن الأديان أصلها واحد .. (آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ) «البقرة ٢٨٥» وفى آية أخرى : (لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون) «البقرة ».. بيد أن روح الكراهية التى شاعت بين أهل الأديان قد حجبت عن العيون والقلوب " السماحة " ومعنى

الوحدة فى العقيدة الدينية التى أرشد إليها القرآن المجيد ، فانطلقت العداوات بين أهل الأديان حتى لم ينجُ منها أبناء الديانة الواحدة فيما بينهم !!

ولكن ذلك ليس غريباً على المتأمل - لأن أهل الأديان الكبرى مع اختلاف الأزمنة وتعاقبها بالأحداث المتغيرة على الأمكنة التى عاشت فيها تعاليم وعقائد هذه الأديان ، قد حولوا تلك العقائد الدينية إلى عقائد اجتماعية مكانية خاصة بكل جماعة أو مجموعة جماعات باتت كل منها - نتيجة لذلك - لاتبالى إلاّ بالمصالح القريبة الخاصة بها التى تهمها أو يظن المهمون فيها أنها تهمها هى بالذات قبل ما عداها ، وتقدمها على سواها أحيانا بتعصب وعنف ، غيرةً منها على المكانة الحاضرة والمستقبلة !

والناس ومن سبقهم من الأجيال التى ابتعدت عن جيل الرسالة - يخافون أن يسلموا بهذا الواقع الذى لا ينقطع صياحه فى الوعى والعقل والعاطفة والعادات .. يخافون على

قدسية تعلقهم بدينهم وانتمائهم الحميم إليه ، وهو تعلق تجاوزوا واقعه بفراسخ .

ولو أن واحداً أوأكثر من الذين أسسوا الأديان الكبرى - بعث فى وقتنا هذا لما أمكنه أن يتعرف على أحد ممن ينتسبون الآن إلى الدين الذى بعث به وحمل رسالته من قرون ، لأن المتدينين إنما ينتسبون لأديانهم - من هذه الزاوية - على المجاز والعاطفة فقط .. ولما أمكنه - أى ذلك المؤسس - أن يرد أيا منهم - متعصباً أو معتدلاً - إلى ما كان هو عليه فى الماضى البعيد من نوعية ومطالب ومعالم التدين والحياة التى كانت فى ذلك الأوان البعيد ، إذ إنه مهما بالغنا فى هذا الأمر إلى أى حد ، لا نستطيع إنكار أن الأديان الكبرى التى ننتمى إليها اليوم ، جزء لا يتجزأ ولا يمكن فصله من حياتنا الحالية في عصرنا الحالي وحضارتنا الحالية .. يسير معها أينما سارت فى مسارها هى .. أردنا ذلك أم لم نرد !

فإصرار بعض أهل الأديان على تجاهل هذا الواقع

الصــارخ عناء وعناد لا طائل وراءه ، إلا إضـاعـة الأوقـات والجهود والأموال فى محاولة للعودة إلى بعض ما كان متبعا فـى ماض بعيد جداً لم يعد فى حياتنا الآنية مايمكن إزاءه أن نعود إلى ما ساد هذا الماضى وعاش فى حنايا ونسيج السابقين !

ذلك أن من طبيعة الآدمي تغيير اهتماماته مع تغير ظروفه وزمنه ، لكى يمكنه مسايرة ما فرضه ما تغير وما يتوقع حصوله فى مستقبله القريب ، أما تغيير اهتماماته الحاضرة الموافقة لحاله وحال أمثاله فى عصره الحالى للرجوع بها إلى ما كان عليه أهل الماضى البعيد ، فعجيبة إن حدثت لا يمكن لآدمي اليوم أن يصبر على معاناتها بإخلاص واستمرار ، ولا أن يسايره كثيرون غيره فى ذلك الصبر والإنسحاب العجيب .

الأضداد المتعاقبة !

وفى طبيعتنا ما نسميه بالأضداد المتعاقبة فالتعب يعقبه الراحة ، والحزن يختفى مع الوقت أو بمجىء السرور ، والجهد ينتهى بالاسترخاء وتعود الساقية فى الاتجاه العكسى، وهكذا تسير حياتنا طرداً وعكسا وعكسا وطرداً ـ لأننا كما سبق أن قلنا نحيا حياة مؤسسة على الاحتمال والتوقيت واستمرارهما معاً عطاء وأخذا وشداً وجذبا وزيادة ونقصا .. لا يوجد ثابت فى حياتنا إلا الحياة نفسها مع تغير أنواعها وأنماطها وصورها " مسيرة " الزمان والظروف وتنوع الأمكنة والأجواء ! .. وقد تتدهور أو تتقدم وتتطور حياتنا دون أن نفارق بشريتنا ، وصور التدهور أو التقدم لا تتكرر لأنها صور تحمل كل منها آثارها وظروفها المتغيرة ، فلا تتشابه هذه الصور إلاّ فى المعالم فقط ـ تدهورا وتقدما ـ لآدميين مختلفين أفرادا وجماعات فى عصور مختلفة . فإغضاؤنا عن ذلك الاختلاف الأساسى ـ وهو وليد الاعتياد ونتيجة لدوام التوالد ولحاق الأجيال بعضها ببعض ـ هو الذى

يسر تصور بعضنا إمكانْ العدول عن عاداته ومشاربه ومعارفه وأذواقه الحالية إلى ما كان عليه آباؤه فى الماضى البعيد ، وربما كان شيوع هذا التصور الواهمَ ـ قليلا كان أو كثيرا ـ راجعا أيضا إلى بقايا الطفولة حين يحاكى الطفل أبويه فى كل جيل لأنه غير قادر على المقارنة والنقد ، ولا تتعرض هذه المحاكاة الآلية المتتابعة الجزئية دائما للتأثر كما يتأثر غيرها من نواحى الحياة بالتغييرات البارزة التى حدثت فى البنية وأحدثت آثارها الأخرى الواضحة فى حياة الجميع، وذلك دون أن تمس لديهم ذلك التصور الواهم الذى كان نائما ثم استيقظ فجأة لسبب أو آخر فى المحيط وذكرهم بضرورة المحافظة على مقدساتهم كما تصوروها اليوم ، وليس كما كانت عليه فى الماضى البعيد جدا الذى لم يوجد منه فى وعيهم إلاّ خيالات غائمة ـ فهى فى واقع الأمر محاولات إحياء لبعض أمور الدين ممن لا يعرفونها على حقيقتها الفعلية ، وذلك بأمل ساذج فى بسط سلطان تلك الأمور على حياة الآدمى الآن فى كافة نواحيها !

وفى بحار الظنون والتصورات والتخيلات التى يغرق فيها باستمرار وعلى الدوام ، كل جيل إنسانى ، يرتع الوسواس الخناس فى صدورنا وعقولنا . ويدعونا الدين والعقل إلى الانتباه لذلك الوسواس وإلى أن نتعوذ بالله تعالى من تأثيره . إذ يندر جدا أن يوجد وراء الظن وحده أو التصور وحده أو التخيل وحده واقع يصح أن يثق فيه عقل العاقل ويطمئن إليه!

الظنون وأصولنا الفطرية !

لعل جاذبيتنا للظنون وأمثالها واعتماد الكثيرين منا عليها ، يرجع مرجعهما إلى أصل فطرى فى الأحياء جميعا ومنهم البشر - وقد اتسع هذا الأصل بالنسبة لنا مع اتساع وعينا ولغاتنا وذاكرتنا خلال تقدم الجنس البشرى . وترقيه واتساع نطاق الاحتمالات والأبحاث إلى غير حد فى حياة البشر جميعا أفرادا وجماعات . فكل ما نسميه تقدما أو تطورا أحرزناه أو نحرزه ، ينطوى على سلبيات لا نلتفت إليها فى

أول الأمر ، ولكن تذهلنا السلبيات فيما بعد بمشاكلها ومخاطرها وأحداثها ونواتجها التى تكلفنا حتما متاعب وهموما وخسائر ومصاعب فى الإصلاح والعلاج .. فلم ينجح البشر قط ولا يمكنهم أن ينجحوا فى حياتهم كجنس أو كجماعة نجاحاً صرفا خاليا من العيوب والمآخذ الحاضرة أو المستقبلة ، لأن حياتنا بأسرها مبنية على الاحتمالات وليس على المؤكدات والتيقنات ، ولذا فقد اعتمد البشر فى التبصر والنظر إلى المستقبل القريب والبعيد على الإحصاءات ودرجة إحكام وضعها وقراءتها !

واستخداما للقدرة الواسعة على التصور التى لا حد لها لدى البشر ـ اعتاد البشر من قديم الزمان على المبالغة فى أهمية ما يسمى بالعام والكلى والمطلق والأزلى والأبدى والفانى والباقى .. ويتعلقون تعلقاً شديدا بهذه المعانى وأمثالها ويستخدمونها فى بناء جماعاتهم وحضاراتهم وما يموج فيها من معارف وعلوم وفنون وآداب وديانات ، وأنشطة اقتصادية واجتماعية !

وفيما يبدو أن البشر قد استعانوا على ذلك ، ببث الحياة الآدمية فى تلك المعانى ومعاملتها معاملة الأحياء بل وفوق الكائنات الحية ، فتخيلوا وجود إرادة بل إرادة متفوقة للتاريخ وللشعب وللأمة وللطبقة وللأرض وللملة وللتقدم وللتطور وللقدر، وتصوروا أنها إرادة ماضية قاهرة لا تُغلب ولا تموت ، واستقر ذلك فى النفوس والعقول وبات لدى المنظرين والناس بديهيا لا تجوز المماراة ولا الجدال فيه ، وينبغى من ثم أن تكون له الكلمة الأخيرة إذا اختلفت الآراء والأصوات !

وقد يبدو أن البشر فى عمومهم ، لا يعنون كثيرا ـ فيما يقولون وما يفعلون ـ بالصدق واحترامه ، إنما يعنون بالنهايات والنجاحات !! .. وقد سهل ذلك كثيرا بناء ما بنوه وحققوه من التطورات والحضارات .

ما بين أيدينا !

إن ما بين أيدينا من حاضر ومن بقية ماض ومن تصور مستقبل قريب أو بعيد ، ليس غراس فضائل فينا ، بل هو مزيج مختلط أشد الاختلاط لاتعرف نسب مقاديره ولا يحفل أحد بمعرفة نسبة هذه المقادير من فضائل وغير فضائل ومن راجح ومحتمل ومرجوح ومحض خيال !! .. وكلما زاد التفاتنا لمخاطر ذلك المزيج زاد تطورنا قوة وثباتا ، وزاد جنسنا أمانا وابتعادا عن الكوارث التى نشهد اليوم بوادرها التى تهدد الحضارة الحالية بالزوال !!!

على أن الغيب ، وما يخبئه ذلك الرصد الشامل الغامض المحير الذى يحيط بحياة كل حى ، يمثلان عبئا ثقيلا وتحديا هائلا لرؤية الآدمى للحاضر أو للمستقبل الملىء بالاحتمالات .. أغلبنا يهرب إلى ظنونه وتصوراته وخياله يحاول بها وفيها إبعاد الغيب عن حياته والتخلص من قبضته !

لكننا نضطر لأن نحنى الرقاب استسلاما لحكم الغيب والقدر ، لاسيما أمام الموت وأمام العجز البدنى أو العقلى ، وأمام الهزيمة التى لا تعوض ، وأمام الفشل المصحوب باليأس ، وأمام الفاقة المزمنة المستحكمة !

أما المتيقظون الفطنون من الآدميين فيستعينون للتخلص من عبء الغيب وثقله على كاهلهم بالتسليم لمشيئة الخالق جل وعلا ، والتوكل عليه وتفويض الأمور كلها إليه مع الانصراف بجد وإخلاص لأداء واجباتهم ومقتضيات حياتهم وعلاقاتهم ، وهذه إحدى مزايا الدين الهامة ، على الرغم من خلوها من الجرأة والمغامرة اللتين يجتذب بريقهما وبريق نتائجهما الناجحة على قلتها ، كثرة أطماع العاديين من البشر !

لاتساع مدى الظن والتصور والخيال لدى البشر لم يعرفوا - عملا أو اعتيادا - معالم الممكن وغير الممكن بوضوح كاف ، فتاهوا لذلك بين راجحهم ومرجوحهم وواقعهم وخيالهم، وباتوا خلال عصور طويلة جدا يظنون غير الممكن ممكنا واجب الاجتهاد فى الإيجاد والتحقيق بلا جدوى ،

يمضون فى هذا التيه جيلا بعد جيل ومازالوا واقعين فيه ، وأنساهم ذلك الالتفات إلى كثير مما بين أيديهم من الممكن القابل للتنفيذ مع القليل أو الكثير من الانتباه والعناية ـ وضاع مع فوات تنفيذ الممكن فرص الاستفادة والانتفاع به فى تحسين أحوالهم المادية والمعنوية وزيادة ثقتهم فى قدراتهم على الإنجاز والنجاح !

وهذا الخلل أو النقص المزمن فى إدراك الممكن والتعرف عليه والسعى الجاد إليه للانتفاع المستمر به ـ قد ساق البشر بعامة إلى التماس الصدفة وخطاب الحظوظ بالمغامرة أو المقامرة مع التماس المأمول بلا جهد حقيقى انتظاراً لنفحات الغيب الذى ربما أغنم الآمل بالفوز بما يتمناه ويتمنى معه التميز على الآلاف من أمثاله دون بذل ولا جهد ولاعناء ولا كدح ولا كد !!

هذا وقد بلغ الآدمى فى تجواله بسعة ميدان ظنونه وتصوراته وتخيلاته ، إلى حد تصور وإمكان مناقشة وجود الخيالات والأوهام ، لا يبالى عادة فى هذه الظنون

والتصورات بما نسجه فى خياله بالصدق والكذب ، لأنه لا يتحقق ولا يدقق فى توقعاته التى لم تحدث بعد أو التى حدثت دون علمه ، مرتاحاً فى هذا كله إلى ما مال إليه ظنه فرضيه وآثره على سواه ، واعتقد أن له فيه مصلحة عاجلة أو آجلة ، فيباعد بهذا الخدر المريح بينه وبين أخذ الأمور بالجد والاحتياط والتجربة والاختبار !

قوة الأعماق .. أين ؟

ما من آدمى إلاّ ويخضع لناموس الحياة التى تتغير ويتغير معها ، فنحن جميعا بغير استثناء نغير معظم معالم حياتنا كأفراد وجماعات تغييرا جذريا ، لا نلتفت إلى حصوله فى كل جيل ، ولا نشعر بطروء هذا الواقع الفعلى (المادى الشأن) ، لأن كلا منا يتجاهله فى تيار حياته تجاهلاً يعبر عن تمسك لا شعورى ببقاء الجنس ، سواء فى " الوحدة " الواحدة من وحداته ، أو فى عدد قليل أو كثير من وحداته .. كالأمة أو النوع أو القوم أو القبيلة أو العشيرة أو العائلة أو الأسرة .. هذا التمسك رمز أو معنى - فى كل فرد منا - لاستمرارنا وتتابعنا وتواترنا ، فيه إصرار ضمنى كامن على نوعٍ من البقاء والتواجد لم يمنعنا - ولا يمنعنا - من أن نغير بلا انقطاع معالم الفرد والذات والأسرة والمحيط ، والمسكن الذى نعيش فيه ، والأرض التى تجمعنا .. نغير ذلك ونغير معه باستمرار النظرة والتصور والتفكير والرأى والحكم

والاعتقاد والنشاط والعمل ، والمأكل والمشرب والملابس ووظائف الأوقات نهارا وليلا فيما نسميه جدا وهزلا، وخاصاً وعاماً ، وراحةً وتعباً ، وحركة وسكوناً ، وسروراً ونكداً ، وأملاً ويأساً ، وصفاء وعداء وخليطا منهما ، وخيرا وشراً !

معنا ـ مع هذا التغير الدائب الذى لا ينقطع ـ توجد " القوى " و " الأعماق " والطيبات وغير الطيبات وغير ذلك مما يجرى عليه الاصطلاح .. معنا قوة البدن وقوة الفطنة وقوة الحافظة ، وقوة الذكاء والفطنة ، تصحبهما قوة الرجاء والأمل، وقوة الأقرباء والعزوة والأنصار ، بل وقوة اليأس والهدم والإفناء والزوال ، والمقت والكراهية والعداوة !

لكن ليس معنا قوة الأعماق ، إلاّ لدى أقل القليل منا ، لأن هذه القوة ـ قوة الأعماق ـ تتخطى ـ بأطاييها ومثالبها ـ دنيا العاديين من البشر .. وقد يفطن الآدمى العادى إلى بعض معالم تلك الأعماق ويحاول الالتصاق بها محتفظا بدنياه بصورة يتصورها هو لا تبعده عن غيره !

قوة الأعماق التى أعنيها ، لا أقصد بها أكثر من التعبير عن محاولات بشرية جادة جدا إلى حد الإنهاك ، تتجاوز كلية - سيطرة وسطحية حياتنا اليومية المعتادة .. هذه المحاولات الجادة طريقها التأمل المتأنى المزمن ، الطويل الحبل والصبر ، الدائم الملاحظة والمقارنة ، والانتفاء والإقصاء .

هذا التأمل المزمن الطويل يقرب للآدمى غير العادى ما يبدو للآدمى العادى بعيدا ، ويقصى تماما ما قد يظنه حاصلا متفقا عليه مسلما به ! .. نشهد هذا النوع من القوة لدى أفذاذ المفكرين ونوادر وقمم أهل العلم والفن . هؤلاء لا يبالون إلى غير حد ، بما نبالى به نحن العاديين من مغانم وخسائر ، وسعادة وشقاء ، وملاذ ومكاره ، وارتفاع وانخفاض ، وصحة ومرض ، وغنى وفقر ، وأمن وخطر .. هذه " الحالات " التى يبالى بها العاديون ، لا تمس من قريب أو بعيد ، الالتفات للأعماق ولقيمتها وقوتها لدى المغرمين بها المتفانين فى الحرص عليها إلى أن يفارقوا الحياة !

وقد يصل إلى أيدينا نحن العاديين ، كما حدث ويحدث وسيحدث - نواتج وآثار وصنيع لآراء وأفكار وضوابط وقواعد وأحكام معينة لأولئك النوادر والقمم ، لكنها لا تتجاوز في الأغلب الأعم قدرات الفهم البشرى السائد الذى لا يتعاطى التعمق ولا يرحب به أو بالكد والكدح في التدبر المضنى الطويل الذى يصاحب " النوادر " غير العاديين إلى نهاية الحياة ..

على هذا الفارق الجسيم ، وإلى يومنا هذا ، عاشت الجماعات البشرية .. تجمع وتضم مع الكثرة الغامرة - القلة النادرة وآثارها .. قد يسأل من يسأل منا : هل تنتظر البشرية في زمن ما - في المستقبل القريب أو البعيد - أن ينعكس هذا الوضع ؟! وكيف يمكن أن يجرى هذا الانعكاس؟

نسبية الأعمال !

كلمة " أعماق " - جمع فيه بعض وليس كل الدقة ، لأن العمق نسبى تختلف درجاته إلى ما لا حد له ، باختلاف

العقول والأفهام والمواهب ، وباختلاف الأجيال والعصور، وباختلاف الثقافات والحضارات التى عاش فيها هذا أو ذاك من المتعمقين النادرين الأفذاذ .. وأولئك النوادر الأفذاذ هم بشر ، ليس معهم إلاّ بشريتهم ومواهبها ، رؤيتهم رغم الندرة والتميز ـ نسبية ، فلم يروا كل ما فى الإمكان رؤيته وفهمه بدقة مطلقة إلى آخر الدهر ، وإنما رأوه فقط وفهموه بمزيد من الدقة النسبية عن عامة وخاصة الآدميين فيما تعمق فيه هذا أو ذاك منهم فى الأمور التى تعمقها على منتهى جهده .. لذلك فإنه لا يقيد بفهمه ما انتهت إليه عقول جيله أو ما بعد جيله ، اللهم إلاّ إذا أجدبت الساحة ولم يصادف الناس ـ فى جيلهم أو ما قبل جيلهم ـ متعمقا فذا أكثر عمقا ووضوحا لأفهامهم وأذواقهم فى جيلهم !

أعود فأقول إننا فى الإطار العام لكل جماعة ـ نحرص على قوانا البشرية التى أشرت إليها ، ونحرص بها ومعها على فردية كل منا ، كما نحرص على دورها فى جذب الأفراد بعضهم لبعض ، وفى إبعاد بعضهم عن بعض

تبعا للظروف والأحوال الماضية والحاضرة بين المتزاحمين على الحياة ـ أينما وجدت ووجدوا ـ بقوى الأمل واليأس والماضى والحاضر موجوداً أو مفقوداً ، تبعا للقيم المفترضة احتياطاً أو ظنا لما نسميه القواعد والضوابط المقررة لدينا ، المليئة بالخلط والوهم والكذب المتعمد خلال اندفاعنا الذى لا يهدأ فى الإقبال على الجِّدة والحداثة وعدم المبالاة بغيرهما ، إعراضاً منا عما نسميه : القديم أو المتخلف أو الرث أو البالى أو المهجور المتروك !

مضاربة دائمة !

فحياة الآدمى فى دنياه ، يقظا كان أو نائما ، هى دائما مضاربة لا تنقطع نهارا وليلا منذ أن يولد إلى أن يموت ، ـ يحكمها ما لاحصر له من الاحتمالات ، يتداخل بعضها فى بعض بغير توقف . وقلما يفطن الآدمى إلى جانب منها فيحاول تعديل مسارها أو تحريكه أو إيقافه كما يظن أن فيه خيره فى الحال أو المآل ، أو يلهمه أحيانا لأمدٍ ما ـ نجاحاً

يستحيل دوامه فيه أو فى نسله من بعده . لأنه فى استعداداته وإمكاناته وظروفه التى وجد فيها لا يتخطى عادة دنياه الظاهرة التى تتداوله وأمثاله بأطايبها ومثالبها ، إلى ما وراءها من الأعماق ، فإن نجح فى الوصول إلى معالم بعض هذه الأعماق ، فإن جهده قد لا يقوى على محاولة الوصول إلى القرب منها ، فيستغنى عن ذلك الوصول بالالتصاق الخارجى الدنيوى بفذ أو أكثر من أفذاذ المتعمقين السابقين أو المعاصرين أو لمن يعتقد أنهم كذلك من المهتمين بالعلوم والفلسفة والآداب والفنون والصوفية والتصوف ، يتلمس فى أعماقهم ما قعدت به أعماقه - إن كانت - عن الوصول إليه !

أطوار الزمن !

المتأمل فى أحوال الجماعات منذ كانت ، يلحظ أن الجماعات القديمة قد توالت عليها صنوف متنوعة مختلفة من الأحداث ، ما بين الأمجاد والمحن ، والعزة والذل ، والقوة والضعف ، والثراء والحاجة .. وعبر هذه الأحداث وما أحدثته

من ندوب وحفائر تأصلت واستحكمت فى نفوس الأجيال ، إلى الجيل الحالى رغم ما بلغه من تقدم وتطور ، أصول وعروق لإحساس دفين - يختفى ويظهر - بالتشاؤم وتوقع الخيبة أو الإخفاق وانتظار الهزائم أو المبكيات !!.. وهذا كله معالم ليأس متجمع مزمن ، عميق وغائر .. لم يعد فى الإمكان اقتلاعه من أعماق الحاليين برغم أنهم لم يعيشوا بنواتهم ولم يشهدوا بأنفسهم ذلك الماضى السحيق أو البعيد أو القريب بما كان فيه من تعاريج وأحداث ، ومع ذلك وجدوه فى طيات عواطفهم ومخاوفهم التى انتقل اليهم بعضها عبر طبقات متتالية من الأجداد والآباء ، فصار الراقد فى هذه الأعماق كالغريزى .. هذا الشعور الغريزى بما يحمله من يأس عميق مزمن ، تشهد به لغات البشر واعتقاداتهم ومشاربهم وأمانيهم وأخلاقهم وطباعهم ، وتورى به إليهم آثار هذا الماضى فى معظم مدنهم وقراهم وحقولهم وحصونهم ودروبهم وأنهارهم وشواطئهم .. يحمل كل ذلك علامات وحكايات الماضى فى تشكل مجارى الأنهار أو تكوين طرحها ، وفى

تآكل الشواطئ وما أصابها من نحر عبر أجيال ، وفى آثار ومتروكات الماضى التى انتقل بعضها إلى المتاحف والمعابد ، وتغلغل فى فنون الناس وآدابهم وتقاليدهم وتواريخهم .. فما كانت هذه الطبقات المتراكمة لتختفى تماما من دنيا الحاضر ، وإنما ستبقى ويبقى أثرها مع الناس وفيهم إلى مستقبل ما .. فمن المحال أن ينقطع حاضر الناس كلية عن الماضى وآثاره .. لا يغير من ذلك طغيان الحاضر الماثل على صفحات وعى الناس ، ولا انشغالهم بهمومه أو تفاهاته .. فليس فى إمكانهم أن يعيشوا حاضرهم اليوم من فراغ ، وبلا ماض يتذكرون بعضه ويتمسكون بجانب منه ، وليس فى إمكانهم أن يعزلوا حاضرهم بأطاييه ومثالبه عن تاريخ مجيد فى أعينهم ، ينظرون إليه فى اعتزاز يصاحبهم فى صعودهم ، ويعزيهم دائما ـ عما يمكن أن يصادفهم أو يحتمل أن يصيبهم من إخفاقات أو مرارات !

لقد اعتدنا إلى يومنا هذا فى الجماعات كلها ، على رؤية وجود الفقر والشقاء والحاجة والعوز ، وعلى رؤية وجود الحياة الخشنة القاسية التى قد لا تسمح لمن يكابدونها بالتقاط الأنفاس ، ولا بشىء من الهدوء ، مثلما لا تسمح لهم بقدر معقول من الراحة يتيح أو يسمح بالتأمل والفهم والاختيار والتفصيل !

وقد اعتدنا ـ نحن البعيدين عن هذا البلاء المزدوج ، وعن نَصَبه ومكابداته ـ على رؤية مكابدى هذا البلاء بتسليم مجدول بترفع موروث من قرون وآباد ، حتى بات ذلك كله فى نظرنا سرمديا طبيعيا ليس منه بد ولا مفر ، وأنه لا يحتاج إلى تفكير أو مزيد تفكير لأنه غير قابل للتغيير !! وقد يتصور بعضنا أن ما يحتاجه هو الحرص على الابتعاد والنأى عنه ، وأنه لا بأس فى ذلك ولا تثريب ما دام الابتعاد مصحوباً بقدر من الإشفاق .. يبذله المشفقون من بعيد أيضا .. ولا يحبون فى إشفاقهم أن يواجهوا أنفسهم بحديث داخلى خفى دائر فى حناياهم يزين لهم أن ذلك ضرورى لنواميس الحياة ،

ويقصدون أنه ضرورى لخدمة مصالحهم ومشاريعهم ومرافقهم وأسرهم ، ولا بأس من أن يكون لخدمة راحتهم أو ترفهم أو لهوهم أو أحزانهم وأفراحهم !

هل تجدينا وفرة المعارف ؟!

هذا " النظر " ينحل فى صفحة وجدان أصحابه إلى اقتناع ـ برىء أو خبيث ـ بأن ذلك ضرورى لوجودنا كله .. فلا يجدينا تبعا لذلك كثرة أو نمو وتطور المعارف والكشوف والقدرات والمخترعات والآليات ! .. ينسل من هذا " النظر " أن التقدم الحضارى الذى نشهده اليوم ويدين بكثير الكثير إلى أهل الكفاف والحاجة ، يقتضى حتما وعموما ـ فى هذا النظر "الأحول" !! ـ ضرورة انقسام البشرية فى كل أمة إلى " محتاجين " دائمين غير قادرين فى الغالب الأغلب على التخلص من احتياجهم ، وإلى " سادة " يستحيل أن يتخلصوا من تسيدهم وتميزهم .. هذا " التسيد " الذى تحقق لهم ربما بالغزو أو الفتح فى الزمن الغابر ، وربما

بسطوة الطبقة عبر أجيال ، أو بتراكمات الملكية ، أو بسطوة المال أو الوظائف أو القرابات والمصاهرات والعصبيات والتحالفات ! ..

ومع التسليم بأن هذا " الانقسام " حاصل إلى الآن ، إلاّ أنه لا يرجع - فيما يبدو - إلى حكم الطبيعة أو الغريزة ، بأكثر مما يرجع إلى سيطرة " الأنانية " كلما سنحت أمامها الفرص واتسعت لها - لبعض الناس ! - المناسبات والساحات التى عضت خلالها هذه " الأنانية " بالنواجز على ما أنجزته لأصحابها ، وتشبثت بغير حد بما وصلت إليه وجاوزته ، مع حرصها الشديد على زيادة ما أمكنها وبخلها الأشد على " التخلى " أو ترك " بصيص " للأغيار !.. لأن هذه الأنانية تشتهى وتطمع وتتمنى لصاحبها أكثر وأكثر ، لنفسه أو لمن هم فى حكم نفسه ؛ ولأن الاشتهاء والطمع والتمنى من خصائص " الذات " أصلا ، تتضخم وتطفو حين تتجمع " الذات " أو تنضوى فى جماعة صغيرة أو واسعة!

وفيما عدا الملتصقين بالأنبياء ، التصاقاً حقيقياً لا مجازا - لم تعرف البشرية قط محاولة جادة لاقتلاع الأنانية أو للحد منها ! .. وربما كان ذلك فرعاً على تفادى "الذات" أو خشيتها من التضحية وفقدان المكانة أو الامتهان فى نظر الناس ! .. ومن المفارقة أن هذا ربما يؤدى إلى امتهان الآدميين للحياة ذاتها وزوال حرصهم عليها ، ومن ثم تعثر أو استحالة تكوين الجماعات البشرية إطلاقا ، مع أنها هى التى تضمن بقاء واستمرار بقاء جنسنا !

مثالب الأنانية !

ومن الغريب اللافت ، ربما لغيبة أو نضوب أو ضحالة الأعماق ، أننا لا نفكر حتى الآن فى مثالب " الأنانية " الآدمية وأضرارها الجمة الحاضرة والمستقبلة ، وأخطارها الهائلة القادمة - تفكيرا هادئا جادا يلتفت إلى أصلها أو إلى توغلها واتساعها وانتشارها فى كل مكان من أرضنا !!.. كأن كلاً منا ينافس الآخرين بكل قواه على اقتسام الدنيا إن لم يكن

على التهامها !! وكأن هذه المنافسة العجيبة ـ الحديثة والقديمة لازمة لبقاء بشريتنا لا لفنائها !

هل يرجع هذا إلى اعتقاد " أحول " بحرية الآدمى المطلقة تجاه الآخرين ، ما دامت هذه الحرية لا تتخطى حاجز الجريمة أو تؤذى إيذاءً مستوجبا للمساءلة طبقا لقوانين أو أعراف الناس ؟!!.. إن الوقوع في وهدة هذا " التحديد " " الضرير " ـ يتجاهل دور الأنانية المفزع وتناقضها وإخلالها ـ إذا تسلطت ـ بذات هذا " الاعتقاد " الطلى الجذاب الخادع الذى تنطلق منه "متسربلة " " متجملة " بالحرية !!

يبدو أنه مع غيبة أو ضمور أو ضحالة الأعماق ، لا يقبل آدمى أن يعترف بأنانيته التى رافقته منذ مولده ، ولا أن يقر بأنها " المنجلة " التى تحصد ثمار عمل وجهد وتعب ونَصَب الآخرين ، وأن إليها معظم العناء والتعاسة والشقاء ، وشيوع الفاقة ومعظم الشرور التى أصابت وتصيب دنيا الناس !!

★★★

قليل وربما نادر ، من لم تطله " الأنانيـة " واعـيا لذلك أو غير واع .. لم يشذ عن ذلك الصفوة المتميزون .. فقد طالت هذه " الأنانيـة " قليـلا أو كثـيرا ـ فى كل عـصـر ـ كل عـالم وفـيلسـوف وحكيم ، ومكتـشف ومخـتـرع ، وباحث ومنقب ، ومـؤلف وشـاعـر وفنان ، ورياضى واجتـمـاعى ، وعـسكرى وسياسى واقتصادى ومالى ـ وهذه أوصاف ومسميات لمراكز ومواهب لدى الآدميين يتمايزون بها على بقيتهم وكثرتهم الكاثرة .. فى كل أمة وشعب يتميز ويتمسك بها كل من كان من أصحابها أو منتميا أو منتسبا إليها ـ على عامة الناس ، وعلى نظرائه ومن يظن أنهم منافسوه ، يبرر لنفسه ذلك بما هـو عنده ـ أو يتـوهـم أو يدعى أنه عنده ـ من النباهة والفطنة والقدرة والتميز !!

ومن قديم تميز عامة الناس بالسمعة المنتشرة أو الذائعة ـ بصورة أو بأخرى ـ من صورة ذلك التميز ، ولكن العامة قد تنكره على البعض مع من ينكرونه من الخاصة ، مجاراةً أو استـقـلالاً .. وفى ذلك الغـمـار الذى لا يهدأ قـط ، تندس

«الأنانية» ولا تفلت فرصها التى قلما تخيب ، فترفع وتخفض، وتبنى وتهدم ، وتحيى وتميت فى الانقسامات التى لا تخلو منها الجماعات فى كل جيل !

يبدو أنه قلما يشعر أى منا بذلك ،لأنه فى حالة التفات خاصة به ، ملتفت فيها ـ أول ما يلتفت ـ إلى ذاته ونصيبها من الدنيا . هذا الالتفات للذات لا مفر منه ولا بأس به إذا صاحبه إدراك واعٍ أنه أوائل الطريق وليس كله أوغايته ، وأنه بدايات الحياة العاقلة المتطورة وليس نضجها وإزهارها وتمامها ..!

لا يشك متأمل عاقل ، الآن وقبل الآن وفى آتى الزمان ، فى أن " الأنانية " بعد بداياتها الأولى لإيقاظ العقل ، تصير محض انحناء والتواء ينبغى على العقلاء التخلص منهما لا التمسك بهما ـ بالانحناء والالتواء ـ على النحو المغرق الذى يجرى عليه معظم الناس فى اعتزاز واعتداد !

هل نترك ما اعتدنا عليه ؟!

كيف نتعود على ترك ما اعتدنا عليه نحن وآباؤنا من تمسكنا الهائل بالأنانية ، ومن تصور كل فرد منا بأن " ذاته " مقدمة على كل من عداه ، وأنه سوف يوصم بالبلاهة فى نظره أو فى نظر الناس إذا انســاق إلى الحكم والأوابد والأمثال أن يحب للناس ما يحبه لنفسه ، فضحى بمصلحته الشخصية لأجل غيره أو لخدمة عامة لمن يستحقون أن تقدم إليهم من سنين وربما من قرون ! .. وربما ساقته تداعيات هذا المنطق إلى التساؤل متهكما : لماذا هو بالذات يقدم ما ينبغى أن يقدمه - دون أو قبل غيره ممن هم أكثر بحبوحة أو قدرة ؟! - هذه وأمثالها تعلات مرددة غالباً فى كل الجماعات ، متطورة وغير متطورة - لم يستطع من يمقتونها إسكاتها فضلاً عن إخمادها ، لأنهم للآن وسيبقون إلى ما بعد الآن ، قلة قليلة لاتوجد للأسف أمارات جادة واضحة على تكاثرهم أو علو صوتهم وصيتهم ونفوذهم !!

لم يكن فى بال الناس ، حين أقبلوا على الحضارة الحالية وعلى الحــضـــارات الغــابرة ـ إلاّ المنافع الدنيــوية المادية الحاضرة، وهى بطبيعتها "وقتية" تخدم وترضى "أنانية" الأفراد ثم "أنانية" الجماعة منظوراً إليها (للجماعة) كوحدة واحدة يفوز بخيرها أفرادها على حسب مستوياتهم الاجتماعية ، وما قد يتسرب هنا وهناك لبعض الأفراد من خلال تلك المستويات !

نقص التعلم ، أم غياب الفهم والتأمل ؟!

لم ينقذنا تعليمنا خاصا أو عاما ، عالياً أو متوسطاً ـ من حدة أنانيتنا ، بل لعله زادها ويزيدها فينا ، لأنه عادة يزيد فى التفات كل منا إلى ذاته أولاً وإلى أرجحية وتميز هذه الذات ـ قبل التفاته للآخرين قريبين أو بعيدين ! .. فكم تروى القصص والروايات والأفلام عن جحود أبناء ـ بالأثرة ـ إزاء آباء وأمهات فقراء حرموا أنفسهم من لقمة العيش ليتيحوا لأبنائهم الجاحدين) التعلم والتميز ؟! .. هذا الإغـــــراق

أو الاستغراق فى " الأنانية " مرده فى الأغلب الأعم ـ فيما يبدو ـ إلى غياب الفهم والتأمل غيابا مجدولا بحب الذات والتحوصل فيها وربما الإيمان البالغ حد العقيدة بأنها تعلو على كل من سواها وماسواها !! .. وذلك يؤدى إلى غرور وتعميم ساذج ينفصل عن الواقع، ولا يدرك فى هذا الانفصال أن هذه الذات التائه بها صاحبها يمكن أن تطأطئ للضرورات والمطامع والشهوات ، وللمحن والخطوب والفواجع والنكبات ، أو لسطوة ذوى القدرة أو الشوكة من حكام وغير حكام !

قليلون جدا من يتأملون بإمعان وتؤدة وعمق فى دور الذات الآدمية في ذلك الخضم الهائل الذى يحيط بها من لحظة أن يولد الآدمى إلى أن يفارق الحياة .. هذا الخضم الحافل بعديد العديد من القوى المتضاربة العاملة المتفاعلة التى لا تنى ولا تهدأ .. قليلون جدا أصحاب الأعماق ـ الذين يصلون إلى درجة من الاتزان المتعادل الدائم أو شبه الدائم ، الذى يكفل لهم حماية الذات من شطط الغرور أو ذلة الهوان والتعرض للهلاك فى هذا الخضم الهائل الذى فيه يتضاءل

فعل وأثر " الذات " "الواحدة " تضاؤلا يدعو العقلاء للالتفات إلى " ذوات "الآخرين !

إلى يومنا هذا ، لم تعتن الجماعات البشرية ، متطورة وغير متطورة ، بوظيفة " الذات " وفهم دورها على حقيقته .. لم تفهم " الذات " ووظيفتها قدر ما فهمت أدوار المعرفة والعلم والأدب والفن والفلسفة والدين والمهنة والحرفة والصناعة والتجارة ، ولا قدر ما عاشت فى الرواج والكساد وفى الأمان والسلام ، ولا قدر ما كابدت من القلاقل والاضطرابات والثورات والحروب .. هذه " المفارقة " فى نضوب فهم الذات ووظيفتها بالقياس إلى غيرها ، مرده فيما يبدو إلى أن فهم الجماعات لما حصلته وعاشته وكسبته وعانته وقاسته ـ من خلال الحضارات التى مرت بها وما زالت ، إنما كان خاليا ولا يزال خاليا من الالتفات الجاد لفهم الذات البشرية والاهتمام بحاجتها إلى ذلك " الاتزان " الذى يكفل للذات اتساع الرؤية وعدم التحوصل ، ويقيها من شطط الغرور وتوابعه !

اختلال اتزان الذات !

إن عدم اتزان الذات لدى الآدميين بعامة ، عادة مغرقة إغراقا شديدا فى القدم .. هذه العادة ترجع فيما يبدو لسبق إحساس الآدمى بذاته على التفاته لعقله وقيمته . التفات الرضيع ومن ورائه الطفل ، لإشباع نداء الجوع والغرائز ـ يستدعى الإحساس بالذات قبل العقل !

وما صاحب الفرد صاحب البشرية فى بداياتها التى امتدت دهوراً بالغة الطول قبل وجود ما يسمى بالحضارات . ولذلك فإن " عدم اتزان الذات " آفة مزمنة فينا صاحبتنا أفراداً وصاحبت جماعاتنا وحضاراتنا بلا استثناء !

ليس يمارى عاقل فى أن هذه الآفة ـ باتت تهدد البشرية بعواقب وخيمة ، وأن علاجها واجب .. هذا العلاج وإن كان بالغ الصعوبة ، إلاّ أنه غير مستحيل مع ما لدينا الآن من انتشار وكثرة وبراعة وذكاء علمائنا ومفكرينا ، وسهولة الاتصال والانتقال التى تتم الآن فى لمح البصر ، مع غزارة معاهد العلم والتعليم بما لم تعرفه البشرية من قبل ،

وقدرة وسائل الاعلام على تغطية كاملة لكافة انحاء المعمورة، نهارا وليلا ، وفى كل لحظة بلا توقف ولا انقطاع .

الفاقة والبطالة !

لا يشك العقلاء فى أن الفاقة وما يتبعها من بطالة قد صارا وباءً .. هذا الوباء هو أب لجميع الأوبئة الاجتماعية والعضوية والنفسية .. وهو وباء عضال ، يستحيل أن يقاومه مرضاه مهما بذل كل منهم للخروج من دائرته أو قاعه !.. مهما تعدد الناجون من وباء الفاقة والبطالة ، فإن " الوباء " باق ما بقيت مساحة المصابين به كبيرة .. الالتزام بمقاومة " الوباء العام " هو التزام " مجموع " وليس التزام فرد أو أفراد ! . لن يتأتى الإبلال والشفاء من " الوباء العام " ما لم ينفر له أصحاب الأعماق ، وما لم يستنفروا لمكافحته جميع القادرين المعافين حكاما وغير حكام .. هذه المقاومة فرض عين على كل فرد من أفراد أولئك القادرين ، لا يقبل منطق العقل والبصيرة الانسانية ـ أن تعفيه منه أنانيته

وعنايته بذاته التى تموت فى النهاية ما لم تكن ضمن محيط تنال فيه " نوات " المجموع ما ينبغى لكل منها من قسط ومن اتزان تجاه الآخرين !

دنيا المغامرات والمقامرات !

لا يحتاج أصحاب النظر والأعماق ، إلى جهد كثير ليتبينوا أننا لازلنا إلى اليوم نعيش فى جو مغامرات ومقامرات القادرين التى تدور حامية فيما بينهم وبين بعض ، يتطاحنون على المكاسب والخسائر التى لا تنقطع وتجر معظم البشرية إلى وباء الفاقة الذى يأكل الأخضر واليابس ويدمى كثرة كثيرة من البؤساء والتعساء والمطحونين !! ولم يعد فى وسع المسكنات أوالمعونات العامة أو الخاصة علاج ذلك الوباء المنتشر ، إلاّ بإبدال الفاقة بالضعافة والغضب ، وإبدال البطالة بالبلادة والوقاحة . إذ لم ترد هذه المعونات للمحرومين كرامة الشعور بالاستغناء أو تعطيهم ثقة الواثق فى قدرته أو عمله - على كسب

معاشـه ورزقـه ، أو أنه حىّ حقيقى نافع ، سواء أمام نفسه أو أمام الملأ !

ولأن أحكام الآدمـيين ـ خـاصـة وعـامـة ـ هيـعـادة أحكام مندفعـة بنت أو صنع وقتـها أو لحظتـهـا وظرفـها ، خـالية فى الأغلب الأعم من التـأمل والتـأنى والتبصر والمراجعة ، فإنهـا تكـون فى كـثـير من الأحـيان عـرضـةً للمـبـالغـة أو الخطأ أو الوهـم أو المجـازفـة أو الشطـط ، وفـى أحـيـان أخـرى لعـدم المبالاة وربما للزيف أو المخاتلة والخداع لمجرد إسكات الرأى العـام وتهدئته . يشـجع على ذلك أن الرأى العـام هو نفسـه وقـتى بل يومى وعرضـة على الدوام للتـغـيـر وإعـادة التـشكل وأيضـا لذات تلك الدوافع السيئة أو الخـبيثة التـى تتـحكم فى أصحاب التصاريف !

وربما تـاه من الرأى العـام ـ أو اكـتـشف مـتـأخـرا ـ أن المعونات العـامة الموجهة لعلاج البطالة والفاقة ، أغلبـها شكلى سطحى يفقد مـعظم قيمته مع مضى الزمن والتضخم وارتفاع الأسعار وانخفاض قيمة النقود مع استمرار الكساد !

لم تتقلص الفاقة التى بناها ولا يزال يبنيها المقامرون والقادرون على اغتنام وانتهاز فرص الكسب الطارئ بلا تحرج أو مبالاة على عادتهم منذ أجيال إلى يومنا هذا دون أن تفلح فى إثنائهم دعوات الأديان إلى التزام القصد والاعتدال أو البر والإنفاق فى المعروف والخيرات والخروج من الانغلاق فى دائرة " الأنا " إلى الإحساس بالمجموع والتكافل الطيب معه.. تغالبهم " الأنا " المتحكمة فيهم فلا يرون ولا يقدرون على رؤية سواها !! ومع أن هذا السلوك المألوف الأنانى الجائر ظل مصدر ثراء لا ينقطع للقادرين ، فإن أحداً لا يلتفت أو لا يلتفت بالقدر الكافى إلى ما يحدث ويتراكم فى داخل الأغلبية البشرية التعسة من رفض أو حقد أو غل متوارث ومتجدد سارٍ على الدوام فى نفوس ملأتها المرارة التى تسرى ـ بسهولة الاتصال والانتقال ـ إلى دوائر ومستويات لم تعرفها البشرية من قبل . لو تأمل الغافلون لأدركوا أن هذا الرفض أو الحقد أو الغل المكبوت تحول ويتحول إلى صراع علنى يأخذ شكل الأزمات

والاضطرابات الثورات هنا وهناك من أرجاء المعمورة ، وهذه وتلك رجات عميقة شديدة الالتهاب تتوالى فى عالمنا الحاضر وتهدده بأخطار لايمكن التنبؤ بحدودها !

وهذه الرجات ، الشديدة العمق والالتهاب ، وليدة حضارتنا بلا شك ، ولكنها لا تبالى على الإطلاق بهذه الحضارة ولا بما بلغته من تقدم وتطور ، ولا بما حققته فى مجالات العلوم والفنون والآداب والاكتشافات والرياضيات والاختراعات والاقتصاديات ، أو ما أسفرت عنه من عمائر ومدن وعجائب فى كل غرض وكل اتجاه . وهذا فيما يبدو مصدر فزع العقلاء ، لأن هذا التقدم بكامله وزخمه ووهجه لم يمنع من عمق والتهاب تلك الرجات التى تهدد الحضارة البشرية نفسها بأوخم العواقب !!

هل باتت حضارتنا كالعالِم المصاب بإدمان المخدرات والخمور ؟! . وماهو ـ ياترى ! ـ الباقى من عمر هذه الحضارة إن كانت عاجزة عن الإفاقة من هذين البلاءين؟!!

الاتكال ولطف المقادير !

هنا ربما يحسن أن نتذكر ما نحن عليه من الاعتياد العام على الاتكال على " لطف المقادير " ، وهذه العادة أو اللطف المتكل عليه ـ على درجات تتزايد أو تتناقص بحسب نقص الفطنة وكثرة العدد ، أو زيادة الفطنة وقلة العدد ! ـ وهذه العادة أو هذا الاتكال بقيا مع مسيرة الحضارة والعمران البشرى ، وقد يختلف الأمر أو يزيد اختلافا فى الأيام المقبلة غير البعيدة نتيجة التراكم الذى بات هائلا دون أن تتفطن إليه البشرية أو تقاومه بما فيه الكفاية للحفاظ على ما أحرزته من الفناء الذى يمكن أن يطول البشرية نفسها بفعل هذا التراكم وآثاره المدمرة التى لا يعرف أحد لها حدا!!

ومن اللافت أن الاتكال على " لطف المقادير " يصاحبه دائما ما يصيب كل نجاح بشرى من شدة تفاؤل الناجحين أو الغانمين تفاؤلاً يقارب التخدير ويصل بالمخدورين بسكر

النجاح إلى شبه غيبوبة تنسى الناس فطنتهم والتفاتهم الواجب لحساب عواقب الأمور !!

دنيا البشر الآن ، بكل ما نعرف من رقيها وعظمتها وضخامة حركتها الهائلة الدائبة ليل نهار فى البر والبحر والسماء - هى فى أكثرها دنيا أحلام مبهرة مشجعة وقد تكون مسكرة تتجاهل وتتغضى عما فى الواقع الحاصل من حزن ومرارة وقسوة وتعاسة وهلاك !

يخشى العقلاء المجربون ، أن يدفع البشر جميعا ثمن هذا التجاهل الفادح الضرير ، ذلك التجاهل الذى يتخفى فى أضواء تلك الأحلام الوردية أو المخدورة ، لايريد فى تخفيه - بمنطق النعامة ! - أن تراه عيون لا حصر لها ، من بينها المفكر والباحث والمنقب والمكتشف والمخترع والمؤرخ والعالم والمتعلم ، ومن بينها الاقتصادى والمالى والسياسى والإدارى والعسكرى ، وحول هؤلاء وأولاء الملايين بل البلايين من العاديين الذين يقبلون وكثيرا ما ينتقون ما يلتقطون فى تلقائية أو عفوية لا تفطّن فيها ولا التفات !!

الحياة الصائرة !

إن المبادئ العامة ليست حقائق أبدية ، ويستحيل أن تكون، لأن البشر ـ كأحياء ـ أبناء الزمان والمكان ، يستحسنون ويتبعون أحكاما جرت بها العادة على نحو فيه توافق ونظام وثبات لايمنع من حلول مبادئ محل مبادئ باتت قديمة فى نظر الجيل الجديد ، وهذه إحدى ظواهر الحياة الصائرة الدائبة ما بقيت على التغير نموا وتأخرا دون جمود كامل ، لأن هذه الحركة والتغير فى ذلك الكون الصائر دائما، هى علامة الحياة فى الأحياء ، بل هى الحياة نفسها التى لا ينبغى لوعى وأعماق الآدمى أن ينصرفا عن فهمها وفهم ما يمور ويموج فيها !

الذات وشعورنا بالحياة !

نحن جميعاً ، كبيرنا وصغيرنا ، قوينا وضعيفنا ، ثرينا وفقيرنا ، عاملنا وعاطلنا لا ننسى قط ـ ومن المحال أن ننسى ـ أننا أحياء .. ويبدو أن شعورنا بالحياة فينا يلازمه انحصار

كل منا - دون أن يشعر - في ذاته ، يوليها اهتمامه أولا وآخرا ، ويقدمها على كل من وما عداها فلا يتقدمها قط أى وزن لأى حياة أخرى لزوج أو ولد أو قريب أو حبيب أو صديق .. بيد أن هذا الشعور الفطرى يتوارى وراء ما ألفه كل منا ولاحظه عادة في الناس بعامة وفى نفسه - من احترام الأصول والأعراف والعواطف الأسرية والاجتماعية ، وهذه المنظومة هى التى تخفى أو تخفت الظهور الزاعق للإحساس والالتفات للأنا ، وتوارى - بقدر المستطاع ! - الانحصار فيها وتقديمها على أى ذات أخرى .. ذلك أن أصل الأصل فى الوعى بالحياة لدى كل آدمى هو " الذات " .. هذه " الذات " هى صانعة الأنانية الفطرية ونبعها الذى لم يجف ولن يجف فيما يبدو !

ربما يظن الظانون أو ذوو القلوب الخضراء ، أن المتوقع - أو كان ينبغى - أن يهتم البشر مع تقدمهم وتطورهم ورقيهم بتهذيب تلك " الأنانية " التى تكاد حتى الآن لا تفارق فطرتها لتحس بقيمة حياة الآخرين وترى ذواتهم ،

بيد أن ذلك فيما يبدو لم يتحقق قط - أو لم يتحقق على نحو جاد - فى الأفراد أو المجتمعات وإلى اليوم !

ربما تجاوزت القلة النادرة هذه الحواجز ، والتفتت بقدر أو بآخر إلى " النوات " الأخرى فى الآخرين ، إلاّ أن أحداً من البشر بعامة لم يرتق إلى حد أن يعتبر ذلك فرض عين أو أى فرض على الإطلاق ، بل تنظر الأغلبية إلى ذلك باعتباره عبئا ثقيلا ، لا يكلف به الآدمى العادى ، لأنه لا يكلف إلا بالتزامه برعاية نفسه ومن فى حكمها دون غيرها من خلق الله !اللهم إلاّ أن يكون تبرعاً من باب البر فى معونة ضحايا الفاقة والبطالة قريبين إليه أو بعيدين !

والاعتذار بأعباء الذات ومن فى حكمها ، للإشاحة والإعراض عن الفاقة والبطالة الشائعة فى الآخرين ، يتلبس لدى المعتذرين أثوابا كثيرة من باب الحيل والآلات الدفاعية فى مقدمتها حيلة التبرير ، وهى كذب ولكن فى اللاوعى ، يبرر به الآدمى لنفسه ما لا يستطيع أن يواجهها به من جنوح لا تقره الشيم الفاضلة . وفى بحبوحة هذه الحيل التى تتفتق عنها النفس

الإنسانية ، تتجاهل فى احتيالها أن ما يلزم النفس ومن فى حكمها ويعز أو يحرم بالتالى على الغير ـ إنما هو الضرورى النافع وليس الفاخر المسرف فى الفخامة والأبهة ومجاراة لوازم المنزلة والمكانة فضلا عن الاستعراض وشهوة الترف والظهور والكيوف واللهو واللعب والمجون !

هذه الكماليات الوقتية والمناعم الدنيوية والاتلافات المشئومة ، قد زادت للأسف فى أيامنا ، وصارت ملازمة لإقبال الثراء ، ومالت إليها زمرة قد تدعى الثراء أو تبالغ ادعاءً فيما لديها ، لأنها تحب أن تلتحق بالأثرياء فتنحو نحوهم وتقبل ـ استعراضا وطلبا للسمعة ! ـ على ما يقبلون عليه من مناعم وكماليات وإتلافات !! وقد كان أن أخذت هذه الآفة تسرى كما يجرى فى الأوانى المستطرقة حتى شملت فيما شملت حياة العامة حتى لم يعد هذا السلوك مستغربا من أحد اللهم إلاّ القلة القليلة من العقلاء وأصحاب الأعماق !

غروب وانزلاق !

لـم تعـد جماهيرنا تحب البطولة والإقدام والشجاعة ، ولم تعد ترى فى عالمنا الحـالى إلا الحـرص علـى الـذات والجرى وراء المال وابتغاء الراحـة واللـذة والاسـتمتاع .. انزلقنا دون أن يشعر معظمنا إلى دنيا غيرحقيقية وغير انسانية تسودها الأنانية المسعورة ويحكمها المكر والخديعـة والحيلـة وعدم المبالاة !.. لا نكف نهارا أو ليلا عن الكـلام والحديـث ولا عن القراءة والمشاهدة بأنواعها وألوانها ، ولا عن الكتابـة بكل لغة وفى كل ميدان وعن كل موضوع ، ولا عـن النشـر والبث والإذاعة ، ولا عن الوعظ والخطابة ، ولا عـن عقـد وإدارة جلسات اللجان والمجالس بأنواعها والمؤتمرات بمختلـف أغراضها فى كل ربوع المسكونة ، دون أن يدعونا شىء مـن ذلك كله إلى الالتفات إلى ما أشحنا بالقصد وباللا قصد عنـه ، فأخذ يزيد وينتشر ويتضاعف فى العمق وفى الاتساع !

من حق الكائن الحى الذى راقب ويراقب البشر ، فى ماضى من مضى وحاضر من حضر أو لم يحضر بعد ـ أن يتشكك فى كمال استعداد الماضين والحاضرين والآتين للقصد والانصاف .. أفراداً أو جماعات .. هؤلاء إنما يرجون " الإنصاف " لأنفسهم ـ بعضهم من بعض ، فإن فاتهم الإنصاف طلبوه وأملوه فى الحظ الحسن من الأقدار والنصيب ، مادام الانصاف فيما بينهم قد صار غاية صعبة نادرة جدا جدا حتى الآن !

لا تكف الأديان ودعاتها ، عن لفت الأنظار إلى وجوب التكافل والتساند ، وإلى البر والإحسان ، وإلى مكارم العطاء ، ولا تقصر فى استدعاء كل المعانى الطيبة التى تورى بالفضل لمن يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، ولمن يؤمنون بالكل ويرون الذات محض عنصر فى الأسرة الإنسانية الكبرى .. ومع دعوة الأديان التى تربى أعماق من يتجاوزون الترديد الببغائى للصيغ إلى النفاذ للمعانى واكتناه لباب الدين .. نقول ، إنه مع دور الأديان وما توقظه فى نفوس

المتأملين ، ينتشر العلم والتعلم فى زماننا ، وهو رغم جموحاته وفواجعه قد عمق في معظمنا التفكير والقدرة علـــى التحليـــل والقياس واللواذ بالمنطق والعناية بتتبــع الظواهــر الطبيعيــة وغيرها والاستخلاص من كل ذلك ، بما يلتئــم مــع الحنيــن والشوق الدينى فى تربية وإثراء أعماق الآدمى !!

نعم إن الإذعان لتسلط " الأنانية " قد بـــات للأســف بشعا فى انتشاره وتمكنه وتحكمه ، ولكن العلم قد فتح أمامنـــا ــ مع دعوات الأديـــان ــ الأبواب الواسعة لإدراك فواجع هذه " الأنانية " ووجوب التكاتف الجاد علـــى تقليمـــها وتهذيبـــها وردها إلى العقل والقصد والاتزان ! هذا الاتزان الـــذى يمثـــل الأصل الأساسى الذى قامت عليه كل أنواع الحياة !

التعاسة الحقيقية !

شقى تعيس تعاسة حقيقية من لا أعمـــاق لـــه ، تلـــك الأعماق التى تتشكل من طول النظر والفهم والتـــأمل الجـــاد ، ومن تراكمات المعـــارف والتجـــارب والقياســـات والإدراك ،

وتكون بوحداتها وبمجموعها " داخل " الآدمى الذى يصاحبـــه فـــى صحـــوه ونومه ، وحركته وسكونه ، وتعبه وراحتـــه .. لا يفارقه مهما أظلمت الدنيا من حوله ، ويصاحبه صحبةً تغنيه عـــن التفاهات ، وتشده دائما إلى المعنـــى الكلـــى .. أعمـــاق الآدمى هـــى زاده الحقيقـــى فى المقسوم له فى هذه الدنيــــا ، تتيح له الالتفات إلى ما معه من النضج الفاهم الواعى لأبعـــــاد ومسافات الأمور البالغة الاتساع والتنوع ، وفى منحه فرصـــة الإدراك والرشد الذى يعمـــق نظره ويشحذ بصيرتـــه ويقـــوم طريقه فى هذا الكون الفسيح الهائل المعجز للأفهام !

العمالة وصناعة النجوم !

أصيب الرأى العام ، فى مصر والعالم العربى بعامـــة ، بصدمة هائلة حين تسربت أنباء مـــن كـــانوا يقبضـــون فـــى الكواليس من صدام حسين !! زادت الصدمة غورا ، ليس فقـط بسبب اتساع المساحة الجغرافية التى غزت فيها أموال صـــدام هذه الشخصيات وكادت تشمل كل أقطار الوطن العربى ، وإنما للحجم الكبير الذى ظنه الناس لكثير من هذه الشـــخوص التـــى اعتقدوا أنها تجسد البطولة ، ورسموا لها فى خيالـــهم صـــورا سامقة شامخة ، تعلق بها البسطاء وربمـــا غـــير البســطاء ، وتوهموها الأمل وقاطرة العرب أوطانا وشعوبا فى هذا الزمن الكسيح ، ثم إذ بهم يُفجأون بأنهم " عملاء " حتى النخـاع ، وأن صورة البطولة الزاعقة والنجومية الجاذبة لم تكـــن إلاّ ســتاراً تتحرك من ورائه دمى تجرعت " العمالة " حتى الثمالة ، تبــذل نفسها وخدماتها لمن يدفع ، وتنحدر فيما تبذلـــه إلـــى القـــاع ،

وتتمنطق أمام الناس بأثواب البطولة التى يصرفون بها الأنظار عما يجرى فى التحوت والأسافل !!

شملت القوائم المتسربة زعماءً وأبناء زعماء ، ورؤساء ونواب رؤساء أحزاب ، وبرلمانيين ونقباء ، ورجال أعمال وفنانين وفنانات ـ لبسوا أثوابا كبيرة وبدوا للناس أشاوس يتقدمون الصفوف لقيادة الهوان العربى نحو الخلاص المنشود !! يزداد استسلام الناس للصورة الكاذبة التى يبثونها إليهم كلما اتسعت نجوميتهم وامتدت طولا وعرضا ، وسيطر بهرها على البصائر فلم تعد ترى ، وعلى العقول فلم تعد تفهم ، حتى تبعثر الإنسان العربى بين ضغوط القوى العظمى ، ووطأة الاحتلال العسكرى والاستعمار الاقتصادى ، وبين أنظمة جاثمة ، ثم نجوم زائفين هم فى الواقع عملاء فى الخفاء لهؤلاء أو أولاء ، يصرفون البسطاء عن حقيقة ما يجرى وراء الستار ويشدون أنظار المخدوعين إلى حيث يراد للناس أن ينظروا ابتعاداً بهم عما يجب أن يروه ويتأملوه ويعوا ما فيه !!

لم تخجلهم فضيحة الجعول التى انفجرت بعد أن أميط عنها اللثام ، فلم يجدوا غضاضة فى مزيد من التبجح يسددون به بعض الفواتير المدفوعة إليهم مقدما ، ويدرأون فى الوقت نفسه ــ بخطة وأسلوب السداد ! ــ وصمة " العمالة " التى عرتهم أمام شعوبهم !! أخذوا يستغلون بخبث غضب الأمة العربية للهوان العربى الذى جسده غزو واحتلال العراق والقبض المهين على رئيسه ، ليخلطوا خلطاً خبيثا بين صدام والعراق ، وشتان بينهما !! .. العراق هو حبة القلب لكل عربى ، بينما صدام الطاغية الذى جرع العراق وشعب العراق ، وأشعل حربا مجنونة أهلكت الحرث والنسل مع إيران الإسلامية ، أتبعها ــ لمداراة الخيبة والهلاك الذى بثه ــ بغزو مجنون آخر لقطر عربى شقيق أشعل بآبار بتروله النار والتى ظلت مشتعلة لسنوات !! ، وأحدث فلقا فى الجدار العربى لا تزال تداعياته جارية بعوادمها إلى الآن .

نعم حزن الناس واكتأبوا للقبض والأسر المهين ولكن ليس لشخص صدام الذى بغى وتجبر ، وإنما إلى ما يرمز إليه الحدث عن السقوط العربى الذى كان صدام نفسه أحد معاوله ! ..لا يريد " النجوم " " العملاء " أن تتكشف أبعاد المستور الذى افتضح ، فتتتابع إيقاعاتهم فى إلحاح وقح للدفاع عن صدام وتجميل صورته ، أو بالأحرى مداراة بشاعة عمالتهم !! بينما تتسرب الأنباء عن مبالغ أخرى تدفع من أسرة صدام إلى " النجوم " الذين يتقدمون لاستعارة أدوار البطولة للدفاع عن " الطاغية " المتجنى عليه !! ولا تتحرج ، صحيفة كبرى من أن تفرد لواحد من هؤلاء عموداً يلغو ويهرج فيه ويتحدث إلى رئيس التحرير عن البطولة المرتقبة التى سيتولاها لقيادة الدفاع عن صدام ــ كيف ؟! ــ ليس هذا هو المهم ، وإنما أن يجد هذا " التهريج " سبيله إلى جماهير البسطاء آملاً أن يكون الناس فى بلادنا قد نسوا أفاعيل صدام للإساءة إلى مصر والنيل منها تبريكا للزعامة التى كان ينشدها صدام بإزاحة مصر وبدم الشعوب وجثث الضحايا والأبرياء !!

العمالة لعبة تمارسها الأنظمة ، وتمارسها الدول ، تختلط أحيانا بالجاسوسية والتخابر ، وتتخفى أحيانا فى صور براقة مصنوعة تساعد على دفع الرياح إلى الاتجاه المرسوم .. أخطر أنواع العمالة خداعا للناس والشعوب ، تلك التى يضطلع بها نجوم خرجوا قصداً من معامل ومصانع النجومية .. فالنجومية والنجوم ، ليسا فى كل الأحوال طرحا تلقائيا ، وإنما تداخله أحيانا ، بقدر كثير أو قليل ، صناعة مقصودة ، قد تحسن نواياها ، وقد تمضى بها مآرب إلى بعيد بعيد لا يظهر فى الأفق لمعظم الناس وربما للمراقبين والمتابعين من أهل الفكر والنظر !!

وقد لا يبالى الناس بصناعة النجوم ، ولا بأس فى ذلك ولا تثريب حين تستهدف النجومية المصنوعة ، ترويج الفنون أو اللعبات الرياضية أو جلب الجماهير أو الترويج للشركات السينمائية التى كانت تتبارى لصناعة " نجومية " للممثلين والمخرجين والفنيين الذين تحتكرهم .. ولا بأس ولا تثريب فى عدم الانتباه أو الالتفات إذا كانت صناعة النجم مستقيمة النوايا

والمقاصد .. وكثيرا مـا تصادف الصناعة فـي مثـل هـذه الحالات " مقومات " حقيقية لا تفعل " الصناعـة " إلاّ صقلـها وإبرازها وتقديمها وترويجها وإضافـة " رتـوش الصـورة " المطلوبة إليها .. بيد أن الخطر يأتى حين تمارس هذه الصناعة فى لعبة الدول ، لاختلاق نجوم محليين تعدهم القوى الغالبة ــ كالاستعمار أو الاحتلال أو الاسـتيطان أو الهيمنـة ــ للقيـام بأدوار مرسومة وإحداث تأثيرات مطلوبة قـد يبتعـد زمـان تحقيقها فتزداد الحجب التى تغطى على هذه الصناعة كثافـة ، فتمضى صناعة النجم إلى مآربها وغايتـها ، وتنطلـى علـى الناس الأدوار المعدة التى يقوم بها النجـوم ، دون أن يـدرك البسطاء القوى الخفية التى تدفع صورة هؤلاء لأعلى ، وربمـا انخدع ذات النجوم المصنوعين باستسلامهم المخدور النابع مـن ميل الفطرة البشرية إلى العظمة والصدارة والقيمـة والصيـت والوجاهة ، إلى غير ذلك مما يصـاحب تشـكّل النجوميـة ــ الطبيعية أو المصطنعة ــ من استسلام إنسانى للتيه والزهـو ،

وانصراف بهما ــ قليل أو كثير ــ عن تــأمل الأشياء وســبر الأغوار والبحث عن الجذور الراقدة فى الأعماق !

لا أريد بهذه الكلمات أن أزيد صدمة النـــاس ، ولا أن أعرى نجوماً صنعتهم " العمالة " والقوى المدبرة المديرة لها ، وإنما أريد فقط أن أدعو العقل العربى للتيقظ والانتباه إلى مــا يجرى فى الزحام ، فلا تخدعــه الأصوات الزاعقة فـــى كــل الأحوال ، ولا يستهين بالوقار ، أو يســحب الإخــلاص عــن الحكماء الجادين .. فكــم تتخفى " العمالة " وراء الصرخــات العنترية ، وكم بذل حكماء من أرواحـــهم وعصــير حياتــهم لأممهم فى إخلاص نادر وجد ووقار ، لا يتصدرون الصــور ، ولا يصطنعون الأمجاد ، ولا يعرضون أنفســهم أو أعمالــهم على الناس .. إن غاندى قد أقام الهند بغير صراخ ، وأقـــض ببساطة نادرة مضاجع الإمبراطورية البريطانية .. الخطــر أن ينخــدع النـــاس عــن الجــد الوقــور ، وأن يجـــروا وراء الصرخـــات العنتريـــة وتهاويم النجومية المصنوعة والبطولــة الزائفة ، فتتبهم الحقائق ، وتضل البوصلة ، ويمضى العـــرب

فى تيـــه طويل لا يرون فيه بصيصا حقيقيا يمسكون به وســـط الظلام الذى تمرح فيه الخفافيش وتصادر الألباب والأفهام !

بل غياب العربية .. وفى غير ساحة القضاء أيضاً !

أحسنت صفحة الأدب بالأهرام ، حين طرحت قضية للمناقشة تحت عنوان : " لماذا غابت العربية من ساحة القضاء ؟! .. ولكن ذلك يطرح سؤالاً أوسع : هل العربية هى التى غابت ؟! أم أن ساحة القضاء هى التى غابت عنها العربية ؟!.. يطرح هذا التساؤل ما قد يبدو للمطالع لما قيل من آراء تفصل الجزء عن رحم الكل ، وتتصور " الطفح " الموجود فى " ربع " بمعزل عن المرض العام الذى أصاب العربية فى إلمامنا وعنايتنا بها وحرصنا عليها وعلى قواعدها ومفرداتها وروحها ومواطن الجمال فيها !

مهما طال غياب العربية فى ساحة القضاء ، مرافعة أو كتابة للأحكام ، فإن هذا الغياب فرع على كل ، وطفح لمرض ضارب فى الأعماق يدهس العربية فى كل مكان ، ومن المحال أن تتعمق دراسة ظاهرة ما فى فرع ، دون أن ترد أسبابها إلى الكل أو المحيط الواسع الذى تنعكس أمراضه

على فروعه وأعضائه .. وأزمة العربية أزمة طفحت من قديم وتتوالى تداعياتها حتى صارت تهدد بغياب عام يهدد اللغة نفسها وينذر بتداعيات سوف تصيب بالحتم قدرة اللاحقين على إدراك وتذوق وتمثل القرآن المجيد !!

تسرب العامية واللهجات المحلية !

تواجه العربية من قديم تعدد اللهجات المحلية ، وتسرب العامية المحلية إلى استعمالات الناس قراءةً ثم كتابةً ، وهى قضية شغلت ــ من زمن ــ أدباءنا الكبار انشغالاً حميماً جاداً ، بحثاً عن أسلوب وسيط يحفظ العربية الفصحى ويقترب من لغة الناس ، ويَراعى فيما يراعى دواعى العصر أن تكون اللغة أكثر دقة وإحكاماً وانضباطاً ، وبعداً عن الميوعة والسطحية والسجع اللفظى والعقلى والمحسنات البديعية الجوفاء .. ولكن من يتابع محاولات هؤلاء الكبار يدرك مدى الجهد الجهيد الذى بذله جيل الرواد مجدولاً بحرص حريص على العربية والتزامها فى جدية مشهودة .. تلمس هذا

ــ على سبيل المثال ــ فى كتابات يحيى حقى الذى مع دعوتــه إلى أسلوب جديد فى محاضرته التى ألقاهــا بجامعــة دمشــق ونشرت فى كتابه " خطوات فـــى النقــد " ، كــان أحــرص الحرصاء على العربية حتى أنه كــان يمضى الساعــات بيــن المعاجم ليختار أو ينحت كلمــة عاشقــاً حتى النخــاع للغتــه العربية .. ولكن ما يجرى الآن طوفــان مــن الإيغــال فــى السطحية تنزع بالبحث عن لغة وســيطة توفيقيــة ، ليفــارق الفصحى ويوغل فى مفارقتها ويستسلم " للعاميــات " المحليــة حتى باتت اللغة الفصحى بعيدة عن استعمال وربما عــن فــهم كثير من الناس ، واجتاحت الساحة اللهجات العامية مطعمــة بألفاظ هابطة صارت تصافح عيون وآذان الناس فى الأعمــال المسرحية التى تركت المسرح وقواعده وتقاليده إلــى الرقــص والزمر ، وفى الدراما التلفزيونية والإذاعية ، وأخذ هذا الزحف المستمر ــ يجــور شيئا فشيئاً ، حتى تســرب إلــى كتابــات الأدباء (؟!) والشعراء (؟!) ــ يتعلل بعضهم مداراة بمقتضيات واقعية ما يجب أن يدار من حوار علــى لســان الشــخصيات

فـــى العمل المسرحى أو الدرامى أو الروائـــى أو القصصـــى — بيد أن طوفـــان العامية والهبوط لم يلـــتزم بـهذا الحـــد ، ومضى لا يلوى على شىء حتى ابتعد عامة الناس عن اللغـــة الأصل ، وصارت العربية الفصحى غائبـــة غريبـــة أو شـــبه غريبة فى وطنها !!!

هذه الازدواجية ، بين " الفصحى " و " العاميـــات " — فهى ليست عامية واحدة ، شكلت وتشكل تحدياً حقيقياً نـــاحراً للغة الفصحى ، ركب على ذلك عقم وتعقيد وجفـــاف أســـلوب تدريس اللغة فى مراحل التعليم المختلفة ، وتزاوج ذلـــك مـــع هبوط المستوى التعليمى العـــام الذى هجر من زمن ، الكيـــف إلى الكم ، ثم جار الكم على أى اعتبار للكيف ، حتـــى صـــار خريجو الجامعات يخطئون فى أبسط قواعد الإملاء ، نـــاهيك عن الإلمام بقواعد اللغة ومفرداتها ومترادفاتها وروحها وثرائها — ذلك الذى دعا العقاد لأن يخصص كتاباً لها بعنوان : " اللغة الشاعرة " — لأنها بثرائها تعين الشاعر علـــى نظـــم القصيـــد المحكوم بالجرس والمعمار الموسيقى ، والبحور والمصـــاريع

والقوافى ، إلى غير ذلك مما لا تقدر على إمداد الشاعر بأدواته فيه إلاّ لغة غنية واسعة الثراء فى مفرداتها وحركـــات إيقـــاع الألفاظ فيها تبعاً لموقعها من الإعراب بين السكون أو النصـــب أو الرفع أو الجر أو التنوين ، مما يتيح ــ مع غنى المفـــردات ــ بحراً زاخراً من الجرس يعين الشاعر فى مهمته المحكومـــة بقوالب وضوابط وقيود لا تحكم كتابة النثر المرسلة !

هجران الفصحى !

هجران الفصحى شائع الآن حتى النخـــاع فـــى كـــلام وأحاديث الناس ، وفى أغانى ومونولوجات المطربين نـــاهيك عن الزاحفين على الطرب والغناء ، وفى الحوارات المسرحية والدرامية والروائية والقصصية ، وفـــــى معظـم الكتابـــات الصحفية ، وزحف إلى لغة الآداب العامة بعد أجيال البنـــائين العظـــام ، ثم أخذ هذا كله يزحـــف إلـــى الإعـــلام المرئـــى والمسموع ، وزحفه فـــى هـــذا المضمـــار يزحـــف بـــالحتم والضرورة على المجتمع بأسره .. كان المذيع قديمـــا يخضـــع

لاختبارات بالغة العمق والعرض ، تشترط فيه ـ فضلاً عن الموهبة والصوت ـ ثقافة واسعة ، وإتقاناً تاماً للغة العربية معرفة ونطقاً .. ولا مجال في اجتياز هذه الامتحانات لوساطات ولا محسوبيات ولا مجاملات ، فكنا في صبانا نضبط لغتنا العربية ـ نحواً وصرفاً ونطقاً ـ على مذيعينا أمثال محمد فتحي وعبد الوهاب يوسف وحسني الحديدى وصلاح زكي وعباس أحمد وفهمي عمر وسعد زغلول نصار وجلال معوض وفاروق خورشيد وطاهر أبو زيد وأحمد فراج وفاروق شوشة ـ إلى آخر الباقة التى ظلت تحمي العربية وتسربها بسلاسة إلى وعي الناس ، فلما اقتحمت الوساطات والمجاملات ، بات علينا أن نحمي عربيتنا من أخطاء كثير من الزاحفين الجدد الذين لا يعرفون اللغة ، ولا يهتمون بمعرفتها ، ولا يهتم أحد باشتراط علمهم بها ، أو بتعليمهم إياها أو محاسبتهم على الأخطاء الفادحة فيها التى أخذت بدورها تتسلل إلى وعي الناس ، فَحلّ تعلم أو محاكاة " الخطأ " محل ما كان من تعلم " الصواب " وضبط اللغة بالتلقي عن السابقين

العارفين الملتزمين بالعربية التزاما دعا إذاعياً شاعراً متميزاً كفاروق شوشة إلى المداومة لسنوات طويلة على بث برنامجه الشهير : " لغتنا الجميلة " !

ندح المجتمع كله !

النذح الذى نراه هو ندح المجتمع كله ، وغياب العربية هو إذن غياب عن المحيط العام ، وعن لغة وخطابات الساسة والمسئولين الكبار ، بل عن الواجب التفاتهم بحكم تخصص مواقعهم إلى حقوق اللغة وحدودها ، والاحترام الواجب لها ولقواعدها .. وهذا الغياب لا بد أن ينعكس بالضرورة على كل ربع وعلى كل مجال ! هل نطمع فى عناية باللغة فى كليات الحقوق المزدحمة ببرامجها القانونية وبأعداد طلابها الهائلة ، مع تواضع القماشة التى تأتيها بحكم تسعيرة مكتب التنسيق ؟! وماذا إذا كانت " البارومة " أصابت ــ وقد أصابت ــ كثيراً من القائمين على التدريس بالجامعات ، فهل فاقد الشىء يعطيه أو يمكن أن يعطيه ؟! .. لم نسمع عن لجوء العقاد وطه

حسين وأترابهما إلى مصححين لمراجعة وضبط ما يكتبـــون ، بينما يكاد لا ينجو الآن كاتب ولا أديب ولا أستاذ عن الحاجـــة الماسة للتصحيح والمصححين ، وإلاّ خرجت كلماته إلى النـــاس بجرائر كبرى فى حـــق اللغة العربية لفظـــاً وبنـــاءً وصرفـــاً ونحواً !!!

ساحات القضاء !

نعم كانت ســـاحات القضـــاء ، مرافعـــة أو صياغـــة للمذكرات والأحكام ، ميداناً فسيحاً ثرياً للعربية ، ونهض علـــى ذلك أسلاف عظام فى المحاماة والقضاء ، وكان ذلك حقيقـــــاً أن يمتد لو استمر التواصل ولم تتقطع أحباله .. ولكن الحبـــال تقطعت بفعل ندح المجتمع كله والضعف والوهن العام ، ثم هى قد ساهم فى قطعها ازدحام القضايا وجورهـــــا علـــى وقـــت ومـــزاج القاضى من ناحية ، وعلـــى فرصـــة المحامـــى فـــى " الأداء " من ناحية أخرى !!.. كانت الأحكام فيما سلف قطعـــاً أدبية رائعة ، يكتبها القضاة بمزاج عال وشغف ملحوظ باللغـــة

وإلمام بقواعدها وأسرارها ، ولا يزال هذا النغم الرفيع محفوظاً في صياغة أحكام المحكمة الدستورية العليا يساعد عليه عـــدم تسرب " طوفان " القضايا إليها مع شيوخ لحقوا وأخـــذوا مـــن الزمن الجميل ، وفى أحكام محكمة النقض التى يجاهد شـيوخها للحفاظ عليه موصولين بتراث عبد العزيز باشا فهمي وأترابـــه ــ يعانون نَصَباً هائلا إزاء تزايد طوفان طعون النقض التـــى بلغت أرقاماً فلكية ! ..

جميل أن نتحدث عن " المخضرميـــن " فـــى القضـــاء والمحاماة ، الذين امتلكوا العلم وامتلكوا ناصية اللغة ، بيـــد أن امتداد هؤلاء مرهون بتواصل الأجيال ، والتواصل قد تحفظـــه المدونات ، وتنقله إلى الأجيال ، ومع ذلـــك بحـــت أصـــوات العارفين دون جدوى ــ لإعادة طبع العمل الجليل الذى نـــهض عليه فى الخمسينيات المرحوم محمود عمر " باشكاتب" محكمـــة النقض حين جمع فى " مجموعتى " القواعد القانونية ــ أحكـــام محكمة النقض المدنية والجنائية من بداية عمل المحكمة حتـــى عام ١٩٤٩ حاملة النصوص الكاملة لدرر الأحكـــام الرائعـــة

المجدولـــة بلاغـــةً وأدباً فى نلك العصر الذهبى الـــذى مـــهد وعبَّد طريقه هؤلاء الأسلاف العظام .

القضية الحيوية التى أثارتها صفحة الأهـــرام الأدبيـــة ، تستوجب أن نطلق صيحتنا فى جميع الأرجاء أن نعيد إحيـــاء لغتنا العربية فى التعليم والإعلام والأدب والثقافة ، وأن نجنـــد لهـــذه الغاية حملة جادة بخطة قومية شاملة تعيدنا إلـــى لغـــة الضاد !.. يومها سوف تعود العربية (الغائبة) إلـــى ســاحة القضاء وإلى الدنيا بأسرها !

حياة الآدمى بين عقله ومطالبه !

زيادة مخ الآدمى زيادة هائلة عن مطالبه كنـــوع مـــن أنواع الثدييات العليا هى زيادة مشهودة مشهورة ، يكفيها بيانـــا أى نظرة ولو عاجلة لقوة الشحن والدفـــع والحركـــة والنمـــو والبحث والنظر والتجربة والمراجعة التى يدفعها مخ الآدمـــى ، والتى لا مثيل لهـــا فـــى باقـــى الثدييات والكائنات بعامـــــة التى لم تجاوز قط طلب الطعام والشـــراب .. وهـــذه الزيـــادة الهائلة فى مخ الآدمى معناها أن حياته معقدة جدا وأن تعقيدهـــا هائل ، وأن هذا التعقيد الهائل طبيعـــــى وحتمـــى فيـــها ، وأن محاولة تبسيط هذا التعقيد أو وقفه ــ محاولة غبية تعــــارض الطبيعة ومصيرها الفشل حتماً .. ومع ذلك لا ينقطع فـــــى أى عصر من يحاولون التبسيط ووقف التعقيد لأن هذه المحاولــــة وراءها الخوف والحرص على الأمن والراحـــة مـــن القلـــق ، والاقتصاد فى المجهود والتعب .. وهذه دوافع موجـــودة فـــى عالم الحيوان ، ولكن الذى يزيدها حدة وشدة فى عالم الإنســـان

هو الإمكانات الهائلة لمخ الآدمى التى لا تكف عن إثارة هذه الدوافع بشكل أو بآخر .. فى كل لحظة حتى أثناء النوم !

والعزلة هى إحدى هذه المحاولات لاختزال حياة الآدمى أو تبسيطها ووقف تعقيداتها . نجدها حتى الآن ، فى المبالغة فى التأمل والسكون ، وفى الاعتكاف والخلوة للعبادة ، وفى النسك وفى الرهبنة ، وفى معامل الأبحاث والمراصد ، وفى المثابرة على البحوث الطويلة فى دراسة حياة الحيوان والنبات ، وفى الطبيعة وما تحفل به فى البر والبحر والفضاء .. وفى المهن والحرف التى تقتضى قدراً من الانفراد ــ كالخفارة والصيد والرعى .

ومن العزلة ظهرت وتظهر ألوية القناعة ومحبة الآخرين والرضاء والسلام .. وظهرت وتظهر قيمة الكل والكون والعالم ، وحاجة الآدمى إلى رؤية عريضة عميقة لوضعه ووضع نوعه ومحيطه إزاء الكل أو الكون والعالم ، وما يفرضه عليه هذا الوضع من الالتزامات لكى يتحقق له

الرضاء والسلام والأمان خلال حياته الدنيا أينما كـــانت هـــذه الحياة !

ومن العزلة وتأملاتها ، يتحرك ويدخـــل إلـــى عـــالم الآدمى خياله وتصوراته تلك التى لا حد لها فى مسيرة وعمـــل عقله وعواطفه ونسيج حياته كلها ــ واعية وغـــير واعيـــة . وعلى مدار عمر البشرية انتفع الآدمى ولا يزال ينتفـــع بـــهذا الخيال وهذه التصورات ، فصعد وهبط وقفز وســـقط وتقـــدم وتأخر .. لذلك ظل الآدمى يتحمل دائمـــا احتمـــالات الخطـــأ والصواب ، والفشل والنجاح ، والخسارة والكسب فى تطـــوره وتغيره الدائمين ديمومة نوعه منذ بـــدأت حياتـــه علـــى هـــذه الأرض !

وفى رحم العزلة ينمو جنين الأصول والمبادئ الكليـــة العامة ، لأن عقولنا تفرخ وتنتج فى العزلة وفى الاعتكـــاف ، تعاف الزحام والضجيج الملازم له .. ذلـــك الضجيـــج الـــذى يحجب انتظام خيط الفكر بكثرة المناقضة والخلاف ــ ولذلـــك مســـت الحاجـــة عند استخلاص وتطبيق الأصـــول والمبـــادئ

الكلية ، إلى الشرح والتفسير والتأويل لمعناهـا أو لنطاقـها ، وعندئذ يكون الأصل أو المبدأ قد صيغ وقَوِىَ وأصبـح قـابلاً لاعتراك العقول والمصالح عليه ، وللانتفـاع بتـأييد وإمـداد الأذهان المؤيدة المحبذة له ، والانتفاع أيضـاً بنقـد وتعديـل الناقدين والمعدلين .. حينئذ خرج من بساطته فى عزلته إلـى تركيبه وتعقيده المطرد فى جماعة حية تواجه تغيرات ظـروف المكان والزمان التى تتلاحق بلا توقف ولا انقطاع !

والعزلة مرحلة توالد وحضانة فقط .. لا غنى عنـها لاستمرار الحياة البشرية على الأرض ، وهـى حيـاة معقـدة شديدة التعقيد .. يزداد تعقيدها مع طول العمر وزيادة فـرص التواصل والتقابل والتأمل سواء على صعيـد السـلام أو فـى ميادين المواجهة والكفاح والمنافسة والمحاربـة والصـراع .. ويستحيل وقف تعقيد هذه الحياة أو ردها بعـد تواجدهـا فـى محيطها الخارجى الحى إلى البساطة الأولى ، لأن وقفـه هـو وقف لنمو الحياة البشرية ، ومحاولة إيقاف نمو الحيـاة تشـبه محاولـة رد الطفـل الذى رأى الوجود الخارجى إلى الرحـم

أو إعاقة نمو المولود لكي يظل عمره كله طفلا كعملية " البونساى " اليابانية فى الأشجار !

فالناسك والراهب ـ من هذه الزاوية ـ بونساى بشرى ، وكذلك العاكف في حياته على البحث والدراسة فى مختبر أو معمل أو كلية ، أو المتأمل فى تجوال بالمكان أو الزمان ، أو الباحث فى حقل أو غابة أو جبل أو صحراء أو بحر .. وأولئك موجودون فى كل جماعة في كل عصر .. وهم دائما قليلون عدداً ، وهم يختلفون فى الانعزال باختلاف الأغراض والتنظيمات والميول والاستعدادات ، وبإختلاف الزمان والمكان والمواهب .. ويختلف تأثيرهم تبعا لاختلاف تطور المحيط فيشتد في المحيط العاطفى التصديقى والأيديولوجى ، ويقل في المحيط التجارى والصناعى العملى أو البراجماتى ، وربما كان ذلك سبباً من أسباب ندرة ادعاء النبوّات في القرون الخمسة عشر الأخيرة ـ ومفسراً لمحدودية نفوذ البهائية والقديانية والأحمدية فى القرنين الأخيرين !

ولأن اشتداد تركيب وتعقيد حياة الإنسان حتمى ولازم يتزايد ويتطور مادامت حياة نوعه تنمو وتتطور ـ لـــزم أن يتوازى الإنسان بما يكافئ ويساير ويواكب ذلك ســابقا تــارة لاحقاً عليه تارة أخرى . كيما يكون على معرفـــة بمعالمـــها وطرق العيش فيها وشبكات روابطـــها الحـــاضرة والماضيـــة والمحتملة فى المستقبل وخطوط الاتصـــال وفـــرص النجـــاح والفشل فى ممارستها وبيان مساقطها وأخطارها ومحاذيرها فى الحال والمآل .. وتبعا لذلك نشأت وتطورت معـــارف البشـــر بأنفسهم ومجتمعاتهم ومحيطهم ومالهم ، ونشـــأت وتطـــورت العلوم والآداب والفنـــون والتقنيـــات والصناعـــات والحـــرف والأعراف والقوانين والحقوق والواجبات والأخلاق والأديـــان ، وأقيمت ونمت القرى والمدن والأقاليم والدول والحضـــارات .. وذلك كله آية أىّ آية على التركيب والتعقيد الذى تتمـــيز بـــه حياتنـــا عـــن حياة أشقائنا فى عالم الحيوان ، وعلى أن فقـــده أو إضعافه أو محاولة إيقافه رجعة وردة إما إلى البدائية أو إلى

الحيوانية تعارض الطبيعة ومآلها إلى التحلل والفشل والإخفاق !

إن زيادة مخ الآدمى زيادة هائلة على مطالبه كنوع من أنواع الثدييات العليا ، يجب أن يضاف إليه ميل الآدمى كفرد إلى الاجتماع بأمثاله وأن هذا الاجتماع فرصة متاحة دائما لأن يضاعف الإنسان هذه الزيادة الهائلة ـ إلى غير حد ـ ومن هنا نفهم مصدر قوة الحضارة البشرية وضخامتها غير المحدودة !! هذه الضخامة التى تشهد على رقى الإنسان بعقله فى عالم المخلوقات ، وقدرته بهذا العقل ـ مع الاجتماع ـ على أن يصنع الحياة ويبنى ما بناه ويتطلع إلى مزيد من البناء ليقوم عمران الحياة التى حضت الأديان على عمارها !

فكرة للتأمل !

يعتمد الآدمى إذا لاحظ تفوق قدرته على غيره ، على هذه القدرة فى تأكيد تفوقه وزيادته وتكريسه ، ويطيب له ذلك ثم يراه حقا له على الأخرين يجب عليهم التسليم له به ،

ويطيب له هذا التسليم ويرضيه أن ينتشر ، فإذا انتشر أحس أنه أسمى من الآخرين ، وربما سرى هذا الإحساس منه إلى عشيرته ، فيحس وتحس هى الأخرى معه بامتيازها على غيرها ، وتجتهد فى تفسير ذلك الامتياز لقطع الجدال بشأنه . وكل تفسير مقبول مادام يستهدف تحقيق هذا المقصود ومادام يجد من يقبله !!!

الندرة والوفرة ، والاحتياج !

يقول علماء الاقتصاد إن الاقتصاد هو علم " الندرة " ، يشيرون بذلك إلى المشكلة الاقتصادية الناجمة عن كثرة وتنوع " احتياجات " الناس أفراداً وجماعات ، وبين " ندرة " أى قلة ومحدودية الموارد وعدم كفايتها لإشباع هذه الاحتياجات ! .. ويقول علماء النفس والإنسان ، ومن قبلهما تقول كتب الأديان إن حب المال والاقتناء خاصية آدمية ، أفصح عنها القرآن المجيد ونبَّه إلى أن الناس مزيّن لهم حب الشهوات والمال .. والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة ومظاهر الثراء .. معظم الناس ــ فيما عدا القلة النادرة ، لا تكتفى بما يحل المشكلة المزمنة بين الحاجات والموارد ، وإنما يجاوزون ذلك إلى طلب الثراء والإمعان فى السعى إليه !

كل آدمى يشتهى الثراء المادى اشتهاء قديما قدم البشرية ، فالمال فى زماننا كما فى الأزمان السابقة ــ يتسنم قمة مصادر القوة المادية ، لأنه عبارة عن قوة مركزة يسهل

للآدمي أن يستعملها في تحقيق آلاف الرغبات والأغراض ، من أجل ذلك تعلق الناس ولا يزالون يتعلقون به ، ويدركون في تعلقهم أن الثراء امتياز لا يتميز به إلاّ فريق محدود العدد ، يتمايزون بالمال والثراء على الكثرة الكثيرة .. لأن المال في حد ذاته مزية كبرى في نظر الآدمي تتيح له أن يقتني ويحوز وينال ما يتمناه أو يرجوه أو يرغبه من الأشياء والممتلكات ، ومن الخدمات وما يجري نحوها مما يريده الآدمي إشباعاً لرغباته المادية أو الحسية أو الأدبية أو المعنوية .. تنصب في هذه المزية ــ مزية المال ــ كل أو معظم رغاب وأغراض " ذات " الآدمي وتوفر له ما يريد دون احتياج ــ فيما يراه ! ــ لأي سند آخر علمي أو اجتماعي أو سياسي أو ديني أو أخلاقي !!

يندر لذلك ألاّ يكون الثري مشغولا عن ذاته ، فكل ثري ــ كريماً في الاصطلاح أو غير كريم ــ أناني بواقعه ، لأن الكرم ــ إن كان ! ــ لا يذهب الثراء الذي يتميز به الثري على أغلبية خلق الله ، سواء كون لنفسه هذا الثراء

بالكد والعمل ، أم تلقاه ميسورا بالميراث بلا نَصَب ولا تعب !!.. فبهذا الثراء أيا كان مصدره ــ يُفضّل الثرى ذاته على " جمع " الكثرة التى تخدم الأثرياء أو تروم نوال هذا المراد فلا تبلغه ، أيا كانت أنواع هذه الخدمات وقيمتها النوعية أو الكمية .. فكل أولئك مفضولون أمام ذات الثرى الملتفت إلى ما يتميز به على الناس من ثراء !!

والثراء فى زماننا هائل .. لم يشهد مثله زمن سابق سواء فى كثرة الأثرياء أو فى ضخامة الأموال .. كما لم يشهد زمن سابق هذه الأغلبية الغالبة من أهل الفاقة والبطالة ، واليأس والحقد المتأججين مع الشقاء والتعاسة ، تكتسح هذه الإحباطات ــ الجموع المروعة بهمومها المتراكبة المتواكبة ، فلا تجد أمامها من سبيل إلاّ محاولة أن تتناساها ــ فى الخمر والمخدرات الرخيصة ، وفى التسكع والتجمع للمشاهدة والشغب تنفيساً لما يغلى فى الصدور دون أن يصادف ما يبرده ويريحه مما لدى الأقلية الغنية أو من بعض ما عندها !

وقوة الثراء المالى معترف بها منذ وجدت الجماعة .. يشعر بهذه القوة من هى فى حوزته ويطمع فى زيادتها ، كما يشعر بها المحروم منها الذى يتمناها ويديرها فى خياله وأشواقه ويشتهيها ويأمل أن يقتنصها إذا لاحت له فرصتها أو فرصها .. ففيما عدا الأنبياء والزهاد والرهبان ، يرى حائزو قوة المال أو المتمنون لها ، أنها من العوامل الحاسمة دائما فى ترتيب وتحديد الطبقات الاجتماعية من قمتها إلى قاعها ، وأن السيادة فى الجماعات البشرية هى سيادة الأقوياء والأغنياء ! .. منذ وجدت الجماعة لا يسود فيها القوى الفقير إلاّ نادرا جدا ، مثلما نجد فى نبوات الديانات الجديدة التى انتشرت وانتصرت وكونت جماعاتها الأولى القادرة على البقاء والانتشار بقوة عقيدتها وكفاحها الناجح المنتصر . فالركن الركين فى وجود أية جماعة بشرية هو وجود السيادة التى تجمع مع القوة الفعلية (أيا كان أساسها) ــ قوة المال الذى تستخدمه فى تنفيذ أغراضها الذاتية والعامة !

و" السيادة " نفوذ سائد على مسودين ، يستحيل بدونها أن توجد جماعة بشرية تبقى وتعيش حياتها، وهى تفترض وتفرض لنظامها ولأداء أعمالها وأغراضها التى يقتضى دوامها (!!) وثباتها (!!) ــ وجود الترتيب (!!) والتحديد (!!) للطبقات الاجتماعية فى الجماعة المحكومة بهذه أو تلك من أنواع السيادة !!

فلم تستغن أى جماعة فى أى زمان ومكان ، عن سيادة تبرز وجودها " داخليا " لمن تشملهم ، وتبرز وجودها " خارجيا " للجماعات الأخرى وأفرادها ، وتمثل وتضبط وتسير وتضمن السياسات العامة والنظام العام والأمن وسلامة الاقتصاد والأمان الاجتماعى والحماية المادية من العدوان الخارجى . فلا تستطيع أية جماعة أن تعيش دون سيادة تنهض بهذه الأغراض فعلا أو افتراضا ، وهى دائما فيها مزيج مما هو فطرى وفكرى تقدّمى ــ وفرضى وفعلى ووقتى ومستمر ومطرد ، وفيها الذكاء والدهاء والعناية واليقظة والفساد والندم والبلادة والإهمال والبناء .. ونادر فى إعمار أى سيادة

وجود " العبقرية " الفذة واسعة الرؤية والتصور والاقدام والمثابرة والصبر ومواجهة الأزمات بالحنكة التى لا تنقصها الحيلة !

غياب الفطنة !

وجمهور الناس فى الجماعات لا يفطن غالبا لهذه الفروق ، ولا يعرف عنها إلاّ ما يصل لسمعه أو يقرؤه من الشهرة الحسنة للحكام والقادرين أو القالة السيئة التى تجرى مجرى الشائعة أو الحقيقة ، لا يلتفت التفاتاً مدركاً إلاّ إذا أيقظته الأزمات أو المحن أو الكوارث التى سرعان ما يتلقاها ببث الاتهامات بالفساد والإفساد والتقصير والعجز ــ وأحيانا الخيانة !

والجود والسخاء والكرم والعطاء والمروءة والشهامة ، وكذلك السماحة وحب الخير والنجدة والتبرع فى النكبات للمنكوبين والمساكين ، كلها مزايا وفضائل منذ القدم ،

محصورة ــ حقيقة أو ادعاءً ــ في السادة الأغنياء والأثرياء ، على أهل الفاقة والحاجة !

وأصحاب هــذه الفضائل ــ كثيرة كانت أو قليلــــة ــ لا يغتفرون قــط ــ التمــرد أو قلـــة الولاء أو النكـــران ــ من جانب الآخذين المحتاجين ، لأن هـــذه الكــثرة مــن ذوى الفضائل " المنعمين " (؟!) تتوقع من هؤلاء المنعــم عليــهم ــ الشكر والحمد والثناء والعرفان والدعاء والولاء علـى النعمــة التى أسبغت عليهم والعطف الذى تلقوه والحنان الــذى فــاض عليهم دون فرض يفرض أو إلزام يلزم الموسرين المنعميــن الرحماء المتبرعين الخيرين بهذه الإنعامات !

مرد ذلك كله فيما يبدو ، أن الموسر لا يتمعن حياة من حوله من الناس وما فيها من جفاف وخشونة وضيــق وقســوة وحرمان وكد وتعب وإذعان وتسليم وآلام وأمــراض وعجــز ويأس وتعاسة وغير ذلك مما يصـــاحب أصحــاب الاحتيــاج والفاقة حتى يختفوا بانتهاء الحياة !

* * *

لا تكتفى الغالبية الغالبة للآدميين بمقاومـــة " النـــدرة " واستيجاد الحلول للخروج من وهدتها ، وإنما ترنو إلى نشـدان " الوفرة " وطلب الثراء ، لايقتصر هذا علـــى الأغنيــاء دون الفقراء ، غاية الأمر أن الثرى نال المراد ويطمع فى المزيـــد ، وأن الفقير يتحرق شوقا إلى مراده راجيا إن فاته قطار الكـــد والعمل ، أن يحالفه الحظ والنصيب ليعبر من عنق الزجاجــة ، ويغـــادر شرنقة الاحتياج ، وينال الوفرة والثراء التـــى يدخـل بها " جنة " الأغنياء ودنيا التميز والسيادة !!!

سطحية اليسار !

حب المال قاسم مشترك إذن بين الأغنياء والفقـــراء ، ولم تستطع الأديـــان حتى فى عنفوانها أن تحطم مكانة المـــال فى قلوب القلة الغنية أو الكتل الفقيرة ، بيد أن الكتل الفقـــيرة ليست هى التى تعطى المجتمعات طابعها عبر الزمان ، وإنمـــا تستمد المجتمعات طابعها من الطبقات التى تعلو القاعدة كما هو حـــال الأبنية بعامـــة .. فطبقـــة الأغنياء التى تعلو القاعدة ـــ

لا تعانى باستمرار ضغط الاحتياج والفاقة ، ولديها من البحبوحة ما يتيح لها أن تقف من المال موقفا هادئا متأملا ، يعمل النظر والمقارنة بين المال وبين غيره من القيم ، والالتفات إلى أضرار المال وأخطاره وأثره الشيطانى فى التسرب إلى الروح والضمير وإصابتهما بالضمور وربما بالشلل !

بيد أن سطحية الموسرين قد غلبت أى استعداد للتأمل ، وشوهت هذه السطحية فى الجماعات المتقدمة ــ كل معالم التقدم والتحضر .. فهذه السطحية هى التى أطلقت العنان لشهوة الثراء فى جميع الطبقات !! فلم يعد ذو الفاقة أو الفقير يسلم ويغتفر للموسر يساره ، ولم تعد فكرة الإذعان للأقدار ــ التى ركبت نفوس الناس فى الماضى ــ قادرة على بث التسليم أو الغفران فى وجدان تعساء الفقر والفاقة والاحتياج ! واكتسحت هذه المشاعر الدفينة المتمكنة أى رؤية موضوعية لطلب الثراء بأدواته المعقولة ، وصار الاحتياج والفاقة حافزا لتعجل قلب الأوضاع الحالية الظالمة والطمع ــ بأى أسلوب !

ــ فى مشاركة الموسرين يسارهم إن لم يكن الحلول محلــهم .. وتداعيات تنامى هذه الأحاسيس بالغة الخطر على الجميـع ، ومن المحال أن يحاصر أحد مشاعر الآدمى حيــن تحــاصره الفاقة وتضيع منه البوصلة وتحتويه التعاسة والشقاء وضيـــاع الأمل .. ومع ذلك فإن عين الموســرين المصابــة بــأمراض السطحية غافلة عن كل ذلك ، أو هى لا تعطيــه قــدره مــن الاهتمام والعناية الواجبة للنظر إلى معاناة الفقراء وأهل الفاقــة بنظرة عاقلة تخرج بالمسألة من وهدة " المن والصدقة " إلــى دوحة " القيمة " التى لا تستوى صفحــة الإنســان بغيــر الإحساس بها !

فليس يكفى صاحب الفاقة الذى يعانى إلــى جوارهــا الإهمــال وعدم الالتفات وفقــدان الإحساس بالقيمة ، أن يتلقى " المنن " و " الإعانات " التى غالباً مالا تلتفت إلى أن المتلقى كائن حى ، صاحب إحساس وشعور ، وأن إحساســه بقيمتــه وجدواه فى الحياة شعور مشروع يتعين النظــر إليــه بعيــن الاعتبار ، وإيفاؤه حقه من العناية ، وهى عناية ليس حســبها

أنها تطفئ نار التعاسة فى الفرد ، وإنما هى تفتح للمجموع آفاقا تتبدى فى إحساس مفرداته بالقيمة فى أنفسهم وفى الحياة !

ربما يخدع " سطحية " الموسرين ما يتلقونه هنا وهناك من علامات الاحترام فلا يلتفتون إلى أن الكثرة الكثيرة لا تبذله عن اقتناع وصدق ، وأن ما يرونه هو قناع " ظاهرى " يخفى مشاعر متباينة من الرفض أو الحسد أو البغض أو الاستهتار ! .. هذا كله يجرى دون أن يكره أحد اليسار فى ذاته أو يتوقف عن الرغبة الشديدة فى الوصول إليه والحصول عليه !

الجماعات فى زماننا !

لذلك صارت الجماعات فى زماننا خالية تماما من تبادل الإخلاص والتعاون والوداد والمحبة ــ لا يربط الناس فيها بعضهم ببعض إلاّ الاحتياج والضرورة ، أو الكسب والطمع والجشع للانتفاع أو المغنم الزائل الوقتى الذى يحمل أغراض التباعد والتفسخ والتفكك ، وبما قد يوحى أحيانا

للمتأمل أن الجماعة نفسها وقتية لا يمكن أن يدوم لها هي الأخرى بقاء (!!) مادام البشر على نضوب أعماقهم واحتياجهم إلى الصدق والتعاطف والأمانة والتكاتف والتماسك !

يبدو أن آفة الثراء أو طلبه المحموم ، قد آلت بكثير من الآدميين إلى تفضيل الأمور السطحية والوقتية والدنيوية .. فى هذا النظر السطحى يحل " الدهاء " محل " الذكاء " ، ومن يتقنون الدهاء يبالون بالتزام الأمانة لدى أنفسهم ، ولا يعنيهم كثيرا أو قليلا أن تكون الأمانة وفروعها هى عدة الساعى لإفساح الأبواب واغتنام فرص الكسب .. ومن يتأمل منا أحوال الناس سوف يرى أن أغلب أنشطة الآدميين الدنيوية ظلت مصروفة فى هذه السطحيات والدنيويات التى تحكى بقصير أعمارها أن حصادها كثمار النبات أو إنتاج الحيوان ــ أو يكاد !!

أكثر أنشطة الآدميين قديما وحديثا ــ مشغولة مستغرقة فى الاتجاه الأنانى السطحى ، وهى إن حققت نفعا أو انتعاشا وقتيا هنا أو هناك ، فإنه بما يخلفه من سلبيات فى عادات

وسلـوك الناس ـ يعـوق فـي الواقع مسيرة التقدم الإنسـانى بل ويعرض الجماعات البشرية بأسرها للفناء !

معظم الناس كما كانوا فى الماضى ، بل أكثر وأعجـل ، يلتفتون أولا وأخيرا إلى دنياهم السطحية التى يعرفها كل منهم بطريقته كمـا تبدو لـه : إما كريمة واسعة يسعى لأن يزيدها كرما وسعة ، وإما شحيحة ضيقـة ظالمـة يوسـعها رفضـاً واعتراضا ولوما واتهاما دون أن يفكر فى غيرها أو يبحث عن آليات عاقلة تخرجه منها ، ومع ذلك يبقى فى خـدره لا يفقـد الأمل فى أن تجود عليه الأقدار وتستجيب لأمانيه ! مثل هـذا يقضى عمره ابتداء وانتهاء دون أن يجاوز أمانيه وأطماعـه فيما بخلت به عليه الأقدار (؟!) وجادت به علـى غـيره .. يجرى ذلك فى تصور الآدمى ومنطقه لأن يقظته فى معظمـها سطحية عاجلة خالية من التركيز المتصل المؤدى إلى تعمـق الإدراك والملاحظة والفهم والتأمل الذى يفتـح للآدمـى آفاقـا واسعة للاستمرار والنمو والازدهار !

* * *

يبدو أن السطحية ، وقلة التركيز وتفاوته ، فتحا ويفتحان المجال الواسع جداً لاختلاف النظر والاتجاه والتصور لدى الأفراد والجماعات ، ولإصدار ما لا حد له من القرارات والأحكام المبتسرة والمعرضة بالتالى لدوام التغير والتبدل .. ربما خفف من آثار هذا التباين والاختلاف ، دور الذاكرة فى الاحتفاظ بما سلف من قرارات وأحكام ، ما لم تتبدل الظروف أو الرؤى وتتباعد الحاجة إلى إعادة النظر فيها فتتوارى من السلوك الإرادى الواعى وتتحول مع تراكمات الزمن إلى محض " عادة " نسلم بها أو " عقيدة " نتمسك أو نتشبث بها دون أن نعى أو نلتفت إلى أصلها !

لماذا نميل جميعنا إلى تخطئة أو نقد أو لوم بعضنا بعضاً ؟! .. ولماذا ميلنا أحياناً للحط والاستعلاء والإحساس بالغيرة وربما الحسد والحقد على الآخرين ؟!

يبدو أن هذا ليس إلاّ إعلاناً عن شدة إحساس كل منا بذاته وتعلقه غير العادى بها وعناده بأنانيته للانتصار لها ما استطاع !.. شيوع هذا الميل فينا وفيمن سبقونا كان ولا يزال

حافزاً أو عاملاً من الحوافز والعوامل القوية في أنشطة وحركات الآدميين ، دفعهم ولا يزال يدفعهم دفعاً لا ينى ولا يهدأ فى مساعيهم إلى جمع الثروات والأموال ، وإلى البناء والهدم ، وإلى التقدم والمقاومة والشرود والتحدى ، وإلى الإقدام والمجازفة والمغامرة ، وإلى الخجل والحياء والخوف والقعود والانعزال والتوارى . لأن قوة إحساس كل منا بذاته لا تحفل بنتائج هذه القوة وآثارها الخارجية ما دامت تحس قوة الإحساس وبقوة استجابتها إليه أياً كانت التداعيات الخارجية أو الصورة الخارجية لهذه الاستجابة !

حقيقة اليقظة !

خلو يقظة البشر من ذلك التركيز والالتفات الواعى لدرجاته فى الأفراد والجماعات ـ أنسى الناس حقيقة اليقظة وتركيبها وتعقيدها .. فلم يعد لها مكان بارز المعالم فى الذاكرة من قديم الزمان إلى يومنا هذا .. فصار كل آدمى يصحو بعد نوم أو غيبوبة صحو لا يقترن باليقظة التى أعنيها ،

وإنما هـــي يقظـــة كسائـــر المستيقظين لا يصاحبـــها تركـــيز ولا التفات واع .. وهكذا غرق الحاضرون والمـــاضون إلـــى الأذقـــان فـــي الوهـــم والغموض والمزج والخلـــط والتخبـــط والتشويه ، وفى نتائج وآثار ذلك كله فى حياة كل فـــرد وكـــل جماعة فى كل مكان وكل زمان ! .. قلما وجد أو يوجـــد مـــن يعـــرف معنى اليقظـــة الكاملة أو حتى من يبذل أقصى الجـــد أو الجد المعقول فى معرفة معنى ما يحيط به ومعنى كل مـــا يسمع أو يرى أو يقرأ أو يكتب معرفة كاملة تعبر ولـــو عـــن جزء من هذه اليقظة الكاملة التى يرنو إليها ويتغياها العقلاء !

فنحن مخلوقات عاشت وتعيش حياتها منذ خلقت ، على " تقريبات " و " تقديرات " و " اعتقادات " و " تصورات " و " آمال " و " أحلام " ، مثلما عاشت وتعيش على " حسابات " و " تأمينات " و " احتياطات " و " مخاوف " و " مخـــاطر " ــ تتأرجح بين الرجاء والخوف ، والأمل واليأس ، وبين هـــذا كله وبين القضاء والقدر !! .. ومع هذا كله فـــإن فـــى هـــذه المخلوقات من جاهد واجتهد ويجاهد ويجتـــهد جـــاداً مثـــابراً

ومجتهداً فى رؤية وخدمة وتحقيق أقصى ما يراه من الصـــدق والحقيقة والبر والخير .. هـؤلاء ـ فيما يبدو ـ هم أعمـــدة وجود البشرية وتقدمها ، ووجودهم ضرورى لبقائـــها الأمــد المقدر لبقائها !

ولو تصور أى منا مبلغ اختلاف درجات اليقظة فى كل فرد فى كل يوم ـ لذهل من قدرة البشر على التعـــايش معـــاً بفضل الاعتياد الدائم على الســطحية وعلـى عـدم التحقيـق والتدقيق ـ وبفضل إكتفائنـــا المفترض بوجود التمـــاثل فيمـــا بيننا ، واعتقادنا المذهل فى عدم احتياج كـل منا إلـــى التـــأكد من وجوده حقيقة فى كل مناسبة أو صلة أو مقابلة أو اجتماع ! .. إن كل صلاتنا وأغلب معاملاتنا مبنية ـ دون أن نشــعر ـ على الإيمان بافتراض التماثل الذى لا محل لافتراضـــه ، بـل يورى النظر الصحيح أن هذا التماثل قليل إن لـــم يكـن نـــادر الوجود .. إننا نتكل على الدوام على عـــادات ســائدة ننســى أصلها بحكم قانون العادة ، وننسى أنها ثمرات لماض انقضــى وليست واقعاً لحاضر جديد فى طريقه حتماً إلـــى مســتقبل ..

فماضينا يدفع وجودنـــا أمامـــه لا خلفه ، يمر حتماً بالحـــاضر الذى لا يتوقف تحركه فى كل لحظة إلى قابل هو الذى ينبغـــى أن تتطلع وترنو إليه بصيرة وفطنة الآدمى !

يغيب عن سطحيتنا ، ويقظتنا المبتســرة ، أن حيـــاة كـــل منـــا تحتاج إلـــى التكاثر ، شعر بذلك أو لم يشعر ، وأن استمرار هذه الحياة يتوقف على هذا التكاثر الذى يلازم غايتـــه إن لازم واتسق مع ظروف المكان والزمان ، وأنه إن زاد على ذلك لقلة التفطن والالتفات ، ينقلب إلى عامـــل هدم وإزالـــة .. شعور الحى بالحياة يتـــلازم مـــع الشـــعور بـــالذات ، وكـــلا الشعورين بحاجة إلى الاتزان والاعتياد على المراقبة ومراعـــاة الظروف والعواقب بقدر الإمكان .. ويبدو أن هذا الاعتياد على المراقبة ليس هيناً أو ليس فى متناول أغلبية الناس ، فتمضـــى بهم الحياة أو يمضون معها بغير يقظة واعية تتيح الاتزان الذى يقدر به الآدمى خطاه ، ويختار طريقه ، كيما يكون بما خلقـــه الله فيه لبنة واعية فاعلة فى عمران الحياة !

تورى اليقظة والالتفات بأن المواضيع التـــى شــغلت وتشغــل العلــوم الوضعيــة ، فــى زماننــا وقبلـــــه ، لا تتجاوز " ظواهر " الكون الذى نحن جزء ضئيل بالغ الضآلة منــه .. ومــع تتابــع المحــاولات الإنسانية لدراسة ومعرفـة " الظواهر " ، والتى تراوحــت بين التوكيـــد أو الترجيـــح أو الاحتمال ، فيما نصطلح على تســميته بــاصطلاح المــواد والأجزاء والعنـــاصر والمكونـــات والتفــاعلات والمركبـــات والجزيئات والــذرات ومحتوياتــها العجيبــة ، وفــى القــوى والطاقات التى قطعت فيها ولا تزال تقطع أشواطــا بعيــدة .. كل ذلك على جديته وعظمته بعيد بعيد عن أن يكشف ما نعــبر عنه أحياناً بســر أو أســرار حيــاة الأحيــاء .. ولم يغيـــر " عصر المعلومـــات " التالــى لعصر العلــوم الوضعيـــة ــ لم يغير شيئاً من عجزنا جميعا عن الوقوف على أصل الحيـــاة الغامض علينا الذى ما زال دائبا فعالاً مسيطراً على حياة كـــل حى خلال حياته قصرت أو طالت .. مهما ظن الحى وتخــايلت أحلامه بأنه امتاز ووصل وتفوق وترقى وارتفع اسمه وذكره ،

فإنه لا يملك ومحال أن يملك الكلمة الأخيرة في حياته الدنيـــا .. لم يتنبه الإنسان إلى هذه الحقيقة على مدى عشـــرين قرنــاً ولت والجميع فـــي غفلـــة عن المعنـــى الكلـــى فـــي غمـــرة الإنشغال حتى النخاع بأمور وتوافه حياة كل منهم ، فيما عـــدا قليلين نادرين اســـتطاعوا أن يخرجـــوا مـــن اليـــمّ بيقظتـــهم ومراقبتهم الجادة الخالصـــة ليتعلقوا بالمعنى الكلى ويتأملوا فـــى سر وحكمة الحياة !

إرهاب مَنْ .. هذا الإرهاب ؟!!

لا أحد يحب الإرهاب أو ينشده لذاته أو يرضاه ، ينطبق ذلك على ممارسى العنف مثلما ينطبق على المراقبين والمشفقين وعلى الناس بعامة !! ممارس العنف ـ ما لم يكن جانحاً جنوحاً مرضيا ! ـ لا يطلب العنف لذاته ، وإنما هو رد فعل لظلم ساحق أو انسحاق ظالم ، بل إن " رد الفعل " بغيض إلى ذات اللاجئ إليه ، فلا هو أحب العنف وطلبه طواعية باختيار مريد ونشده وارتضاه ، بل هو مكره عليه مقود برد فعل الظلم والانسحاق إليه ، ولا هو بداهة أحب أو نشد أو ارتضى الظلم والطغيان والجبروت الممارس عليه !! هى إذن ردود أفعال أقرب إلى التلقائية !! وهى ليست أفراحا لأصحابها ـ كما قد يظن السطحيون ـ وإنما هى مكابدات مأساوية تجرعها التعساء حتى الثمالة إلى أن صارت لهيبا مشتعلا فى حناياهم ينتهى بهم إلى إفناء أنفسهم

ليسمعوا الدنيا وجيعتهم وصراخهم وأنينهم وأنين شعوبهم وأوطانهم !!!

إرهاب من !

في الوقت الذى يحاول فيه العرب والمسلمون أن ينتزعوا أنفسهم من عام الأحزان (٢٠٠٤) ، ليستقبلوا عيداً آملين أن يمسح ولو لأيام بعض شجونهم ، وفى الوقت الذى تختلط فيه أيام العيد برحيل وتوديع عرفات ومن قبله الشيخ زايد ، وتعكف العقول والأقلام على النظر وإعادة النظر لبحث ومراجعة وفحص أسباب الاتهامات الأمريكية العلوية المتوالية بنسبة " الإرهاب " إلى العرب والمسلمين ، وتجاوز التهجم على الناس إلى الدين ذاته ، وتسعى لتعقيم الدين مثلما سعت وتسعى لتعقيم الشعوب والناس ، وفى الوقت الذى يتجرع الكثيرون هذا الهوان ولا يكفون مع تجرعه عن محاولة مراجعة الذات لمعرفة أسباب طفح الإرهاب ، وفصله عن الخلط المقصود المروم به إسباغ وصف الإرهاب على كل

دفاع مشروع للشعوب عن أوطانها وأراضيها .. هـذا الخلـط المقصود الذى أدى ويؤدى إلى عوار النظر الآتى من هنـاك ، والعزوف الضرير عن سبر الأغوار والجذور الحقيقية لأعمـال العنف : إرهابا آثما كان أو مقاومة مشروعة ، وبالتالى ضياع الطريق الصحيح لتجفيف منابع العنف بتعقيم مسبباته !!

فى الوقت الذى تموج فيه العقول والقلـوب والمشـاعر بهذا كله ، لا يصرفها عنه عيد ، ولسان حالـها يقـول أثـيرة الشاعر القديم : " عيد بأى حـال عدت يا عيد .. بما مضـى أم لأمر فيه تجديد !! " .. تحمل إلينا الصحـف والفضائيـات كوارث متلاحقة تدمى هنا ولا تمس شغاف قلب أحد هنـاك : فى ١١/١١ ــ ٢٨ رمضان : معارك شرسـة فـى الفلوجـة والمقاومة تتحدى الاحتلال ! .. اشتباكات ضارية فى وسـط الفلوجة وشمالها ! .. إدانة تركية لمهاجمة الفلوجة فـى ليلـة القـدر !.. تحذيرات دولية من كارثة إنسـانية وشـيكة فـى الفلوجة !.. الآلاف بالفلوجة يعانون نقـص الطعـام والمـاء والدواء ! .. الجثث تغطى شوارع الفلوجة والبنتاجون يتوقـع

معارك صعبة !! .. ، وفى ١١/١٣ ــ ٣٠ رمضان : القــوات الأمريكية تدخل إلى معظم الفلوجة .. معـــارك شرســة بيــن القوات الأمريكية المسلحة وبين المقاومة بالقرب من المســـجد فى حى الجولان بالفلوجــة !! .. القــوات الأمريكيــة تعلــن السيطرة على معظم الفلوجة وتقوم بعملية عسكرية فى الرمادى وتستعد لمهاجمة الموصل .. ، وفـــى ١١/١٥ ــ ٢ شــوال : الأمريكيون يعتذرون للعالم عن إعــادة بــوش إلــى الســلطة والحرب !! الفلوجة تواجه كارثة إنسانية مروعـــة والقــوات الأمريكية ترفض دخول المساعدات الإنسانية !! التيفود يتفشــى بالمدينة والجثث المتحللة ملقاة بالشوارع والسكان محــاصرون يموتون جوعاً وعطشا !! مظاهرات احتجــاج تتــهم عــلاوى بالخيانــة والبلطجــة !.. اشتباكـــات دامية فــــى بيجــى !! قوات المارينز الأمريكية لا تستثنى الأجانب ولا ترحم النســاء والأطفال !! الخسائر حتى اليوم ١٢٠٠ شهيد ضحايا مجــازر الفلوجــة مقابـــــل مصـــــرع ٤ (؟!) جنـــود أمريكييــن وإصابــة ١٦ (؟!) .. ، وفى ١١/١٦ ــ ٣ شــوال : تجديــد

المعارك فى الفلوجة وقتال فى الموصل والرمـــادى وبعقوبــة وبهزر .. تساقط القتلى العراقيين !!.. القـــوات الأمريكيــة دخلــت مبنى مستشفى الســلام فى الموصل ، وتهاجم بعقوبــة بهجمات برية وجوية عنيفة !! .. ، وفى ١١/١٧ ــ ٤ شوال : جرائم حرب لقوات الاحتلال الأمريكية فى الفلوجة !! اقتحـــام المساجد وقتل المسلمين وإعدام الجرحى العزّل !! .. محطــات التليفزيون الأمريكية تفضح الجرائم ومنظمة العفـــو تطــالب بمحاكمة مرتكبيها !! مواجهات عنيفة فى عدة مـــدن وحشـــود أمريكية لإقتحام غرب الموصل !! ــ ١٢٠٠ عسكرى أمريكى يستعدون للسيطرة على غرب الموصل !! معارك عنيفة فـــى المعاقل السنية !! .. الجيش الأمريكـــى يحتجــز ١٠٥٢ فــى الفلوجة ويعتقل نائب رئيس المجلس الوطنى العراقـــى رغــم الحصانة !! .. منظمة العفو الدولية تكشـــف عــن انتــهاكات خطيرة لقوات الاحتلال الأمريكية فى العـــراق !!.. العــار : جنود الاحتلال الأمريكى يعدمون الجرحى العراقييـــن داخــل مسجــد فـــى الفلوجـــة !!.. شبكة تليفزيون أمريكية ــ نعــم

أمريكية ! ـ تنيع شريطا للمارينز أثناء إطـــلاق الرصـــــاص على رءوس المصابين بالمساجـد بدلاً من نقلهم للعـــلاج !!.. المراسل الحربى يصف المشهد المفزع والبنتاجون ينفى علمـــه ومنظمة العفو الدولية تطلب التحقيـــق !! شـــبكة " س . إس . نيوز " التليفزيونية الأمريكية تنيع صورا لجندى أمريكى مـــن المارينز يصوب سلاحه نحو رأس أحد الجرحى ويطلق عليـــه النار وفى خلفية الصورة جنود المارينز يرددون : " الآن تأكدنا أنه مات !!.. قصف حى الشهداء بالأسلحة الكيماوية وإلقـــاء الجثث فى نهر الفرات لإخفاء الجريمة !! راديو لندن يؤكـد أن الجريمة التى ارتكبها جنود المارينز فى الفلوجة تمثل فضيحـــة مخزية !!.. بث شريط الفيديو عن الحادث يفجر ضجـــة فـــى واشنطن تعيد للأذهان فضيحة سجن " أبـــو غريـــب " !! ـ هـــل تذكرون ؟! .. هجوم أمريكى واســع النطـــاق علـــى الموصل بعد اكتمال السيطرة على الفلوجة !! منظمات حقـــوق الإنسان تتهم أمريكا بارتكاب جرائم حرب فى العــــراق ؟!! .. وفى ١١/١٨ ـ ٥ شوال : حرب الشوارع فى الرمادى بعـــد

الفلوجة !.. المقاتلات الأمريكية تنسف المنازل بالقنابل والصواريخ !! بلغ عدد الشهداء الآن ١٦٠٠ شهيد ضحايا مذبحة الفلوجة !! اعتقال ١٠٠٠ عراقى خلال ١٠ أيام من العمليات الأمريكية الوحشية !!.. تساقط القتلى العراقيين فى مواجهات دامية بالرمادى والموصل !! ـ مصور " إن . بى . سى" يؤكد أن الجنود الأمريكيين قتلوا ثلاثة جرحى آخرين داخل مسجد الفلوجة !! المنظمات الإنسانية الدولية تصف العملية بجريمة حرب وتدعو للتحقيق فى جميع الممارسات الأمريكية بالمدينة !! إسرائيل تقتل ٣ جنود شرطة مصريين فى رفح وشارون يقدم اعتذاراً ومصر تحتج دبلوماسيا !! ، واتصالا بالمآسى التى لا تنقطع ، والجرائم التى ترتكبها إسرائيل كل يوم فى فلسطين فى إطار المسح والتدمير والتجريف والإبادة والتفريغ ـ تحمل الصحافة فى ١١/١٩ ـ ٦ شوال مانشيتات تميط اللثام عن المزيد من جرائم الحرب ومعاداة الإنسانية : " جنود الاحتلال الإسرائيلى يقلدون الأمريكان فى العراق !! .. مثلوا بجثث الفلسطينيين والتقطوا

صوراً تذكارية معها " !!! ..تمضى هذه الوحشـــية محميـة بقانون " السامية " الذى أصدره الرئيـــس بـــوش وصـــار أداة لتعقب كل من يقول " لا " لما تفعله وترتكبه إسرائيل !!!

إرهاب من إذن هذا الإرهاب ؟!!

هذا الإرهاب !

إرهاب الدول الذى طفنا ببعضه فقط عبر أيام قلائـــل ، بات إرهابـــاً عاماً يمارس ممارسة تكـــاد تكون يومية ، مـــن مدة طويلة !! وهو إرهاب أخطر بكثير وأعـــم أثـــراً وأكـــثر بالتالى وبالاً من إرهاب الأفراد مهما اشتط وجمح !! .. وأكـــبر المغالطات فى إرهاب الدول أنه يشن وبهذه الضراوة بدعـــوى مقاومة الإرهاب ! .. فهل الحروب التـــى تشـــنها الولايـــات المتحدة وأذيالها ، والمقترنة بأبشـــع أنـــواع جرائـــم الحـــرب والعـــدوان ضـــد الإنسانيـــة ــ هى حروب للقضـــاء علـــى إرهـــاب !! ، أم أنهـــا لإثارته بإرهـــاب أشـــد وأبشـــع وأجمح ؟! .. وهل قصد هذه الحـــروب الضاريـــة والأعمـــال

الوحشية إلى تجفيف إرهاب لن يجف بل سيزداد بهذا الأسلوب ؟! أم أن القصد تركيع دول وإهانة كرامة بل وآدمية شعوب ؟!.. وهل هذه " القصود " تؤدى إلى ما تتشح الحروب الحمقاء بأنه غايتها النبيلة وهدفها السامى للقضاء على الإرهاب ، أم تؤدى إلى نقيضه وتشعل ناراً عامة سيكتوى الجميع بنارها وبلهيبها فإن لم يكن فبلفحها ؟!!

أسوأ ما فى إرهاب الدول ، أنه يمضى فى جموحه بلا أى آلية متاحة لإصلاحه أو محاصرته أو تجفيفه !!.. قد تنجح المواعظ ودعوات الإصلاح فى محاصرة أو تعقيم الإرهاب الفردى ، وينجح أكثر فى تجفيف مسبباته بتسريب العدل إلى ساحة غلبت فيها المظالم ، إلاّ أن إرهاب الدول يبدو مستعصيا على أى وعظ أو إرشاد أو دعوة أو تنوير .. مرد ذلك أن إرهاب الدول لا ينبع من تصرف إنسان يمكن أن يخاطبه ضميره أو ترده سلطة أسرية أو أبوية أو سلطان العقل والمنطق أو سلطات دولته ، أما إرهاب الدول فجموح أنظمة تديره عن قصد لا ينفع فيه وعظ ولا إرشاد ، ولا يجدى فى

مخاطبتها اعتبارات العدل والإنسانية ، فهى تعرف ذلـــك كلـــه ولكنها لا تبالى به ولا تأبه له ، فهى قد أقامت إرهابها علــــى فلسفة مدروسة ارتأتـــها واعتقدتـــها ، دون أن تـــدرك أن أى حسابات تغفل أحاسيس الناس ورد الفعـــل الإنســـانى ومقـــدار الزخم الذى يفور فيه من جراء غيبة العدل وإرهاب الــــدول ـــ إنما هى حسابات حولاء لأفعال تزرع مرارات تتحـــول بـــرد الفعل إلى إرهاب يجد مبرره فى تراكمات الظلــــم وحصـــار الإبادة وضياع قيمة الحق والاعتدال أمام غطرسة وجـــبروت القوة والأقوياء !!

المخيف إذن هو إرهاب الدول ، ليس فقط لأنها تملـــك القوة الكاسحة القادرة على التدمير والإبادة ، وليس فقط لأنـــها تملك الفعل الذى يغطى الكرة الأرضية طولاً وعرضاً ، ونـــاتج إرهابها ناتج هائل مساحةً وعمقاً وأثراً ، وإنما لأن هـــذا كلـــه يصب " النار " فى الناس ، ويولد الانفجـــار الإنســـانى هنـــا وهناك ، هذا الانفجار الذى لا يمكن أن يفـــهم فـــهماً حقيقيـــاً دعوات التعقل والمسالمة والاحتكام إلى الحوار ، بينمـــا يـــرى

الأقوياء يطأون الضعفاء بالأقدام ، ويبقرون بطون الحبـــالى ، ويعصفــون بالأطفــال والأبريـــــاء ، ويرملــون النســاء ، وييتمون الأبناء والبنات ــ وينتهكون الإنسانية انتهاكاً يســتحيل معه أن تكون لهم فى نظر الناس أى مصداقية وهم يتشـــدقون بأن هذا الدمار المبثوث هو لحماية الإنسانية والقضـــاء علـــى الإرهاب ؟!!!!!

سياحة فى داخل الإنسان !

لا يستطيع الآدمـى أن ينقطـع عـن اللجوء بخطابـه إلى ربـه ، مؤمناً كان هذا الآدمـى أو ضـالا ، مستقيمـاً أو جانحـاً ، راضيـاً أو متذمـراً ، مطمئنا أو قلقاً ، مرتاحـاً أو مكـدوداً .. بيد أن خطاب البشر إلى الله ، غـير خطابـهم فيما بينهم .. يستحيل على البشر خطاب الرب تبارك وتعـالى ـ إلاّ بما يسمى " اللغـة " أو يسمى " الألم " أو يسمى الدعاء أو الرجاء أو الضراعة أو الابتهال ، وكلها بشريات ..

واللغة هى اللسان المشترك فى جماعـة أو جماعـات يتداوله أفرادها ومن يحاكيهم فى حياتهم الخاصة أو فى الحيـاة بعامة ، يقظين فى ذلك أو حالمين !.

أما الألم فهو إحساس وتعود ، قد تعبر عنه اللغة ، وقد يعبر عنه وجـع الألم .. وهو كثير الحدوث بالأنين والصيـاح أو بمحاولة التخلص من الحياة حين يشتد الإحسـاس بـالألم ، وتخبو العقيدة وتنطفئ روح المقاومة !

أما الدعاء والرجاء ، فكثرتهما كثيرة .. يترددان من وقت لآخر على لسان أو فى قلب كل فرد حين يطمئن ويأمن أو يستبشر أو يؤمل فى خير لنفسه أو لمن فى حكم نفسه .

واستجابات الرب عز وجل ، لخطاب المؤمن به ، استجابة محققة دائماً ، بيد أن تحديد ميقاتها هو إلى الله سبحانه وتعالي وحده .. المؤمن صادق الإيمان يطمئن إلى ذلك ويثق فيه ثقة اليقين ، لا يزعزع هذا الاعتقاد فى داخله أن يطول انتظاره لاستجابة وتلبية الرب .. يمد له أحبال اليقين اعتقاده وثقته فى الإله ، واعتقاده وتصديقه لما جاء بالكتب السماوية طمأنة للمؤمن أن كلمة الله عز وجل آتية لا ريب فيها .. وعده حق ، واجابته حق ، وهو سبحانه أقرب لعباده من حبل الوريد .. بل إن غير المؤمن لا يفلت منه يقين ما يدرك به ــ مهما كان إدراكه مبهما أو مشوشاً ــ أنه لم يكن ثم كان ثم إنه لن يكون .. يعرف بهذا اليقين أنه ولد من حيث لا يعرف، ويعيش إلى حيث لا يعرف ، وتنقضى حياته الدنيا بميعاد لا يعرفه ولا يمكنه أن يعرفه .. أجمل القرآن المجيد هذه المعانى

فى قوله : " أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ * أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ * نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ * عَلَى أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لا تَعْلَمُونَ " (الواقعة ٥٨-٦١) .. وفى القرآن المجيد : " وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا " (مريم ٩) ، " أَوَلا يَذْكُرُ الإنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا " (مريم ٦٧) ــ وبرحيل الآدمى من الحياة الدنيا يرد إلى عالم الغيب والشهادة ، يقول عز وجل : " ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ " (التوبة ٩٤ ، ١٠٥ ، الجمعة ٨) .

خالق هذا الكون العظيم الذى لا يحده حد ــ واحد ، يستحيل على مخلوق أن يحيط بمعرفته كائنة ما كانت أو تكون تلك المعرفة ، أو أن يحيط بمعرفة كل ما خلق ويخلق سبحانه أو سوف يخلق ، أو بمعرفة كل ما محاه أو يمحوه أو سيمحوه مما كان أو يكون أو سيكون ، ويستحيل على المخلوق ــ أي مخلوق ــ أن يحيط بشيء من علمه إلاَّ بما شاء سبحانه (البقرة / ٢٥٥) ... هذه الحقيقة نسيها وينساها

وسينساها الآدميون بالغة ما بلغت فيهم القدرة على التذكر سعة أو عمقا أو ضيقا أو سطحية !

ما نسميه نحن البشر بعضنا لبعض من قواعد وأصـــول وقوانين، ومن معقولات وإدراكات وحكم ، ومن معالم رشـــد وفطنة وبصيرة وما إلى ذلك ــ هى فى نظر عقلائنـــا أنـــوار نراها كل حسب طاقته في مجرى إدراكنا ومبلغ فهمنا إن سلمنا أمورنا جادين إلى خالق الكون .. نراها فيوضاً ونعماً إلهية ..

بيد أن هذا لم يعد حاصلاً خاصة فى زماننـــا إلا لـــدى أقل القليل من الناس ، فإن أغلبيتهم الغالبة جداً قد باتت بغـــير مواربة ــ عبيداً لهذه الأرض ! .. لا تنظر إلـــى غيرهـــا !. يمشى الكل فى كافة المجتمعـــات ، ســادة وعامـــة ــ علـــى الرؤوس لا على الأقدام ، ولا يتطلعون قط إلى ما هو أغلـــى وأصدق ، بل إلى ما هو أقرب وأدنى إلى الفناء !

بالغة ما بلغت عقولنا وحواسنا ومشاعرنا ، وأفراحنـــا وأحزاننا ، وآمالنا وآلامنا ، فإنها لم تدر ولا تدري ولن تـــدري ما هو داخل بناء كل منا ــ ماديا وغير مادي ــ من أجـــهزة

وقوى .. لأنه عالـم آخر تماما لاسـلطان لأي مـنا علـى تركيبه وعمله ونشاطه إلا سطحياً وهامشياً ، هـذا الجـهاز العجيب فى داخلنا لا يعرف "الأنا" على الإطـلاق ، ويـؤدى وظائفه وقواه بقدر ما هو ممكن لديه فى كل منا !

لا أسمـاء لهـذا الداخـل لدينا ، ولا نخاطبه بلغاتنـا أو إشاراتنا ، ولا نلتفت إلى ما يجري فيه وما يحدثه وما يتبدل ويتغير ويجيء ويخرج ويبدأ وينتهى داخله.. هذا العالم الـهائل فى داخـلنا يرتبط بكل منا ارتباطـاً لا ينفصم مادامت حياتـه .. ومـع هذا فإن أداءه أو حركته أو نشاطه لا يتوقف لحظـة واحدة مهما كانت أحوال كل منا.. فى صحوه أو منامه ، وفـى حركته أو سكونـه ، وفى حبه أو كرهه ، وفى جده أو لعبه ، وفى صمته أو كلامه .. لا يبالى هذا الجهاز الهائل فى داخلنـا بهذه الأوصاف والأحوال والمعالم الآدميـة الخارجيـة التـى نتداولها من الميلاد إلى الطفولة والصغر والشباب والرجولـة والكهولة والشيخوخة ، عاكف فى دأب عجيب على أداء مهامه ما استمرت الحياة حتى الزوال فى الموعد المقرر لها .. حينئـذ

تتوقف تلقائياً كل أجهزة وحركة وأداء هــذا الداخــل لتــؤوب بسرها العجيب إلى خالقها الأعظم !

فكرة للتأمل !

من يتذكر الله ــ على أى وجه ــ يدخل الله قلبه وعقله ــ شــاء الآدمــى أو لم يشأ ، وإذا دخل الله سـبحانه عقــل وقلب الآدمى على أى وجه ولأى سبب واعتاد عقلــه وقلبــه دخوله أخصبهما وباركهما .. يحصل هذا للشاكر وللســاخط ، وللمؤمــن وللمتشكك المتحير .. بــل وللمعانــد المكابـــر .. بل للكــاره المعادى ــ مادام لا ينقطع حضور الله فى ذهنـــه ولــم ينس الله على أى وجــه ــ فالكفــر هــو عدم المبـــالاة وعدم الانفعال وانعدام رد الفعل كلية بالنسبة لله عز وجل عنــد الآدمى . ولذكر الله أكبر !

الآدمية وزحف التيه !

فرنسوا جوزيف ، إمبراطور النمسا منذ عـــام ١٨٤٨ وملك المجرمنذ عام ١٨٦٧ ، والذى استمر إمبراطورا للنمســا وملكا للمجر حتى وفاته سنة ١٩١٦ .. هذا الإمبراطور المعمر فى الحكــم ، عرف عنه أنه ــ لنشأته العسكرية الصارمـــة ــ لم يكن ينام فى قصره إلاّ على سرير من الخشب مما ينام عليه الجنود فى الثكنات ! .. واقترنت هذه الصرامة مع نفسه بالتزام شديد إزاء واجباته الرسمية بل والعائلية أيضـــا ، وبملازمتــه للأمانة والعدل إلى حد المبالغة اللافتة للنظر طـــوال الســبعين عاما التى قضاها فى الحكم ، ومع ذلك امتلأت أيامه بالـــهزائم العسكريـــة والسياسية والفتن ، وفقد أملاك بلاده فى إيطاليـــا ، ففقد " لمبارديا " فى الحرب الإيطالية ١٨٥٩ ، والبندقيـــة فـــى الحرب النمساوية البروسية ١٨٦٦، وفقد مع فقد هذه الأمـــلاك ــ ما كان لبلاده من مكانة ورياسة فى ألمانيا، وامتلأت حياتـــه بالمآسى العائلية .. اغتيلت زوجته فى سويسرا ، وانتحر ولـده

فى تراجيديا حب مأساوية ، واغتيل ولى عهده هو وزوجته فى سراجيفو اغتيالا اعتبره عقوبة من السماء !

قالوا عنه إنه عاش ملكا ومات ملكا ، وقضى حياته كلها حياة ملوك ، صوابها صواب ملوك ، وأخطاؤها أخطاء ملوك !!

هل كان فى مقدوره غير ذلك ؟!

هل كان فى مقدوره أن يعيش آدميا ويموت آدميا ؟!

هذا السؤال لا علاقة له بالدين أو بالأخلاق ، وتكاد علاقته بالفسيولوجيا والتشريح وعلم النفس أن تكون واهية محدودة .. فلا نزاع فى أنه تشريحيا وفسيولوجيا ونفسيا كان آدميا ، إلاّ أن هذه الآدمية واجهت وظيفة اجتماعية فرضت عليه وغشيت حياته بكل تفاصيلها منذ مولده أو صباه إلى أن مات ، وهذه الحياة بطقوسها ولوازمها تنفصل وتبتعد ـ شاء المتقلد لهذه الوظيفة أو أبى ـ عن الآدمية التى يمارسها العاديون من الناس !! فهو قد وجد نفسه وهو طفل وهو صبى وهو شاب فوق الآدميين كلهم بغير استثناء .. يرى

هذه " الفوقية " المطلقة فى جميع ما حوله ومن حوله ، ويراها محل اعتراف وتقديس وتسليم حتى من الأم والإخوة والزوجة والأولاد .. قد يتلقى أو يوجه إليه نصح أو مشورة أو اقتراح وباحترام ، ولكن من المحال أن يتلقى أو يوجه إليه أمر من أى مخلوق حتى فى هذا المحيط الأسرى الحميم .. ذلك أن جوهر وظيفته أو جوهر الملك الذى اعتلاه أن يكون دائماً صاحب الكلمة الأخيرة النافذة فى مملكته ، وباسمه ـ لاباسم الشعب ـ تكون الحكومة وتدار الدولة وتسن قوانينها وتصدر وتنفذ فيها الأحكام وتصك النقود وتُجبى الضرائب وتقاد الجيوش ويتحدث الوزراء والسفراء والقناصل وتعلن الحروب وترفع أعلام الانتصار بل ويدون التاريخ !

وأمراض السلطة ، أو الاعتزاز والتيه والخيلاء بالسلطة ، أمراض قديمة قدم المجتمعات البشرية ، أصابت وتصيب غير الملوك مثلما تصيب الملوك .. لا ينجو منها ـ على اختلاف فى النسب والمقادير ـ الزوج والأب وشيخ القبيلة ورب العائلة وشيخ الناحية وحاكم المدينة أو الإقليم ،

ورب العمـــل ورئيس المرفـــق أو الهيئة أو السلطة ، ورؤساء الوزارات والوزراء والقادة بعامة ــ بيد أن تمكن الـــداء مـــن الأمراء والملوك أعمق وأقوى ، لأنه يبدأ معهم مـــن ســنوات التكوين من خلال ما يتلقونه ــ حتى وهم فى سن الطفولـــة ــ من مظاهر التبجيل والتوقير والتعظيم والإجـــلال ، يصاحبـــهم ولا يفارقهم قط فى مراحل نمو أعمارهم وترقيهم فـــى ســدة الملك مـــن الإمـــارات إلـــى ولاية العهد إلى أن يصير ملكـــا أو سلطانا ، ويضطلع بعرش المملكة أوالسلطنة !

هذه الوظيفة فوق البشرية ــ يبرزها ويؤكدها بقـــوة ــ حزمة نظمها وأنظمتها وطقوسها الخاصة وألقابها وأوضاعـــها وحاشيتها وحشمها وخدمها ومخصصاتها وقصورها وتشريفاتها وأعيادها ومقابلاتها الدوريـــة وغـــير الدوريـــة ، وزياراتـــها ورحلاتها الرسمية وغير الرسمية ومراسلاتهـــا واتصالاتـــها وروابطها في الداخل والخـــارج .. هـــذه " الباقـــة " لا تكـــف بمفرداتها وبمجموعهـــا عـــن تذكير صاحب التـــاج بالتـــاج ، ولا تكف أيضا عن تذكير جميع من يتعاملون معه أو يـــدورون

فـــى فلكه أو يسمعون به بهذا التاج وبأنه فوقهم وفوق جميـــع من تمتلئ بهم مملكته بل وفوق من يمتلئ بهم أى بلد آخر !

ومهما يبدو للمتأمل أن هذه مبالغـــات غـير معقولـة وأوهام وخرافات فادحة التكاليف وقادحة فـــى ذكـاء وفطنـــة الإنسان المتحضر ، لأن التاج لايحيل حامله إلها أو شبه إلـــه ، ولا يبعد عنه الحماقة أو الغباء أو الغفلـة أو يميزه عـن آلاف ربما بزوه بموازين العقل والعلم والمعرفـــة ! ـ إلاّ أن فعـل التاج واقع واقع قديم جدا ، عريق الجذور والأصول ، يمـــور ويزحف كالرمال المتحركة ، لا يفلت من أثره أحد مهما عـــلا نجمه فى العلم أوالأدب أو الفنون !! فمازال أعقـــل العقـلاء وأعلـم العلمـاء وأنبغ نجـوم الفن والآداب ينحنى أمام ملكـه بل وأمام " ملوك " بلاد غير بلده ، ليس فقط استجابة لمراسـم البروتوكول ، وإنما لفكرة نمت فى الأعمـــاق تجعلـه يحـس بشرف أن يقابله الملك ويرحب بوفادتـــه أو بدعوتـه علـى مائدته أو أن يبعث إليه الملك ببرقيـــة أو تهنئـة أو مواسـاة أوسؤال عليه فى حال مرض أو أزمة أو مأساة !!

إن البشر جميعا ، أو كثرتهم الكثيرة جدا ، بـــاق فيـــهم وسيظل ــ باقيا فيما يبدو ــ مساحة واسعة من البساطة يجــب أن يحسب حسابها فى وضع نظم حكم البشـــر .. ففـــى هــذه المساحة الواسعة يتماثل سلوك العالم والذكى والفطن ، وســلوك الجاهل والبليد والغافل .. هذه المساحة الواسعة التى اســتقرت فى أخلاد الناس من قديم ، قد قرنت التسليم بـــالملك أوالقيـــادة باحتفاء وتنزيه قد يصبح تأليها ، وحاصرت المتقلد سدة الملــك بمراسم وطقوس يشقى بها فى الغالب ، لأنـــها قلمــا تســاير مطالب آدميته ، وتلزمه فى الوقت نفسه بكثير مما لا يحتملــــه الآدمى العادى ، فى الوقت الذى تغمـــره بـــالتبجيل والتقديـــس والمناعم والأبهة الظاهرية التى تديـــر رأســـه وتســـتنفر فـــى الآخرين مشاعر دفينة تتنافر مع الظاهر المبدى وتتنامى بنذرها متسترة بأستار الخفاء !

فكرة للتأمل !

المعرفة تقرب البعيد ، لأنها اقـتراب يلغـى المسـافة المكانية والزمنية أو يختصرهـا ، يحيل المـاضى حاضـرا والمستقبل حاصلا أو فى حكم الحاصل . ولذلك يحب الآدمـى الماضى أو يكرهه ، ويخشى المستقبل أو يتوجس منه ، يتـواد ويعترك على الماضى والمستقبل تواده واعتراكه على النمـاء والحاضر وربما بدرجة أشد فى بعض الأحيان !

لأننا بالمعرفة نمد وعينا وبالتالى نطاق حياتنا ، فيصبح ما نعرفه جزءاً من حياتنا ، وحياتنا تغمرها " الأنا " ، والأنـا حاضرة دائما ما دمنا على قيد الحياة !

المعقولية بين آدم وحواء !

المعقولية أقوى وأظهر فى عموم الرجال منها عند عموم النساء ـ وهذا لم يمنع ولا يمنع من تفوق نساء فى المعقولية على عموم الرجال ، ولا من هبوط رجال فى المعقولية عن عموم النساء ! فاختلاف المستويات الفردية لا يتوقف هنا أو هناك ، ويفرز على الدوام نماذج متباينة تخترق العمومية وتورى بأن إبداع وتفوق الآدمى الفرد لا يقف عند حد ، ولا تحده قواعد عامة أو نواميس مفترضة !

فالناس لا تقيد ـ هنا ـ بالتفوق أو الهبوط ، لأن التفوق موهبة والهبوط نقص فى الخلقة ، والمعتنقون للفوارق يعزون ذلك الفارق بين عموم النساء وعموم الرجال إلى أنه أنسب لدورهن الحيوى من حيث الحمل والولادة والإرضاع ورعاية الصغار والبيت والأطفال والأولاد ، وهو دور طويل لم يغمطه الرجال حقه وفيه قال الشاعر : الأم مدرسة إذا أعددتها .. أعددت شعباً طيب الأعراق .. وهذا الدور

الطويل العريق جداً ملئ بمهام سلبية وإيجابية لها قيمة كونية كبرى تستدعى طول الصبر ـ معقولاً أو غير معقول ، وتستدعى الاعتياد على التكرار واحتمال الأملال وعربدة غير العقلاء ، فضلا عن تحمل مخاطر غير متوقعة يبرر تحملها أن تقع بآخرين !

هذا بينما قيمة تلك الأعمال بسالبها وموجبها ، قيمة محدودة من حيث المعقولية والاعتياد على تنميتها ، فضلاً عن أن طول العهد بتلك المهام وقوالبها بغير انقطاع منذ خلق الآدمى إلى الآن ـ قد غرس فى الإناث بعمق ، اهتمامات لا تبالى بالمعقولية وصارت تميز جنسهن وينفردن بها أو كدن ينفردن عن عموم الرجال ، كالالتفات والاهتمام المبالغ فيه بجسم الأنثى وقوامه وأجزائه وحركاته والتلويح بجماله أو بمفاتنه ، والاهتمام بالزينة الخارجية فيه وفى إيقاعه وحركته ، وفى درجات الصوت ومخارج الأصوات ، وكالاندفاع فى الرضا وفى الغضب وكل ما يحتمل أن يسر أو يحزن ، وكخلط السوابق والعواقب فى الإحسان والإساءة ،

وكالإســراع فــى الحكــم تعجــلاً بغير تثبت بل والاندفـــاع إلى تنفيذه ، مع قدر ملحوظ من الميل إلى التقليد والمحاكـــاة ، وإلى الغيرة التى لم تفلح تراكمات العلم والثقافة والحضارة فــى نزعها من صفحة وجدان معظم بنات حواء !

والمعقوليــة التى تقصدهــا وتومــئ إليهــا هـــذه الكلمــات ، هــى " الفطنة " التى يلتزم بهــا البالــغ الرشــيد التزامــاً أخلاقياً فى كل ما يفعله أو يتركه وهو حر مختـــار ، وإلاّ تعرض للملامــة أو المساءلة .. هذه " الفطنة " شىء غير الذكاء الذى يقصد به توقد جانب أو أكثر من جوانب الذهــن ، وقد يكون الذكاء فى الكبير والصغـــير ، والذكــر والأنثـــى ، والرشيد وغير الرشيد ــ ومــع ذلك لا نجــد فى هذا الذكـــى أو ذاك وزناً أخلاقياً .. وقد يكون الذكى فطناً وقـــد لا يكــون فطناً على الإطلاق !..

والمدارس والمعاهد الحالية قد تنمـــى الذكـــاء وتوســع المعلومات وتعطى على أساس ذلك الدرجـــات والشـــهادات ، ولكن لا شأن لها بالفطنة أو بالمعقوليـــة التى تعنيهـــا هـــــذه

الكلمات .. بل قد لا تلاحظ الفطنة أو المعقولية في المتفوقين ، لأن الغايات من التعليم غايات نفعية بالدرجة الأولى في الغالب ، تستهدف تحسين المستويات الاقتصادية والاجتماعية والسعي إلى الترقي بين الطبقات أو الفئات ، ولا يقترن بالضرورة السعي للتعلم بالعناية بالتفطن وعناصره وغاياته !

وحين تضعف الفطنة ، سواء كان هذا الضعف في الإناث أو الرجال ، تميل بصاحبها إلى استسهال الخديعة مع النفس ومع الغير ، وتخفي ما تفكر فيه وما تفعله مما يحرص الآدمي على ألاّ يعرفه الآخرون لأتفه الدواعي ، بل لمجرد الأحلام والأوهام والخيال !..

لا تدرى الفطنة الضعيفة دور ووزن الواقع ، ولا أبعاد الخيال في قيادة الحياة المشوشة الخالية من أى تماسك لخلوها من كل الارتباطات الثابتة الوثيقة ! تقفز إلى أبعد النتائج وأخطرها قفز العصافير بلا أى ترددٍ أو تروٍّ أو تحرٍّ ، ولا تتحقق في قفزها من وجود أساس صلب لما طارت

إليه بدافع النزق أو لفت الأنظار أو الغيرة أو الحسد أو الغضب أو مجرد إساءة الظن والرغبة فى الاتهام !

تندفـع الفطنة القاصـرة أو الضعيفة إلـى تصديـق ما تستقر به النفس أو تشتهيه ، وما تردده الألسن أو تطالعـه الأبصار أو القراءات بغير تمحيص ولا تدقيـق !.. لا تبـالى بترديده أو إعادته مع إضافة ما تتصور النفس ضعيفة الفطنـة أنه يزيده قبولاً لدى السامعين ، أو يزيـد الإعجـاب بسعـة الإحاطـة والاطـلاع الذى تعرض به الروايات المـرددة .. وفيما يبدو فإن هؤلاء أكثر ولعاً بالكلام والترديد والإسهاب فيه من غالبية الرجال ، مع ميل إلى الحكايات والشائعات والسـير والوصفات والروايات ، لأن هـذا كلـه نحـل خيال الآدمـى فى أحلامـه منذ الدهـر الأول .. هـذه المادة كانت ولا تزال " الحاضنة " غير الظاهرة ـــ لمعتقدات ومصدقـات وعـادات الإنسان فى حياته وأساطيره وبدعه ومراسـمه ومواسـمه !.. عبر تاريخ البشر منذ بداية الخليقة إلى اليوم !!

منذ بداية الخليقة ـ تضيف الأمهات والمربيات والمرضعات والخادمات من السهولة والتيسير والتقريب وخلط الجد بالهزل والصحيح بالعامى ـ إلى أخطر قضايا الآدمى فى الدنيا والآخرة !

إن المزج والخلط الدائمين لازمان فيما يبدو لبناء النظم والحضارات ، مثلما هما لازمان لبناء الكائن الحى ولبناء كل شيء فى هذا الكون ـ ذلك تقدير العزيز العليم .

نداء الطبيعة والنسيان !

الصغار والنساء لهما قدرة هائلة على نسيان الأخطاء والديون أى الالتزامات والمسئوليات .. والصغار والنساء أكثر استعداداً للسعادة وحرصا عليها واقتناصاً لفرصها من الرجال بكثير . ربما لأنّ تذكر المسئوليات هم يضعف قوة الرغبة فى الحياة ، وهى مطلوبة للصبى لينمو وتنمو الحياة فيه ـ وللمرأة لتحمل الحياة الجديدة وتحفظها إلى أن تستطيع المحافظة على

نفسها بوسائلها هى . فنداء الطبيعة وراء سهولة نسيان الصغار والنساء للالتزام والمسئولية !

فكرة للتأمل !

الشخصية الإنسانية محصلة عاملين كبيرين : استعدادات ، وتراكمات ، والعلاقة بينهما علاقة صائرة لا تنقطع طوال مراحل عمر الآدمى ، تورى وتنبئ الاستعدادات بكمية ونوع وعرض وعمق التراكمات ، وتتفاعل التراكمات مع الاستعدادات تفاعلاً دائماً لا ينقطع ، تضيف فيه الاستعدادات أو تنخر فيها بقدر موازين ودقائق هذه العلاقة الدياليكتية التى تتراوح بين التأثير والتأثر .

لذلك فوهم كبير أن تعزى القدرات الشخصية إلى افتراضات تفرق تفريقاً تحكمياً بين الذكورة أو الأنوثة أو بين الشيخوخة والشباب أو أن تعزو شيئاً يديـن للشباب وتفقده الشيوخ أو العكس !

القراءة والمعرفة

قد يقرأ الآدمى كثيراً أو قليلاً ، وقد ينقطع عن القراءة أو يكاد ، ونحن نقرأ على مدى أعمارنا المختلفة ــ واجبا أو عادة ــ بلا شغف وبغير قصد التعلم والاستفادة الجادة الباقية .. وقد نقرأ كتباً كثيرة وكأننا لم نقرأها قط ، لأننا لم نحصل من قراءتها إلاّ القليل ، وهذا القليل لم يكن مصحوبا فى تحصيله بشوق شخصى ، ولذلك لم يثبت فى ذاكرتنا فنسيناه ! ولاعجب أن يعيد المدرس أو الأستاذ على تلاميذه وطلبته ما قرأوه مرات ومرات ، وأن يعيده هؤلاء بدورهم مرات ومرات ليجتازوا الاختبار فيه ، ولكنهم بعد ذلك ينسونه وينسون معظمه ، وكذلك قد يفعل المدرس والأستاذ نفسه فينسى معظم ما كان يعلمه إذا انتقل لتعليم فن آخر أو إذا فارق التعليم وانقطعت صلته بما كان يعلمه !!

في عصرنا يقرأ القارئ وهو غير مؤمن بقيمة المعرفـة كلها وأنها " قيمة مطلقة " في كل زمان ومكان عزيـزة عليـه وعزيز عليه الازدياد منها مادام حياً واعياً ، وأن منزلته فـي عين نفسه ترتفع باتساع ما يعرف عمقاً وعرضاً أو مسـاحةً .. إن القارئ يقرأ اليوم بغرض معين واستجابة لمصلحة حـاضرة ماثلة أو منتظـرة ـ فلا يأبه وهذا غرضه بكل ما لا يتصـل بهـذا الغرض وهذه المصلحة ، ولذا تنحصر جدوى القـراءة في حـدود هذا النفع القصير الذي إن تحقق تترخص الذاكـرة في نسيانه ونسيان القراءة التي أحوج إليها القارئ ، فإذا تبقـى من القـراءة بقايـا في الذاكـرة فإنهـا لا تلقى مـا يسـاندها من اهتمام أو عناية أو زيادة أو استحضار ، فتتوارى بدورهـا هذه البقايا في زوايا النسيان فلا يمكن تذكرها بـل ولا يتذكـر مرجعها !

وربما كان هذا سببا من أسباب عدم تكـامل وتسـاند المعارف لدى أي إنسان في زماننا .. فالإنسان الحاضر لا يهتم قط بمراجعة " قائمة حساب " ما يعرفه في أي وقـت مـن

عمــره كمـــا يهتم بمراجعة " قائمة عدد " ما لديه من كتـب ، أو حساب " قائمة " ما لديه من حسابات فـــى البنــك . فنحــن نستقبل المعارف ونودعها تفاريق بما يشبه استقبالنا ووداعنــــا للساعات والأيام والشهور والســنين .. هــذه كلــها نســتقبلها ونودعها وقد نحتفل بمناسباتها الدينية أو الموسمية أو الطقســية أو الكونية ــ على نحو تلقائى مبهم غامض قليــل أو محــدود الخطر لا يسمح بتساند وتكامل " المعارف " تكاملاً يمكــن أن نعيه وننميه ونرعاه ككــل ، ولا يسمح بدوام مراقبة اتصـــال عناصره أو مكوناته بعضها ببعض وتصحيح بعضها ببعــض وتفاعل بعضها مع بعض ! .. ونحن نلاحظ فى أنفسنا وفـــى غيرنا انعدام هذا التكامل والتســاند فـــى " جــزر " معارفنــا ومعلوماتنا .. هذه " الجزر " تشبه أن تكون جزراً فــى بحــر بدائى داخلنا ، زاخر بالتيارات الاعتقادية والعاطفية المختلفة .. فتلك الآلاف المؤلفة التى بيننا من حملة المؤهلات والشــهادات فى مختلف العلوم الطبيعيــة والفنــون والعلــوم والصناعــات والحرف ، والآلاف المؤلفة من المثقفين والمقودين والمفكريــن

والمتصدرين للقيادة والسياسة والإدارة ــ هى آلاف لمفــــردات آدمية يزخـــر كل منهـــم بالتيـــــارات الاعتقاديـــة والعاطفيـــة المختلفة ، فيه عدد يكثر أو يقل من " أجزاء " المعرفة .. قـــد يتصل بعضها ببعض لمصلحة ، ولكنه لا يغير ولا يحـــاول أن يغير من ذلك البحر لا نوعاً ولا حجماً .. وقد ساعد هذا وشجع على الاندفاع نحو جوانب من المعرفة وانحصـــــــر أو حصـــر الاهتمام فيها لا يتعداها ، وجرى هذا بصـــورة مذهلـــة فـــــى القرنين الأخيرين ، فتنوعت العلوم والفنون إلـــى مـــا لا يكـــاد يحصى ، وأمعن كل منها تعمقاً ودقةً فـــى فرعـــه أو ميدانـــه وأساليبه ، وفـــى تحديد تخومه وتخصصاته ، وكاد يفضى بـــها ذلك إلى " عزلة "عقيمة غير معقولة ، ثم أخذت بضغط حاجـــة المحاربين فى الحرب العالمية الأخيرة تتقارب وتتعاون ، وعاد عليها ذلك بنجاح كبير ظهرت آثاره فى التقنيات الحديثة التـــــى تمكنت من استخدام الطاقة الذرية والليزر والكومبيوتر وســـــفن ومراكب الفضاء والهندســـة الوراثية ، ولكن ذلك لم يؤد قـــــط إلى تساند وتكامل المعارف لدى الإنسان بما هوإنسان وانتفـــاع

عقله كله بما يعرفه من هنا أو هناك وتخليصه من ذلك البحـــر البدائى وتياراته الاعتقادية العاطفية المائجة داخل كل آدمـــى .. تنفصل المعارف إلى جزر تتلاطم على سواحلها تلك التيـــارات فى ذلك البحر المخيف ، فتهدد بتحويل تلك الجزر ــ بدلاً مـــن التضام لتكوين النظرة الكلية ــ إلى براكين ودمار لايقف فـــى طريقه شىء !

المجازات فى الفكر والعاطفة !

المجازات لها أصل فى طبيعة الفكر والعاطفة .. وهـــى طعام رئيسى لهما ، يكاد يكون نظيراً للحم والخضر والفاكهـــة والسكريات بالنسبة للجسم .. من هذه المجـــازات يســـتخلص العقل والفهم والروح ــ عناصر غذائية هامـــة جـــداً لبقائـــها ونشاطهـــا ونموها ــ مثلما يستخلص الجسم من طعامه غـــذاء لا يمكنه الاستغناء عنه !

ويتخلف عن المجازات كما يتخلف عن أطعمة الجسم ــ فضلات مؤذية للصحة ــ يحاول الفكر والعاطفة التخلص منها بوسائل بعضها طبيعى وبعضها مفتعل ، مثلما يفعل الجسم حفاظاً على الصحة ــ وهى صحة الوظيفة وأدائها واستمرار أدائها .

والمجازات ملحوظ فيها الميول التى على أساسها يعمل الفكر والعاطفة ، وهو أمر ملحوظ أيضاً وبنفس القدر من الأهمية فى أطعمة الجسم !!

والاستغناء كلية عن المجازات باسم الدقة أو من أجل الدقة فى أى مسعى إنسانى ــ أمر مستحيل !

والإنسان من قديم الزمان قد جعل المجازات موضوعاً لكثير من فنونه وصناعاته ، مثلما جعل الأطعمة موضوعاً لكثير من فنونه وصناعاته !

والإنسان من قديم الزمان قد جهل ويجهل حقيقة عملية تمثيل المجازات إلى غذاء للفكر والعاطفة ، كما جهل ويجهل حقيقة عملية تمثيل الطعام إلى غذاء للجسم !

فكرة للتأمل !

لسنا إلاّ ثماراً فى شجرة عجوز ، وسواء نضجنا عليها أو لم ننضج ، فكرنا أو لم نفكر ، عملنا أو لم نعمل ، تزاوجنا لإنبات أغصان وثمار أخرى أو لم نتزاوج ـ فإننا سنسقط ولابد أن نسقط وتتخلص منا هذه الشجرة العجوز التى نراها دائما بعيون " الثمار" لا بعيون " الجذور " ، ونقيم فيها أيام الثمار لا أجيال السيقان .. لا تحمل خشب الفروع والتواءها ، لا أعشاش الطيور وحفر الجرذان والهوام !

يستحيل أن نرى شيئا أو رأيا أو اعتقاداً أو ماضياً أو حاضراً أو مستقبلاً ـ إلاّ بعيوننا نحن ومن خلال أغراضنا ومصالحنا نحن ، سواء استعنا أو لم نستعن بأجهزة أو وسائل أو طاقات تزيد أو تصحح من كيفية إبصارنا أو طريقة رؤيتنا !

الحاضر وحفائر الماضى !

يستطيع المتأمل ، أن يلاحظ بلا كبير عناء ، أن غالبية ما معنا حتى اليوم من المعارف أو من العادات ، يشكو القـــدم .. وللقـــدم فينا وفى آبائنا بل وفى أبنائنا آثار مئات من القرون تناقلتها الأجيال العديدة بعديد من التصورات والصيغ والإضافة والحذف .. ويبدو أن رسوبها هذا العميق فى وعى وعواطـــف البشر ، يكاد يتأبى علـــى التغيـــير ويســـتحيل علـــى التقويـــم والتصحيح !

فقد يبدو أن فى فطرتنا الكذب ــ فنحن نكذب للإيـــذاء كما نكذب للإخفاء كما نكذب للكسب كما نكذب لمحـــض الأذى والشر كما نكذب للزهو والافتخار . وما نسميه الكذب ليس إلاّ طائفة من قدرتنا المشتركة النظريـــة علـــى التخيـــل والتوقـــع واستعمال ملكة الكلام ــ وهى قدرة ملازمة لحياتنا الواعية فى معاملتها لاحتمالات حياتنا ، وكلها احتمالات قابلة آتية تتوالـــى بغير انقطاع من مولدنا إلى أن نموت ، وكل منـــا لا ينقطـــع

انتظاره وتطلعه في نومه أو يقظته لشيء سيحصل قريباً أو بعيداً على صورة أو أخرى يتعجلها قد تقع وقد لا تقع .

والكذب يتميز عن الاندفاع والمجازفة وسبق الأحداث ــ أنه كذب معنى ومشمول بالقصد ، فالكاذب يختار ما يعتقد أنه غير صحيح ليقدمه لمن يكذب عليه أو عليهم ، على أنه واقع أو في طريقه لأن يكون واقعاً ، إما بدافع الرغبة في الإعلان عن نفسه ، أو تحت تصور أنه يرضى السامع ، أو من باب المباهاة والمفاخرة .. أو باعتباره نوعاً من الحسد للمكذوب عليه ، وإما يكون الكذب بقصد إنزال الأذى والشر بالآخرين بضغينة يحملها الكاذب عليهم أو ربح يطمع فيه من وراء كذبه !

ذلك على حين أن المجازفة أو الاندفاع إلى التأكيد والقطع من غير روية أو بحث ــ يكون خالياً من ذلك القصد أو التعمد ، ولكنه ليس أقل ضرراً ولا أضيق رواجاً في الجملة ، وهو أسرع وأوسع خطراً في العدوى والسريان والانتشار إزاء افتراض سلامة النوايا وحسن المقاصد ، يساعد

على ذلك إرتفاع الأصوات وكثرتها الكاثرة وسهولة اندماج الاندفاع والمجازفة فيما يتناقله الناس وتتوارثه الأجيال !

فبات فى خامة الآدمى إلى اليوم الكذب والاندفاع والمجازفة ، وبات لهذا كله ــ فى تراث البشر ومألوفهم وأعرافهم وعقائدهم ومصدقاتهم ــ أصابع ليست قليلة ، لم يتهيأ لتقويمها وتصحيحها على مر العصور ــ إلاّ علاج جزئى نسبى فى مكان دون مكان وحين دون حين .. ومن هنا كان تاريخ الآدميين مليئاً بالعثرات والنفرات إلى اليوم !

وبرغم ما بين البعض والبعض من تشابه فى المصدقات والعادات والأعراف ، إلاّ أنه نمت فروق عاطفية وفكرية عميقة جداً مازالت عصية على التسوية والعلاج ، وما زالت من مصادر الخصومة والعداوة قائمة بين الأفراد والجماعات .. وإلى الآن لم ينجح فى سيادة عالم البشر عاطفياً وعقلياً ــ أى من أنماط المعتقدات والمصدقات والأعراف بحيث يشكل وحده نمطاً لا تختلف فيه جماعة عن جماعة .. ويبدو أن هذا أيضاً له أصله فى اختلاف الظروف المكانية والزمانية

والمعيشية لكل جماعة وفى انفراد كل جماعة بما يسمى الآن تاريخها وإقليمها وتمسكها بهما على نحو يتصل عندها بكيانها نفسه !

فغالبية ما معنا حتى اليوم مازال يعانى من القدم ومن آثار العزلة ومن التعصب لماضى الجماعة وإقليمها باعتبارهما الأساسين الرئيسيين لبقاء الجماعة اقتصاديا واجتماعيا واعية لذاتها حافظة لتماسكها ووحدتها .. ذلك أن مرتزق ودخل الجماعة يتوقف على نتاج وحصاد إقليمها المباشر وغير المباشر ، وأن البوتقة التى انصهرت فيها مصدقات الجماعة وأفكارها على الجملة هى حصيلة ما هو سائد فيها بشأن ماضيها وحاضرها من واقع وضائع ، ومن حقيقة وخيال ، ومن أمل وخوف !

يستطيع المتأمل أن يدرك من هذا الحكم أنه لم يخرج عن كونه اعتياداً مزمناً متوارثاً على التسليم بالخصوصية والانفراد والانعزال لكل جماعة فى بقعة الأرض التى عاشت عليها متى أحست بوجودها المتميز وعرفت واعترفت سراً

وعلانية باختصاصها بإقليمها ورسب فـــى أعماقــها واجــب الحرص على ذلك والمحافظة عليه بكل ما تستطيع .

جديد طارئ !

ويبدو أن شيئاً جديداً قــد طرأ فى أيامنا على دنيانـــا .. إذ بتنا نكاد نلمس ميل سكان عالمنا ــ إلى تغيير جذرى مـــن الانكماش القديم والتحوصل إلى الانتشـــار ، ومـــن التوجــس والحذر إلى الجرأة والانطلاق .. وصرنا نعتــاد علـــى رؤيـــة الأفواج من أهل الشرق الأقصى يقيمون فى أقصى الغرب مــن العالم ، وعلى رؤية السود والصفر وأبناء المنـــاطق الحـــارة والصحارى يتركون مواطنهم القديمة إلـــى أقــاليم البيــض ــ يؤثرون علىأقاليمهم الأصلية سكنى البلاد الباردة حيث الثلـــوج والصقيع . ولم تعد الأجواء والمسافات والتضاريس والوهـــاد والصحارى وشدة الحر والبرد وخوض البحـــار والمحيطـــات وتعقيد التكوينات والـــتراكيب والمجـــهريات وأنـــواع الطاقـــة وصورها ــ . لم تعد تنفر أو ترهب الآدمى أو تصده أياً كـــان

لونه أو أصل موطنه أو تلزمه بالبقاء فى مكان ما أو القنـــوع بما يجود به عليه موطن ، أو النظر نظرة المرتـــاع الخـــائف المتوجس إذا فكر في الانتقال من أقصى الأرض إلى أقصاها ، أو فى استعمال الطائرة بدلاً من الدابة للوصول إلى مـــا يريـــد ويقصد !

هـــذه الجـــزأة العامة التى فى طريقها إلى المزيد عـــدداً وكيفاً ـــ لا نظن أنها قابلة للانتكاس والانكماش ، وإن كـــانت قابلة لإبادة النوع البشـــرى نفسه .. فالآدميون الآن قد خطـــوا بالفعل خطى لا إمكانية ولا مكان للرجوع فيها أو الانســـحاب منها ، وإنما فيها إما مزيد من التقدم والتطـــور ، وإما نهايـــة تامة للنوع البشـــرى .. ذلك أن البشـــر وهم لا يشعرون قـــد تمردوا بالفعل على معنى الجماعة وفكرة الإقليم وبـــاتوا فـــى محيط العالمية وقبضة الاقتصاد العالمى التى قد تدمر الجميـــع وتخنق الكل . لأنها قبضة انفعالية دون أن تشعر .. قد توقـــظ فى عامة البشر اليأس والتشاؤم فيحلو التدمير والانتحار عنـــد الكافة ، وعندئذ لن تجدى ما حرصت بعض الـــدول الكـــبرى

على جمعه وحفظه فى أماكن آمنة من ثروات أو من مـأثورات العلوم والفنون والصناعات والمخترعات لمواجهـة التعـرض لتدمير ما هـو قائم ــ بفعل الغـارات والحـروب المهلكـة المحتملة !!

وتلك الخطوات نحو العالمية التى خطتـها جماعـات البشر فى أيامنا ، هامة وخطيرة إيجاباً وسلباً ، لأنها تسـتوجب من عموم الآدميين عملاً وفكراً توجبهما مقاصدهم وجـهودهم واهتماماتهم نحو المستقبل بسعته وسعة العالم ، وتخلصهم فـى الوقت نفسه من الاستغراق المألوف فى ماضى كـل جماعـة وظروف إقليمها المعهودة ــ اللهم إلاّ لمجرد العظة والمقارنـة والانتقاء . لأن الاستغراق فى ماض على نية الهدايـة وبقصـد الدراية والالتصاق والتشبث عبث كئيب وقعود يشبه الكسـاح وإضاعـة للأعمـار والفرص الثمينة تنتهى حتماً إلى ضيـاع أو هلاك .

لا مكان للركون للمألوف !

التفرغ للمستقبل بسعة وشمول يستلزم الحرص والاعتياد على اليقظة والعزيمة والاعتياد والمثابرة عليها ، أما الركون المألوف إلى التراخى والاستخفاف والاكتفاء بأقل مجهود ـ فنهايته المحتومة هى الفشل وتبعية الغير لدى آدميين يتحكم فى حياتهم اقتصاد عالمى فى طريقه إلى الاكتمال لا اقتصاد إقليمي موضعى يخضع لعوائد وعلاقات وأعراف ومصدقات وعقائد هذه الجماعة المعينة أو تلك . هذا الفشل هو المصدر الأساسى السلبى فى الخطى والتى يخطوها عالم البشر فى طريقه إلى الاقتصاد العالمى الذى لم يعد أمام البشر سواه ، والذى ظهرت أمارته وشواهده فى كافة بلاد العالم ـ فى أصوات وغوغاء السطحية المتدفقة المزعجة المصحوبة بالادعاء والغرور والعناد والتعصب والعصيان وبتفشى الغش والحقد وقلة الذمة وبكثرة ما نشهده ونسمع به صباح مساء من صور عدم المبالاة وقلة الاتزان والالتجاء إلى العنف

والإرهاب ــ مما تنقله عقب حدوثه إلى جميع الآفاق الوسـائل الحديثة البالغة التقدم للاتصال والإعلام المرئـي والمسـموع والنشر بكافة لغات الآدميين ، وهو ما لم يعد فـي طـوع أى حاكم توقيه أو منع انتشاره فضلاً عن الحيلولة دون استقباله !

ثم إن ذلك الاقتصاد العالمى أياً كان ، هو نظام بشـرى كباقى أنظمتنا الواعية يعتمد على قواعـد وعموميـات بيـن الآدميين يركنون إليها زمناً يطول أو يقصر، لأنها عند التـأمل ليست إلاّ محطات يقف ويرتاح عندها الآدميون فى مسـيرتهم المفروضة عليهم التى لا تنقطع ما دام الجنس موجوداً ، وهـذه الاستراحات تزخر دائماً بالأحلام والآمـال والعواطـف التـى تدعـو غالبية البشر إلى التعلق بها بدرجات مختلفة برغم قلـة أو انتهاء جدواها عليهم لو أفاقوا وفطنوا إلى بطلان قواعدهـم وعمومياتهم القديمة ، وذلك دائماً فرع على تغير الظروف التى لم تعد تصلح للاعتماد عليها فيها ، ثم هم لا يلْبثون مع ذلك أن يركنوا إلى مثيلاتها على عقيدة أنها هى الأصح أو أنها عمـل أجدى وأنفع فى ظروف زمانهم !

ثم ما زال الاقتصاد العالمى فى بداياته التى وضحـــت وضوحاً جزئياً بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية ، وهى كمـــا قلنا لم تخرج عن كونه نظاماً بشرياً غير مسبوق سيبقى أمـــده طويلاً مثقلاً بأحمال لا أول لها ولا آخرمن التقاليد والأعـــراف والعادات والعقائد والتعاليم والوطنيات والأقليـــات والكيانـــات سياسية واجتماعية وأخلاقية .. كل مـــن هـــذه المصطلحـــات عنوان لفروق جمة متوارثة عميقةالجذور فى النفوس مرتبطـــة من قديم باللون والأصل والمولد والجماعة والتـــاريخ والديـــن والملة والتوطن ، وإذابة آثار كل هذه الفروق تحتـــاج حســـب تقديرنا الآن إلى أحقاب من المعاملات والممارسات المتواتـــرة تزيد باستمرار إمكانات وفرص نجاحها وجدواها بوضوح لعين الآدمى العادى ، كما تستلزم اطّراد أزمنة الأمان والاســـتقرار ورجحانها بشكل ظاهر ، على واقع الأزمات والقلاقل والفتـــن والثورات والحروب ، بحيث يبقى فى ذهن الآدمى العادى على

الدوام أن السلام هو القاعدة ، وأن الاضطراب مجرد عارض استثنائى يعترض مسيرة القاعدة دون أن يكذبها !

ومع التسليم باستحالة إزالة الفارق أو الفوارق بين الإنسان العادى وبين النابه ، إلاّ أن تضييق الفوارق بينهما أصبح هم كل حكومة يقظة ، وهذا هو أساس اهتمام الدول قاطبة بنشر التعليم والمتعلمين فى ربوعها وحرص معظمها على التخلص من الأمية بين رعاياها وتشجيع المنافسة علَى ذلك بإشراك الشعب كله غنيه وفقيره ، حضره وريفه ، ذكوره وإناثه ، فى مساعيها الثقافية والفنية العامة .. يجرى ذلك ويستمر فى الجريان برغم أن هذه المساعى وما أنفق فيها من جهود وأموال طائلة لم يمكنها من القضاء علىنزق وغفلة واندفاع وموجدة وسطحية ملايين القارئين الكاتبين كثيرى الكلام والاعتراض والجدل المترددين على دور الكتب والمجتمعات والنوادى ودور السينما والتمثيل ومعارض الفنون والعلوم المثابرين فى وسائل الإعلام المقروء والمرئى والمسموع . كأن هذا كله مراهقة ليس منها بد فى انتظار

النضج الذى يتوقعه الصابرون المؤمنون الموقنون .. وربما كانت هذه المراهقة وقتية ـ بالقياس إلى ما سبقها وما سيتلوها ـ ستستنفد طاقاتها فى حقبة أو أكثر إلى أن يتم النضج لدى غالبية الناس ، فيتم النظام الاقتصادى العالمى ويستوى على ساقه وينسى ما كان يهدده ويعترض مسيرته ويأتى أكله وكلها خير وبركة لأبناء آدم جميعاً .

أعمار الجماعات والأفراد !

غالبا ما تنسى الجماعات لأنها أطول أعماراً من الأفراد ـ .. غالبا ما تنسى معاناتها لشدائدها ومآسيها وما شملته من هلكى وعاجزين ومشردين ضائعين ومن دمار للعامر وتخريب للجليل المأثور .. تنسى ذلك الشقاء الهائل فور إفاقتها وإحساسها العام بتحسن حالها وهى تستر هذا النسيان الطبيعى بإقامة النُصُب أو الاحتفال بالذكرى أو بتشييد الجديد من المؤسسات على اسم الضحايا الذين لا يكاد يذكر أشخاصهم ذاكر !

بيد أن الجماعات البشرية لا تنسى أمجاد الحـــروب ، لأنها تذكرها على الدوام بضرورة الدفاع والاستعداد لـــه ودوام وجود من يتخصص لهذا الاستعداد من الآدميين ، وخلف ذلــك دائماً نجد حرص غالبية كل جماعة على بقائها واستقلالها فـــى إقليمها الذى اعتادت عليه وصيانـــة مـــوارد شـــعبها .. هـــذه الإقليمية ما زالت إلى اليوم شاغلاً أساسياً للشـــعوب ، وهـــى ضمن العقبات الكبرى فى طريق النظام الدولى لاقتصاد العـــالم يهدد اكتمال سيادته مقام الاعتبارات الإقليمية والوطنيـــة عـــن وضعها الحالى الفريد . ذلك أن سيادة الاقتصاد العالمى تقتضى من غالبية البشر فى كل جهة من هذا العالم ـــ الالتزام بحريـــة الحركة والانتقال والاختيـــار والتعـــامل الموافـــق للقواعـــد والمعايير المتعارف عليها عالميا ـــ لجميع البشر فـــى جميـــع الأمكنة مواطنين وغير مواطنين بغير التفات لأى اعتبار آخـــر سوى سلامة التعامل دولياً .

وسيادة النظام الاقتصادى الدولـــى إذا تمــت ســتجنب البشر بعامة معظم دواعى الخلافات والأحقاد والحروب ، وهو خير عظيم لجميع الناس ينجيهم من ضرورات الإذعان لدواعى الاشتراك فى الفتن والصدام والحرب ، مع التسليم بأنه ســيبقى بعده بين أفرادهم جانب بسبب الأنانية والمنافسة وإساءة الظنون والحسد وغيرها من أنواع الخلافات والخصومات التى ترجـــع لتعلق الآدمى " بالذات " أو " الأنا " وانحيـــازه لـــها برغـــم علاقاته وروابطه بغيره مهما اتسعت !

وسعة واقع الاقتصاد العالمى الآن وسطوته وقبضتـــه التى تكاد تمسك بكل جماعة وكل دولة وكل إقليم كبر أو صغر ــ ماثلة لكل عين تريد أن ترى وتعـــى وتفهــم مـــا فيه ممـــا بـــات عالمياً ولم يعد محلياً أو إقليمياً .. تراه فى كثرة البنـــوك ودور المال والأسواق المالية والبورصـــات الخاصـــة بالنقـــد أو بالأسهم والسندات أو بالحاصلات أو بالبترول أو بالمعادن ، وفى مراكز التجارة والتبادل والنقل والموانئ والمطارات ودور التأمين وحركات الاستثمارات والصادرات والواردات الهائلـــة

الخارجية التى لا تتوقف فى ليل أو نهار ، وتــراه فــى عــدد وضخامة المصانع والمعامل والوكــالات وشــركات التــأمين ومكاتب الوساطة والخبرة والدعاية والإعلان والأنباء وشبكات الاتصالات العالمية سلكية ولا سلكية الضخمــة الفائقة الكفايــة التى لا تهدأ فى ليل أو نهار كذلك .. هذا كله وجـــد ويوجـد لسنوات ومنذ سنوات دون أن يشعر الآدميون بأنه يميز ويغـير كل يوم محيطهم ومستقبلهم ، فلم يعودوا قادرين على فداحــة العودة إلى العيش فى ضيق الإقليمية بعيداً عن العالمية وعـــن اتساع تركيبها الفخم الضخم وإمكاناته .. هذه الإمكانات التـــى ليس لها حدود فى تقدم الآدمى وتطوير حياته ومسارها الـــذى انفتح الآن إلى غير نهاية إذا احتفظ الآدمى بفطنته ولــم يــهدم بحماقاته فى لحظات خبل ــ جميع ما بناه بمواهبه وإلهاماتـــه وجرأته وإصراره ومثابرته !

والعجيب أن ذلك النظام الهائل الضخم الفخم لــم يقـم بتدبير حاكم أو حكومة ، بل قَــام تدريجيــاً وتلقائيــاً بــرؤى ومنارات ومشاريــع بعض الأفــراد هنــا وهنــاك .. هـؤلاء

لم يحلموا بأكثر من الزيادة فى الخـــير مــن فــرص التبــادل واتساعه ، ولذلك لا يكاد يجمع شتات ذلك الاقتصاد العـــالمى الشامل قوانين محلية أو دولية مدونة إلاّ أقــل القليــل لــردع المختل والمتعصب والمخرب والضـــال والغــاش والمــزور والمفسر .. فهذا النظام الشامخ قائم أساساً وسيظل كذلك لأمـــد ــ على احترام الأعراف والاتفاقات وعلـــى الثقــة والائتمــان اللذين لا يعوض عنهما التشريعات والجزاءات ، ولذلك اشتملت معظم الاتفاقات والعقود الخارجية ذات الطابع الدولى المبرمـــة بين الشركات والمؤسسات وبعضها البعــض أو بينــها وبيــن الأفراد أو بينها وبين الحكومات والجهات الرسمية على شــرط مكتوب بالالتجاء عند الخلاف الذى لا ينتهى ودياً ــ إلى حكــم محكمين مختارين يكون حكمهم نهائياً تفاديــاً لبــطء وتكــرار درجات التقاضى العادى وكثرة النفقات فى الالتجاء إلى القضاء المحلى فى بلد الخصم المدعى عليه ، وقد أنشئت لذلك مراكــز دولية متفق عليها لهذا النوع من التحكيم مثل محكمة التحكيـــم الدولية بالغرفة التجارية فى باريس ونظيرتها فى استوكهولم ــ

علماً بأن أحكام المحكمين مفترض أنها نهائية وهي تقابل بالاحترام والنفاذ فى كل بلد متمدين أو فى طريقه إلى التمدين ما لم يكن إلغاؤها فى أحوال استثنائية مقرراً فى قانون بلد التنفيذ .

* * *

مهما تعددت الإمكانيات والآليات ، فإن السيطرة على الاقتصاد العالمى أمر محال ، هذا ولظهور أعراض غير مستحبة بل مخربة للاستثمار بالأسواق الأجنبية وإغراقها بنواتج بعض البلاد مع حماية أسواقها هى من التعرض لمثل هذه الانتهازية البعيدة عن الإنصاف ـ كثرت فى السنوات الأخيرة صيحات الدول الكبيرة بضرورة وقف هذا النوع من السياسة الاقتصادية لحدود متفق عليها فى اتفاقات تلزم أطرافها ، بحيث تتعرض إما للأخذ بالثأر وإما للتعويض عند الخروج على الحدود المتفق عليها .

ومشاكلنا كلها ترجع فيما يبدو إلى أن أفعالنا فى الغالب – بدايات فكر وليست نهاياتـــه ، فأفعـــال البشـــر وقراراتـــهم يعاصرها أول الأمر وفى أكثر الأحيان حماس الجـــرأة وحـــب التجربة والمغامرة .. وهذه بدايات فكرية وشعورية معاً غــــير محققة لم يشهد الواقع المستمر المستقر بسلامتها ولم ينته الفكر إلى مداه فى شأنها – ذلك لأن النهايات الفكرية أحكـــام علــى واقع لا على فروض وأمارات وبوادر ومقدمات ومحـــاولات ومشروعات ، بينما الاقتصاد العالمى بوضعه الحالى مـــا زال يعبر بدايات وتتكشف للآدميين مـــع مـــرور الوقـــت مزايـــاه الضخمة ومخاطره الهائلة مما يحتاج باستمرار إلى المواجهـــة والمعالجة واليقظة والتعاون الجاد بين جميع المشاركين كبـــاراً وغير كبار – إذ يستحيل أن يعهد بصيانة الاقتصـــاد العـــالمى والسهر عليه إلى دولة أو مجموعـــة دول بعينـــها معرضـــة للانحياز إلى مصلحتها أو مصالحها هى بالذات بغـــير اهتمـــام جدى بمصالح باقى الجماعات الأخرى وحقوقها فى الاســـتفادة أيضاً من مزايا وسعة ذلك الاقتصاد الـــذى ينبغـــى ألاّ يكـــون

صورة جديدة لاستعباد أو استغلال أو الإفقار أو الحيلولة بين فريق من الآدميين وبين فرص ترقيهم وتطورهم .. فالتقسيم السائد اليوم ــ بين الدول المتقدمة أو الكبرى ، وبين دول العالم الثالث ــ لا يمكن أن يدوم ، لأنه لا يتفق مع مسار نجاح الاقتصاد العالمى ، إذ يستبقى أبغض معالم التعلق بالإقليمية والتصاقها غير المعقول بمصالح الإقليم والجماعة وأحلامه القديمة التى لم يعد يقبلها تطور الإنسان الذى يرفض أن ينظر أى آدمى من علٍ إلى آدمى آخر تبعا لانتمائه إلى بلد غير كبير ، أو إلى حضارة أو لغة أو سحنة مختلفة !!

على أنه يجب ألاّ يغيب عن بالنا أن كل اقتصاد وكل سياسة وكل إدارة ونظام وتكوين وقومية ووطنية وعقيدة وديانة ــ تبدأ وتنتهى دائماً بالتعامل مع الأفراد الذين لكل منهم ذات متميزة .. وطباع الأفراد وأطوارهم وردود أفعالهم ومشاربهم وأعرافهم وأخلاقهم وعاداتهم وأفكارهم وأهواؤهم وميولهم منها ما ينعكس حتماً على تلك العموميات ويؤثر فيها بقدر يقل أو يزيد كما يتأثر بها ويمكن أن يغير

مسارها كما تغير مساره ، وهذا هو قدر البشر الذى يجتهدون فيه من أول الدهر ويسعون إلى تفهمه والتفاهم معه بنجاح نسبى فقط ! .. فنحن جميعاً بالغا ما بلغ رقينا وتطورنا فى المجموع ــ معرضون لنكبات مؤكدة إذا حصر كل منا همه فى ذاته وحدها وما يعتقد أو يتصور أنه متفق مع مصلحته أو هواه أو أحقاده أو أطماعه . وسيظل السؤال قائماً ينتظر الإجابة الصحيحة : هل يمكن أن يشيد البشر أنظمة يحترمونها بجد وغيرة على الدوام ؟ وهل يجيء يوم يفترض فيه عموم البشر أن كل تغيير فى نظام أو قاعدة أو مبدأ أصبح ملزماً للعموم من الأفراد بالاعتياد أو بالاتفاق لا يجوز أن يتم إلاّ بموافقة صحيحة من غالبية الناس بعد رؤية خاصة فى المعاملات الدولية وحقوق الإنسان ؟ ..الإجابة الصحيحة صعبة ــ إن لم تكن مستحيلة ــ مع كثرة الجهل والجهلاء بين الآدميين ، إذ تدعو شدة الجهل ــ العاقل الفطن إلى إهمال رأى الجهلاء ، وهذا هو ما وطد النظم الاستبدادية للحكم من أول الدهر فى الجماعات ، وهو هو الذى أدى إلى فشل نظم الحكم

حالياً فى غالبية الـدول التـى تتصـف شـكلاً بالديمقراطيـة والديمقراطية البرلمانية برغـم أن هـذا الفشل لم يثقل حاليـا ولا يمكن أن يثقل كفة الحكم الإستبدادية الـذى يسـنده كـثرة الجهل والجبن أو كثرة الكسب والنهب كما حدث ويحدث فـى البلاد الحديثة العهد باليسار بعد طول افتقار .. حيث يشتد فيـها التهافت على الاقتناء والاستمتاع ، ولا يلتفـت أكـثر النـاس لغيرهمـا ، ولا لما يفـوز به الحكـام وأسرهم وما يبددونـه بلا رقيب أو حسيب ، إذ الشعـور العـام بالسـعة واليسـار الطارئ يضعف الإحساس بالحاجة إلـى النظـام والاقتصـاد والتدبير وتقديم الأهم على المهم والعام على الخاص والأخـص والدائم على الوقتى العرضى !

ويبعد فى جيلنا أن تتخلى الدول الكبرى والكبيرة عـن الإحساس بتميزها الذى يجب فى نظرها أن يخولها صوتاً أعلى وإرادة أقوى فى السلم والحرب والسياسة والاقتصاد الدوليين .. كما يبدو أيضا أن الدول الأخـرى لا ولـن تتخلـى عـن شعورها الدفين العميق بمقت ذلك التميز وتوابعه ، ولا عن أن

تتخلى عن اعتيادها إسناد جميع مشاكلها العامة من افتقار أو تأخر أو متاعب أو أزمات إلى ذلك التميز الممقوت .. ومعنى هذا أنه يستحيل إلى اليوم أن تتحقق وحدة خالصة مخلصة بين أهل الأرض فى ظل الإحساس بتميز المتبوع وحقد التابع وتبعيته !! أو فى ظل إغفال أن البشر لكى يتحقق لهم ترقيهم كواقع دائم ـ يجب أن يتحقق لهم تآخيهم فعلاً لا اسماً مع نسيان الفوارق الخارجية وانعكاساتها على عقولهم وضمائرهم ونفوسهم !!

آلامنا الحاضرة ورؤيتنا لمآلنا !

إن آلامنا الحاضرة تنسينا آمالنا ورؤيتنا لمآلنا ـ ومع تلك الآلام نوزع ألوان الغضب واللعنات والعداوات على هذه أو تلك من الجماعات الأخرى ممن نظن ـ مخطئين أو مغالين ـ أن لهم دخلاً فى تلك الآلام .. وذلك دون أن نلتفت إلى ما هو نصيبنا من أسباب شقائنا بدايةً ونهايةً لأننا ننتظر من الغير أن يكون مثالاً للعقل والصبر وصدق الوعد

والاستعداد للمعونة والخدمة ـ وللإنصاف والاتزان والاستقامة ، ولا ننتظر من أنفسنا مثل ذلك ! .. ولو انتظرناه من أنفسنا وطالبناها به لاستقام أمرنا وأمر غيرنا ، ولما شقينا وشقى الآخرون بسبب الحماقة وقلة الصبر وإخلاف الوعد والعهد والبخل بالمعونة والخدمة ـ والبعد عن الإنصاف والاتزان والاستقامة .. فالكبار والصغار من جماعات الآدميين وأفرادهم يرجع ما هم عليه من تضاد فى الغنى والفقر والاجتهاد والكسل والصبر والقلق والعلم والجهل والاتزان والخرق والإنصاف والظن ـ إلى ما هم عليه من الأخلاط والاختلاط وامتزاج المزايا والعيوب سالفة الذكر بنسب تختلف باختلاف الجماعات وأفرادها واختلاف عهودها وظروفها وأزمنتها وأمكنتها ، وهو اختلاف لا يتصورأحد الآن إزالته ، إنما من المتصور والمأمول مع تضافر الجهود والنوايا ـ نقله من حالته الراهنة المثقلة بالعشوائية والأنانية والوهم والتعصب والعناد والجهل ـ إلى حالة أكثر فطنة ووعياً وفهماً واتزاناً

ومثابرة واجتهاداً وصبراً مليئاً بالأمل فى الوصول إلى ما هـــو أفضل وأكثر إنسانية وعدلاً فى يوم ما ليس بعيداً .

ومن قديم الزمان جرى البشر بعامة على أن يذكـــروا بمرارة سيئات الآخرين ناسين سيئات أنفسهم ، وهذا من أسباب التأخر العصية على العلاج فى ماضيهم أو حاضرهم .. ولـــو أنهم التفتوا إلى ذكر حسنات الغير ومزايـــاه وإلـــى محاولـــة محاكاتها بجد وإصرار ــ لتغيرت أحـــوال جميـــع النـــاس ، ولبلغوا فى عمومهم من الترقى والتقدم أضعاف ما هـــم عليـــه الآن .. وقد حققت شعوب شرق آسيا شيئاً كهذا فى الســـنوات الأخيرة ، وباتت مصنوعاتهم تنافس منافسة حامية إنتاج الـــدول الغربية فى بلادها وفى الأسواق الخارجيـــة ، لأن الاجتـــهاد المنتج ــ المبنى على بدايات من المحاكاة والتقليد ثم الانتقـــال منها إلى الابتكار والسبق ــ يطفئ حتماً نار الحقد والعداء التـــى هى وقود حيرة وحاجة العاجز المنتظر لمعونة الآخرين ، وهى معونة لا تزيل فاقة الكسلان أو خمول العاجز الـــذى لا يكـــره

عجزه ولا ينمي قدراته على العمل بينما ينمي أحقاده وشكاواه واتهاماته لزمانه وأهل زمانه !!

ويبدو أن الجماعات البشرية لا تستوى فى القدرة على العمل الطويل المجهد والانكباب عليه واحترامه ، فوجود هذا النوع من الآدميين فى جماعة أمارة على قوة تكوين وتركيب أفرادها بغض النظر عن حالة الجماعة الراهنة من الفقر والغنى والتفاخر والتقدم ، فإن كانت فقيرة ومتأخرة ، فهى لا تنتظر إلاّ المرشدين المخلصين ليرى العالم منها نواتج قدرتها غير العادية على العمل والانصراف إليه ، وإن كانت غنية فغناها لا بد باق ما دام لديها مثل هذا النوع من اليد العاملة .. والذى ينضم إلى مثل هذه الجماعة ويعتاد عاداتها ومشاربها يصبح منها وإن كان غريب الأصل طارئاً ، ومن ينتقل منها إلى بلد اعتاد أهله قلة الجد فى العمل ــ يكون محط طلب وموضع إعجاب ، ويصبح متميزا على أهلها بمقدرته .. وهذا ملحوظ فيمن هاجروا من اليابان والصين وكوريا وفيتنام إلى الشرق الأوسط وبلاد الغرب .

فسيادة الاقتصاد العالمى إذا عمت وكملت لا يكون لــها في الواقع معنى إلاّ المساواة فى فرص العمل والكسب لجميـــع البشر وتجميع الأجناس على حسب قدرات ومواهب ومعــارف كل فرد ذكراً كان أو أنثى .. حينـــذاك وفـــى هــذه المرحلـــة المتقدمـــة جـــداً لـــن يكون الانتماء للوطن أو للجنس أو للـون أو للعنصر ــ له معناه الحالى ، بــل يصــير مجــرد معنـــى اجتماعى لا تأثير له على أبواب الرزق المنصفة التى تفتـــح للإنســان آفاقا لا محل فيها للتمايز بـــالأعراق أو الألـــوان ، وإنمـــا بالقـــدرة الجـــادة علـــى العمـــل المخلـــص المتقـــن ، وعلى صناعة الحياة !

القوة .. تلك المعشوقة المحيرة !

. محاولـــة رد الدنيا أو الناس إلى حضارة سابقة محليـــة أو إقليمية كائنة ما كانت ، نوع من الحلم والوهم والردة .. هذا ولا يمكن أن تؤدى إلى شيء باق . موجات وتيارات الاسترابة والشك والغموض واللبس ، أو موجـــات القلـــق وعدم الأمـــان والشعور بفقد الاستقرار التى يشعر بها الكثيرون فى زماننا .. إذ يستحيل أن يرد أبناء هذا العصر الذين ولدوا فيه وتشـــربوا من بحره ، إلى غير واقعهم وزمانهم ومكانهم ، لا فـــى عيـــن العقل ولا فى نظر التاريخ !!

على أن ما نشهده الآن من محاولات للتقارب والتعـــاون والاتفاق على رؤى ومخططات مشتركـــة ، اقتصادية أو مالية أو اجتماعية أو علمية أو تعليمية أو بيئية بين الدول الإســـلامية أو العربية أو الأفريقية ليـــس بـــالضرورة نكســـة وردة إلـــى الماضى المنصرم ، ولا هـــى جـــهود أو محـــاولات لرفـــض المشاركة فى الحضارة العالمية أو تحريض على الابتعاد عـــن

الاندماج فيها ، بل لعلها بالعكس صورة مختارة من صور تركيز الرغبة على إبراز وإظهار الاشتراك فى هذه الحضارة والانتماء إليها بالسير فى خطوطها العريضة الجامعة النافعة .

مثل هذه الرؤى والتخطيطات هى من معالم الحضارة الحالية ، وهى تبدى للعيون اقتناع المسلمين بأن دينهم ليس دين انكماش وعزلة وتعصب وتشيع لأهله ضد غيرهم من البشر ، كما تبدى اقتناع العرب والأفارقة بأن الانتساب إلى العروبة أو إلى الأفريقية لا يعنى تعصباً لجنس ضد غيره من الأجناس ، أو يعنى كراهية أهل قارة لأهالى القارات الأخرى ، إنما يعنى أولاً وأخيراً الانتفاع العاقل الفاهم بالصلات والروابط المشتركة الموجودة فعلاً وواقعاً ــ فى تنمية الاقتصاد والأمن العاملين على نمو وازدهار الوحدات القوية المشتركة فى تلك الصلات والروابط .. وهذا من المقاصد الأولى للحضارة الحالية التى يجتهد الكل فى وصفها بالعالمية .

ليست الحضارة التى تجمعنا الآن حضـــارة احتكـــار ، يبقى فيها الخامل خاملاً والجاهل جاهلاً والفقير فقــيراً ، لكــى يظل المتفوق متفوقاً وحده ، أو يبقى فيها المتعلم متعلماً بغـــير منافس ، والغنى غنياً دون أن ينضم إليه آخر كان مــــن قبــل فقيراً !

ولا ريب أن الاحتكار يصبح أشـــد مقتـاً وإضـــراراً وإمعاناً فى الجشـــع والأنانية والانتهازية حين يكون الاحتكـــار من جماعة أو طائفة أو طبقة أو دولة أو عدد مـــن الشـــعوب والدول ، لأنه عندئذ يكون أفدح امتصاصاً واستنزافاً واستغلالاً فى نهب وسلب مجاميع فقيرة غفيرة فى بلاد متـــأخرة قليلـــة الحيلة والقدرة على مقاومـــة ورد أصنـــاف النـــهب المنظمـــة المحكمـــة التى اعتادت أن تفترسهـــا من خارجها باســـتمرار وانتظام !!

وقولنا إن الحضارة الحالية ليست حضـــارة احتكـــار ، ليس معناه أن الاحتكار بصوره كلها غير موجود ، وإنما معناه أنه بات غير مشروع فى كل أشكاله فى البلاد التى لا يحكمـــها

حـزب واحـد .. فبلاد الحزب الواحد هى أساساً بلاد احتكـار من ألفها إلى يائها كائنا ما كان العنوان أو الوصف الذى تعطيه لنفسهـا أو لمنظماتها ومؤسسـاتها أو لشـرائعها وقواعدهـا ومبادئها !

ويبدو أن واقـع الآدميين مهما كان تقدمهم وترقيـهم ، لا يمكن أن يخلو من الأوضار والأشرار والأخطار ما دامـوا مرتبطين ملازمين لهذه الأرض .. وهم لذلك لا يستغنون قـط عن حاكم وحكومة وخضوع للحاكم والحكومة ، وهذا الخضوع حتماً خضوع من الكثرة العددية المشغولـة بالسعـى والكـد وراء أرزاقهـا ، تصحبه دائما " سلطة " أو " قوة " ممن يكون بيدهم هذه السلطة القائمة على النظام والتنظيم والأمر والنـهى والضبط والربط والثـواب والعقـاب ، وهـؤلاء دائمـاً قلـة يستخدمون أعواناً وأتباعاً وشرطة وعسكراً .. وهؤلاء بدورهم يصيبهـم بالضـرورة شيء من ذلك النفوذ إما من رؤسـائهم أو من أصداء ذلك النفوذ بعامة !

جذب السلطة والحكام !

وجذب السلطة الحاكمة لأنظار العامة ــ مشهود منذ عرف الإنسان معنى الحاكم والحكومة .. وهو جذب إما بهوى ابتغاء المشاركة فى الشعور بالتفوق مع المحظوظين بممارستها ثم بالترقى فيها اشتهاء للاستئثار أو التفرد بها أو البقاء فيها ــ وإما اكتفاءً بالاحتماء فى ظلها لاستعمال اسمها ونفوذها فى الفائدة أو النفع الخاص وإقناع العاديين بالتميز أو المنزلة التى اختص بها ذلك المنتمى إلى الحاكم أو الحكومة !

ثم إن التقرب أو القرب من الحاكم أو الحكومة ــ أياً كان لونه أو نوعه ــ هو فى ذاته قوة لصاحبه الذى ليس حاكماً أو تابعاً لحاكم .. هذا التقرب يحرص عليه الكثيرون ، خاصةً من يحرصون على أن يكونوا شخصيات عامة طلباً للأهمية والوجود فى دوائر يستعان فيها برأيها أو يسمع صوتها ، أو تسمح الأقدار يوماً ما بانخراطها فى الحكومة والحكم ، أو فى الحزب السياسى الذى منه الحكومة ــ فينفسح أمامها الطريق إلى المناصب وقضاء المصالح !

ودائما ما يلازم سلطة الحاكم ــ أى قوته الرســمية ــ قوة المتصلين به الناتجة من اتصالهم ، والمبنيــة علــى ذلــك الاتصال المتعدد الأسباب ..ذلك الاتصال الذى يجتهد أصحابــه فى المحافظة على بقائه ونمائه لأنه صار عنصراً من عنــاصر ما لديهم من قوة تميزهم عن سواهم من أفراد المجتمع !

وهذه القوى المتعلقة بالحكم والحكومة كلها فى الأصــل قوة اجتماعية صرف ، لكنها فى كثير مــن الأحــوال تتحــول أيضاً إلى قوة مالية تدخل فى حوزة صاحبها وتبقى معه بعد أن يفقد اتصاله بالحكم والحكومة فقداً تاماً .

ثم إن قوة الحاكم حتى وإن كانت ذات مصدر وراثى ، ليست خالية صافية من الأقلاق والهموم ، إذ يداخل صاحبــــها مع شعوره الغامر بالاقتدار والامتياز اللذين لا حدود لهما فـــى نَظره ــ .. يداخله ويلازمه إحساس لا يفارقه فى يقظة أو نــوم ــ بخطر غير محدود النوع علــى حياتــه وعلــى مركــزه ، لتصوره الدائم لملايين الأعين التى ترقب مكانته الفريدة وقـــد بات معها عزيزاً وَحيداً فى مقامه بعيداً بعداً هـــائلاً لا ســبيل

لنسيانه عن باقى الآدميين العاديين ! .. فقوة الحاكم مثلها مثل قوة ذى المال يمارسها صاحبها ومعها خوفه عليها وعلى نفسه ، منتبهاً محاسباً حساب ما يمكن أن يهددها !!

إذ لم يعط أى آدمى قط قدرات مطلقة وإنما منح فقط قدرات معها إحتمالات مضادة .. فترى أسرة الحاكم يلازمها بعد وفاته شىء من مكانته ، وقد يشعر به جمهور الناس على نحو ما ، لكنه يتناقص بمرور الوقت ويختفى تدريجياً نتيجة الالتفات إلى الحاكم الجديد !

والحاكم عادة يمد قوته ويقلصها وينفرد بها أو يشرك معه فيها غيره بحسب إحساسه بإمكاناته وتقديره لها وحكمه على ظروف البلد التى يحكمها وكثرة أو قلة أطماعه وشهواته ، وقلما يباشر الحكام سلطاتهم باعتدال وحكمة ـ لغلبة الميل فيهم إلى توسيع السلطة وإفساح مدة بقائهم على رأسها ، لأن ذلك إن كان مرتبطاً بنظام الحكم ـ إلاّ أن غالبهم لا يتحرج فى الانتفاع ببسط سلطانهم المادى والمعنوى إلى أقصى حد ممكن ، وقد يعرضهم ذلك للقالة العامة

وتفشيهـا ثم تطورهـا إلى إتهام يبدو فـى أول الأمر خافتـاً ثم يتردد على الألسنة والأقلام ! .. وقد يبقى الحاكم فى مركزه رغم ذلك بالاستناد إلى كـثرة إخوانـه وأعوانـه ونفوذهـم ، وهؤلاء يستغلون شدة احتياجه إليهم فى المزيـد مـن التسـلط والاغتنام كل على مقدار ما يتاح من ذلك له !

ولأن دوام الحال من المحال ، فإنه غالباً ما يحـرص الحكام على أن يكون لكل منهم تاريخ يسجل أمجاده الفعليـة أو المفتعلة ، وهم يدأبون على ذلـك ويصطفـون مـن الكتـاب والصحفيين والإذاعيين لنشـر وبـث وإذاعـة الآلاء وسـتر الأخطاء ، ولذا كانت تواريخ الحكام عادة مشـوبة بالانحيـاز المباشر المتعمد أو المشوه بالانخداع نتيجة الأخذ بمـا سـبق نشره وترديده وقت إقبال الدنيا !!

* * *

الرؤساء العاملون مع الحاكم أو فى ظله ضعفاء أقويـــاء فى آن واحد .. ضعفاء أصاغر فى الاتجاه الأعلى ، وأقويـــاء عتاة بالنسبة لمن تحتهم وللعامة .. فهم يمارسون فـــى وقــت واحد الضعف والقوة حسب الأحوال ، ولا يخلطون قــط بيــن هذين الوضعين المتقابلين .. وهم من هذه الوجهة أوسع حيلـــة وليسوا أقل شراً وخبثاً ــ إلاّ فى القليل النادر ــ من الأحــوال . وذلك لانتشار العدوى بين أولئك المتعددين الذيــن يرقبــون بعضهم بعضاً فى المنافع ، ويبالغون فى أحاديثهم عنها !

أما النفوذ .. فمصدره البشرى الصـــلات والقرابــات بالحكام والرؤساء والزعماء والأكابر ، وهو أكثر وضوحاً فــى حاشية الحاكم أو الوزير أو الزعيم وفى أسرته ، وكثـــيراً مــا يمتد الامتياز والتفضيل إليهــم تلقائيــاً من غير طلب صريــح أو ضمنى ثقة من صاحب اليد أنها ستعود عليه بالنفع العميـم ، وعند الاحتياج إذا طلب !!.. وكثيرا ما يدعى المدعــون ذلــك النفوذ بالباطل من بـــاب الاحتيـــال والاســتغفال والاســتغلال

لاقتناص مغنم ممـــن يريد أن يتقرب أو يتودد لدائـــرة الحـــاكم أو حاشيته !

وحين يكـــون لجنس مـــن الأجناس البشريـــة اعتبـــار عام فى بلد ما لسبب سياسى أو اجتماعى أو دينى ، يكون لأهل ذلك الجنس مكانة وكلمة وقوة تميزهم عمن ســـواهم .. ولـــذا يجتهد النصابون والمغامرون في ادعاء الانتماء لذلك الجنـــس أملاً منهم فـــى اغتيال الحقـــوق وكسب الحرام .. وكثيراً مـــا ينتحلون الأسماء والألقاب والأصول ورد الأجداد القدماء إلـــى أشراف البلاد المقدسة عند ذلك الشعب أو ذاك ، بل ورد أولئك المزعومين إلى قرابـــة الأنبياء وحوارييهم وصحابتـــهم وتيـــه هذا وذاك منهم بشجرة نسبه الزائف التى افتعلهـــا افتعـــالاً وأورثهـــا لبنيه وحفدته ليزعمـــوا بهـــا أنهـــم من الأشـــراف أو البكوية أو ما سوى ذلك من السادة الأقدمين ، اتصالاً منـــهم كاذباً بأصحاب القوى الروحية ومصادر النعمات الذكية وأركان الديانات والعقائد الذين غادروا هذا العالم من قرون عديدة جـــداً تاهت معها معالم أقاربهم وأسرهم على ذاكرة أحياء هذا الزمان

إلى غير رجعة ــ فما بين أيدينا من أنساب الأجداد الآن التـــى يمكن التعويل على صحتها يستحيل عقــلاً وفطنــة أن يرجــع باطمئنان إلى ذلك الماضى الأبعد .. ولعل من أكثر ما نراه من ذلك ما هو مدون على جدران الأضرحـــة العديــدة المفتوحــة الأبــواب لزيــارات آلاف المعتقديــن ونذورهــم وعطايــاهم وشكاواهم وسؤال مددهم ومعونتهم ــ وهذا عالم بأســره مــن الوهم ، أقامه الأحياء ويقيمونه إشباعاً لحاجاتهم الشــديدة جــداً إلى الرجاء والأمل والعون والمواساة والعزاء !

فنحن الآدميين نصطنع دون أن نشعر ما يشبع حاجاتنـــا الملحة دون أن نهتم كثيراً بصحة وواقع ما اصطنعناه مــــا دام كافياً صالحاً لمسيل عواطفنا وتدفقها أفراداً وجماعات ــ وغالباً ما يبنى فى طريق الضريح أو بجواره مسجد أو زاوية لـــيزيد صلاة المصلين من وثاقة ولايـــة صـــاحب الضريـــح ويزيـــد الضريح فى إقبال المصلين على زيـــارة الضريـــح واجتمـــاع المسجد مع الضريح فتح الباب لزيادة عدد الأضرحة بين وقـت وآخر يقصر أو يطول ، ويشمل الوافدين عندئذ إيمـــــان عـــامّ

واحد يجمع أهل الأضرحة جميعاً فتأخذ حالتنا الملحة المذكورة أوسع فرصها وإمكاناتها .

ومن قديم الزمان يُختار عمد البلاد ومشايخها في الريف من الأسر الكبيرة ــ اعتماداً على قوتها وعزوتها فضلاً عن استناد العمدة أو الشيخ لتلك القوة أو العزوة ، ولعل ذلك بقية باقية من نظام الحكم القديم حيث كان السلطان أو الأمراء أو الوالى يختار أحد كبار الأسر فى البلدة البعيدة ليحكمها باسمه ولحسابه . فالأسرة الكبيرة قوة والانتماء إليها قوة أخرى لصيقة بها دائماً فى الريف لا يعصمها افتقار الفقير عن الغنى واحتياجه إليه إذا احتاج !

ويبدو أن الأسرة تكون كبيرة إذا اعترف معظم أهل البلد بذلك لقدمها النسبى وكثرة عدد المنتمين إليها ووجود الأثرياء بينها ــ وعندئذ يحسب لها حسابها فى البلد ، ويحتمى بها الأصهار والأتباع ، وتربطها فى الغالب علاقات مودة برؤساء قوات الأمن وممثليهم .. وهؤلاء يعتمدون عليها مع أمثالها فى فض الكثير من المشاكل المحلية .

والغنى المنفرد فى الريف بزوجة أو أزواجـــه وأولاده ـــ يحتاج رغم غناه إلى حماية أسرة كبيرة ، لأن الثراء وحـــده فى الريف لا يستطيع أن يحمى نفسه ، إذ أهل الريف بخـــلاف أهل الحضر ـــ ينتصر بعضهم لبعض وخلافاتهم تنقلب غالبـــاً إلى خلافات جماعية تتواجه فيها الأسر والعائلات ، وهذه سمة بدائية ما زالت باقية برغـم تنافرها مـــع الإنســانية وحقــوق الإنسان ، وهى ـــ أى حقوق الإنسان ـــ من العقـــائد الحديثـــة المتحضرة التى تعاق وتتعثر فى طريق الأعـــراف والعـــادات المتوارثة البالغة القدم التى يحتاج تغييرها إلى تعديـــل وتغيـــير الكثير من أساليب الحياة السائدة لدى غالبية الناس !

فالبشر لا يتغيرون ولا يتطورون معاً بنفس الدرجة فى نفس الوقت على نفس المكان ، بل يتلاحقـــون فـــى التغيـــير والتطور.. هذا التلاحق متأخر دائماً ، ولكنه مستمر ويفصـــل بين متقدميهم وبين متأخريهم عادة سنون وأحياناً قرون ، ومـــن هنا لم تنقطع قط الخلافات فى المعتقدات والأعراف فيما بيـــن الناس . ولم يوجد بعد مجتمع بشرى متســاوى الحضـــارة ،

نقيهـا يحسن بعضه دائماً فهم بعض ، لا يسف ولا يتعصب ولا يتعادى ولا يتقاتل .. فالمجتمعات البشرية المتحضرة وغير المتحضرة عكرة مليئة للآن بأسباب القلاقل والفتن .. قد تبدو هادئة فى أوقات الرواج ، وتنقلب إلى عكس ذلك فى الأزمات والكساد ، لأنها لم تعرف بعد قيمة ضبط النفس ولا حساب المستقبل ولا الاعتدال فى الإنفاق والادخار .. فهى كمجاميع أشد ميلاً إلى مسايرة شهواتها وأهوائها وأكثر اندفاعاً إلى إلقاء أخطائها على غيرها ومساءلة الغير عنها !!

أسر الاعتياد !

إن غالبية الشعوب شديدة التمسك بما درجت عليه من سلوكيات وأحياناً من حماقات ، لكن تقدم الجماعة أو تأخرها يرجع إلى الأقلية التى تقودها ، فإن كانت عملية فطنة نشطة سريعة إلى الإقلاع عن الخطأ حين اكتشافه وإلى تحسين الأعمال ما وسعها ذلك ــ تقدمت الجماعة بتقدم تلك الأقلية التى تضطر الجماعة إلى تقليدها فيما نجحت فيه ، وهو تقليد

آلى إلى أن يصير مفهوماً ثابتاً مع المران والتعليم ـ لكنه فى الغالب ليس مصحوباً بنمو الفطنة النشط سريعة الإقلاع عن الخطأ ، ومن هنا فيما يبدو كان تعرض الأغلبية للاهتزاز والقلق مع بوادر الكساد والركود فى الأشغال والأعمال !

هذا وفى العادة يعتبر الآدميون التدبير من دلائل القوة ، يسرى ذلك على رؤية الفرد لمصالحه الشخصية ومصالح أهله ، مثلما يسرى على رؤية الشخصيات العامة من وصل منهم إلى الحكم أو من هو فى سبيل الوصول إليه .

والتدبير فى حقيقته انشغال وهمّ يركب صاحبه ويتجه به إلى طلب " القوة " بأى ثمن ، فإن وصل إلى مطلوبه بعد ما بذل من عمر وصحة ومال هان فى نظره وعز عليه إفلاته من يده بعد ذلك العناء ، أما إذا فشل فإن خيبته تكون أنكى وأمر !!

ولذلك أسقط كبار الصوفية التدبير من حسابهم تماماً تاركين الاهتمام بشئونهم الخاصة لله عز وجل ، وانصرفوا إلى الاهتمام بتقواه وعبادته .. لذلك توقف فى عصر تسيد

المتصوفة ـ نشاط العقل والفكر والعلم والمعــــارف الدنيويـــة والفنون والآداب ، وركد التحرك البشرى الواعى وقنع بالتسليم والاستسلام لقرون طويلة !! ، على حين أفاقت مـــن نعاســـها شعوب فى بلاد أخرى وفهمت وتدبرت ودبرت وبنـــت علـــى أساس ذلك الحضارة الحالية !

سراب القوة !

ثـــم مـــن معالـــم القـــوة التى يحرص عليها الآدميون إلى جانب " التدبير " ـ السمعة والصيت والاشـــتهار والاسـم والمكانة ، وهذه عناصر تتقابل وتجتمع وتتساند فـــى تكويـــن صورة الشخص فى عين الناس ورأيهم فيه ونظرتـــهم إليـــه ، وهـــى صورة يسعى المغرم بـــالقوة لخلقـــها وتنميتـــها هـــو ومريدوه ، مخلصين أو مخدوعيـــن أو مـــأجورين .. يكســـب ويكسبون معه بها ثقة الجمهـــور وتأييـــده .. والمـــــهم فيـــها فاعليتهـــا فـــى النـــاس لا صدقهـــا أو واقعهـــا المطابـــق لمـــا يعتقدون !!

القوة فيما يبدو كالسراب ، يرددها الآدمـــى ويتمناهـــا ، وقد يضيع عمره فى طلبها فى كافة صورها وأشكالها الماديـــة والمعنوية ، ويغرم بها غراماً لايدرك معه أن قيمته الحقيقيـــة فى نفسه وفى أعماقه ، وأن هذه القـــوة الحقيقية الكامنـــة فيـــه هى ملاذه ونوره وهاديه أيضا فى هذا الكون الـــهائل الفســـيح الذى لا ثبات فيه لشىء ، والذى يستغرق بصيرورته وامتـــداده السرمدى أعمار أجيال وحضارات دون أن يدرك أحـــد ســـره العجيب !!

الإنسان ، والكون ، والحياة !

الآدمي كله ــ بقضه وقضيضه ــ كــــائن مســتحدث نسبى .. لم يكن له وجود بتاتا ثم وجد ثم لا يعود له أي وجـود أو كيان ، وهو يستخدم فرضا يســميه الزمـان .. يسـتخدمه باستمرار ودون انقطاع استخداما يسع الذى كان منــه والـذى يكون والذى سيكون ــ وهو افتراض يسَّر له الوعى بوجــوده أى بوجود ذاته كقيمة فى عينه لا يشاركه فيها أحــد ســواه .. توجد هذه الذات مع وجوده وتنتهى بانتهائه .. يحس بأن لــها حاضراً صار ماضياً ومستقبلاً سيكون حاضراً ، ويتصــور أن يتكرر هذا فى المستقبل على صورة أبقى وأدوم فى آخرة لــه تجيء عندما يبعث من مرقده بعد الموت !

فإذا انقرض الآدميون وزالوا ــ زالــت معــهم هــذه النسبية الجوهرية والحية فى تصورنا الحالى ، وعاد الوجــود إلى خمود وجمود كما كان قبلنا !! وقد عرفنــا ذلــك معرفــة

جزئية فيما نسميه الحفريات والجيولوجيـــا وطبقاتـــه والأرض والأجناس المنقرضة وغير ذلك من المعارف !!

وهذا الإنسان : الكائن المستحدث النسبى ــ يكاد يكـــون مجهولاً جهـــلاً كليـــاً بالنسبة إلي ذاته ، فهو لا يعرف عنـــــها شيئاً حقيقياً سواء فى داخله أو فى خارجه ، ويغطى فى عينـــه الشعور بهذا الجهل المطلق بمـــا لا عـــدد لـــه مـــن الألفـــاظ والعبارات التى تيسرهـــا لـــه لغته فى جماعته .. فـــالآدميون منذ وُجـــدوا دائماً مضللـــون وهـــم لا يشعـــرون ، وشـــوقهم إلي ما يسمونه الصدق والحق والواقع ــ أمل ورجاء واجتـــهاد ومحاولة !

فبلايين وبلايين الأوهـــام التى عاشوا ويعيشون فيـــــها منذ أن وجدوا ــ لم يعرفوا حقيقة أمرها ولن يعرفوه ولا يهمهم أن يعرفوه ، وسيظلون يتداولونها ــ أو ما لم يأكلـــه النســيان منها ! ــ بنفس الثقة أو الأكادة !

وقد تقبل باقى الأحيـــاء ظواهـــر الحيـــاة بالتســـليم والإذعان التامين ، ولكن تميز الآدميون علـــى هـــذه الأحيـــاء الأخرى بتفطنه أحياناً إلى ما يسمونه الوهم أو ما يسمونه الحق أو ما يسمونـــه الكـــذب فى تلك الظواهر ، ثم بتفطنه أحيانـــاً إلي عدم الثقة والتشكك فى الانقياد إلي الاعتقاد وحده أو إلـــي الفكر وحده ، وإلى ضرورة إشراك شهادة الحواس فيما يقـــره ويقرره الفكر إشراكا دائما مستمراً لا ينقطع ، وقد اســـتوجب هذا دوام مراقبة الفكر ومراجعة وإعادة النظر فـــى مســـلماته بحكم هذا الإشراك أو الاشتراك .. وهذا هـــو أســـاس نجـــاح الحضارة الحديثة فيما نجحت فيه ، إذ جعلت اعتمـــاد الفطنـــة واليقظة على الالتحام الدائم المطّـــرد بيـــن ظواهـــر الواقـــع المحسوس وبين الفكر. وهو اعتماد تمسك ويتمســـك بـــه الآن خاصة الخاصة فقط وعلى درجات متفاوتة ، وهؤلاء يســـمون أنفسهم بالباحثين أو المشـــتغلين بالأبحـــاث فـــى المختـــبرات والمعامل والمراصد ومواقع الكشـــوف والأعمـــاق والتنقيـــب ومراكب الفضاء .. وبين هؤلاء وبين جمهور البشـــر فجـــوة

هائلة يتجنب عبورها كل فريق ليمتزج بالآخر .. ومن الغريب أن أصحاب تلك التخصصات ــ فيما عدا ما هم فيه متخصصون ــ يعودون تلقائياً فى الغالب إلى صفوف الجمهور ليتحدثوا حديثه ويشاركوه اندفاعاته وقل منهم من ينتقد تحركات الجمهور ويتصدى لمقاومة أهوائه .. وربما لهذا ونحوه لم يتم تحقيق الأمل الذى رجت قلة المفكرين أن يؤدى إليه التقدم المستمر فى العلوم والمعارف والاكتشافات والابتكارات مع اطراد حدوث ذلك وتزايد الممارسين له والمنتمين إليه !

ربما احتاج البشر إلى شىء جديد أقوى جانبية وأشد تسرباً من ذلك الزحف الهائل المكتسح للمعارف الوضعية ومنتجاتها الذى يكاد يشمل معالم حياتنا الخارجية لا يفرق بين جاهل وعالم وفقير وغنى .

يبدو أن مشكلتنا الأساسية كامنة فى أعماقنا ، هذه الأعماق التى تبتعد الآن أشد البعد عن العلاج الحقيقى وعن المعالجين الموفقين .. لأنها فى أشد الاحتياج إلى التغيير المبكر الذى بات أساسياً جذرياً وضرورياً لكى يجنب البشر

عواقب المخاطر التى ليس لها حدود والتى حملهم إياها ــ دون أن يشعروا ــ قبولهم لنواتج الحضارة الوضعية التـــى قبلوهـــا وامتصوها من غير أن يفكروا فى احتياجها الشـــديد للاتـــزان والتعقل والتأنى لتفادى خطورتها .. هذه الخطورة التى ليـــس لها آخر مع الاندفاع والعجلة والنزق الذى نرى عليـــه غالبيـــة الآدميين اليوم ، كأنهم قد فقدوا الاحتياج إلى الصبر والرزانـــة والتؤدة مع ما اكتسبوه من التحضر الخارجى الـــذى يدعونـــه ويحتجون به كلما ارتفع لهم صوت !!

وفى الحضارة الحالية سمة عامة تكاد تكون جديدة غير مسبوقة من قبل لم يعرفها البشر ــ وهي توسيع العالم المتـــاح لنشاطهم إلى غير حد ومحاولة تقديم دنيا جديدة لا حدود لـــها بدلاً من الدنيا المحدودة التى اعتادوهـــا .. دنيا جديدة ســـواء فـــى مداهـــا أو أبعادها أو إمكاناتها أو فرصهـــا أو معارفـــها أو معلوماتها أو وسائلها أو أدواتها أو أســـاليبها أو رؤاهـــا .. فالكائنات ومكوناتها التى يعيها آدميو اليوم على درجات مختلفة من الوعى ، هى كائنات ومكونات هائلـــة الأعـــداد والأنـــواع

والأغراض والوظائف والمقاصد ووصلت إلى مستويات لم تبلغها من قبل قط أية حضارة سابقة ، وقد تاهت لذلك فى زحمتها المذهلة الأفئدة والعواطف والعقول والأهواء ، وفقدت أو كادت تلك الضوابط المشتركة التى اعتادت أن تجمع الناس على أشياء بعينها فى أزمنة وظروف بعينها كذلك ، وكثرت الأحداث المفاجئة الحمقاء حتى فى البيئات المفروض فيها المبالغة فى الانتظام والهدوء والحرص عليها !!

وهذه السمة العامة غير المسبوقة من قبل فى توسيع العالم المتاح للنشاط البشرى غير المحدود ، لم تشمل بعد إيقاظ وعى البشر والتفاتهم الجاد إلي أن القانون الذي يشمل جميع الأحياء من نبات وحيوان ومنها الآدميون بصفة خاصة ، تبدأ به حياة الحى من الصفر نحو الإيجاد ثم منه نحو الموت ، .. يجرى ذلك فى مراحل لا عداد لها تقصر أو تطول ، منها مراحل احتياج وضعف مطلقين قبل الخروج للوجود الخارجى وبعده ، ومنها مراحل التصاق واحتماء وتبعية ومحاكاة وتقليد .. تقصر هى أيضا أو تطول ، ومنها مراحل انفراد مليئة

بالآراء الفردية والصدمات والمفاجآت والمخاوف وغاصة بالشهوات والأطماع ، ثم مراحل غروب وتدهور وانكماش تمهيداً للارتحال من الدنيا !!

فملايين الملايين التى تعلو أصواتها وتحركاتها واندفاعاتها واختلافاتها من الآدميين الآن ــ نسيت فى واقع الأمر ماضيها كله بطريقة أو بأخرى .. نسيت أنها كانت أطفالاً ثم صغاراً ثم مراهقين ثم شباباً ثم رجالاً ونساء شيوخاً وشيخات ــ إذ شغل الحاضر والماثل والواقع الآن الذى يعيشه الآدمى كل أفقه وأبعد ماضيه عن وعيه ، كما شغل توقعه الساعة لمستقبل ذاته ومن هم فى حكم ذاته الكثير من الغموض الملئ بالإبهام والاحتمال ــ فى هذا العالم الذى يحرص الآدمى على إطالة البقاء فيه ضمن حرصه على بقاء حياته وحياة من يحب !

وهذا الالتفات أو الحرص على البقاء يبدو غريزياً رغم خلوه من أى وعى لمعالم هذا البقاء ، فهو التفات ــ دائماً ــ جزئى .. ينقصه التحقيق والتدقيق .. صاحبه راض دائماً

بما رضى به الآخرون من حوله ــ وبما يسمونه بالمعارف المتداولة أو بالمعلومات السائدة أو المشهورة أو المتفق عليها ــ وجميعها أشياء شديدة العموم والإبهام بل والغموض ــ فى عين كل من يدقق فيها لمحاولة فهمها والتحقق من صحة مصدرها .

ومن هنا كانت وحدة الأفكار من بين البشر فى جماعاتهم دائماً ظاهرية سطحية محتواها ملىء بالتخمين والنقل غير الصحيح والزيف ، وكانت لهذا الضعف المستحكم قابلة للتفكك والتناقض وتوليد الاختلاف والشجار وأحيانا للخصومة والعداء !

* * *

منذ خُلق الآدميون وهم يتعايشون وما زالوا يتعايشون فى جماعات تتناقل وتتبادل ملايين الملايين من التفاهات والترهات والأقاويل والروايات والدعاوى والمزاعم الفارغة المعنى العديمة الأصل ! ، وكأنما كان ذلك فى تقدير الخالق العظيم شيئاً لازماً ، ليس عنه غني لتماسك كل جماعة

وإحساس أفرادها بضرورة بقائهم فى حياة مشتركة يتسـاندون فيها بعضهم لبعض .. وهذا فى الذهن شيء لا يستغني عنـه شعور الفرد بلزومه ليقوى ويظهر شعوره بحياته ولزوم وقيمة حياته .

هذا الركام الهائل السائد الدائم من الضجيج واللغو الذى يبدو فى عين الإنسان المتأمل المتزن أنه طوفان قشر وعبث ـ يؤدي وظيفة أساسية فى تماسك وبقاء وجود الجماعات البشرية حتى اليوم !

ربما جاء زمان على الناس ـ لعله قريـب ـ يتحقـق لديهم نمو الوعي الكافى ومقدار الفطنـة المتوافـرة بـاطراد واستمرار ، فينكشف لغالبية البشر أنهم خدعوا أنفسهم لأحقـاب عديدة ـ باحتياجهم لذلك الركام المزعج من القشـر والعبـث كيما تتماسك جماعتهم ! .. يحدث ذلك إذا تحقق لديهم ـ أعني لكثرتهم ـ الفهم والتقدم والتطور ومعه استغناؤهم عن كل مـا هو غير صحيح ، ونفضهم أيديهم من ميراث الماضى الطويـل المستحيل الفهم والهضم ! .. وهذا هو ما يسعى إليـه اليـوم

العاملون المخلصون لإنجـاح الحضـارة الحديثـة ومعارفـها الرفيعـة الفاهمون لدورها الحقيقى الذى لم تفطن إليــه بعـد غالبية الآدميين المتعلم منهم وغير المتعلم !!

وبرغم اعتماد واتكال البشر منذ خلقوا على المصادفـة وعلى الاحتمالات التى تملأ حياتهم فى صحوهم ونومهم ، فـإن الآدمى لا يفطن إلي دور المصادفة الهائل فى حياته إلا نادراً ! .. فهو يطرحها من حسابه عادة ولا يشعر بها وعيه شـعوراً لافتاً ، برغم أنها عنصر احتمالي أساسى منتشر فى كل وجوده وكيانه ، وبرغم أن هذا العنصر يقابله فـى تركيبـه الخلقـي عناصر وأعصاب وسوائل وغدد وأنزيمات ومضـادات تقـوم بالمعاونة أو بالمقارنة لتلك المصادفات المنتشرة بـلا آخـر ، نهاراً وليلاً دون أن يشعر أو يحـس بـها الحـى ، لأن هـذه التركيبات كلها فطرية تنتسب مباشرة لعملية الخلـق والإيجـاد ولا تَمُر قـط مـع وعـى الآدمي لذاته أو شعوره أو إرادتـه أو فكره ، ومع ذلك فقد فهم الإنسان من قديـم بعـض هـذه المصادفات وحاول ويحاول مواجهتها إيجاباً وسلباً ، وبلغ فـى

أيامنا شوطاً بعيداً فى هذا الاتجاه بفضل اتساع علومه ومعارفه المتعلقة بحياة الإنسان والحيوان والنبات وبأدواتـــه وأجهزتــه ووسائله التى أتاحتها له حضارة العصر ، فتمكن مـــن زيـــادة طاقات الحى وإنتاجه ومن مقدرتـــه علـــى مقاومـــة الآفـــات والأمراض التى تعترى الأحيـــاء ، بيد أنـــه لا يتيســـر فـــهم تفصيلاته وتركيبه وأسراره ، إلاّ لخاصة الخاصة مـــن البشـــر دون عامتهم الذين يقتصر دورهم عملاً على استخدام واستعمال الوسائل والطرق والأدوات والمـــواد المناســـبة الموصوفـــة المعنية المحددة فـــى المناسبات والمواقيت المعينة المحددة لـــهم .. لا يتجاوزونها إلاّ على مسئوليتهم هم !

لكن خاصة الخاصة يقابلها هى الأخرى مصادفات دون أن تحسب لها حساباً ما ــ فيتعثر السائر فى سيره ، ويخطـــئ الواعي فى تفكيره وتدبيره وتشخيصه، ويفاجأ السليم بـــأمراض وعلل لا يتوقعها ــ كذلك يفاجأ الحريص المجرب بخسارة لـــم يكن يحسب حسابها أو يدرى سببهـــا ، أو بمـــوت لـــم يكـــن ينتظره البتة .. وبالعكس قد ينجو من نجا مما لم يتوقع نجاتـــه

منه ، وقد يفوز بربح مما لم يكن ينتظر فيه إلا الخسارة والضياع ، وقد يطول عمره أمداً لم يكن يرجوه أو يدور بخاطره !

والبشر يسلمون بألسنتهم أن الكل عرضة لذلك كله ، وأنه لم يخلق من لم يخطئ الحكم والتقدير والحساب ، ولكنهم في سلوكهم وتصرفاتهم وأعمالهم وقراراتهم وأخذهم وعطائهم ــ يعملون عادة عمل الواثق الذي لا يعرف المصادفة !

كذلك لا ينقطع حدوث المصادفات وتواليها فى طريق تنفيذ عقائد البشر ومحاولات تحقيق مصالحهم ــ لأن هذه العقائد أو المصالح تدفع الناس باستمرار إلي اتخاذ ألوان من المقاصد والمشيئات والسلوك البشرى العمدى الإيجابى والسلبى ، إذ المصادفات أحداث يحدثها فيما يبدو ــ تلاقي وتقاطع الأسباب والظروف الطبيعية الدائمة الحركة ، وذلك فى الأغلب الأعم بلا دخل لمشيئة ونشاط الآدمي اللهم إلا فى النهاية التى تتحقق فيها المصادفة أو تتخلف !

هذا ويلاحظ أن التعارض بيـــن عقـــائد البشـــر وبيـــن مصالحهم الفعلية ــ حدث لا ينقطع ظهوره أيضاً .. إذ العقـــائد أحكام عامة مفروض التزام كافة معتنقيها باحترامها ــ علـــى حين أن المصالح مقاصد وأغراض لفرد أو أفـــراد أو جماعـــة صغيرة أو كبيرة فى وقت بعينه لأنها مرتبطة بأحداث يفـترض وقوعها فى زمانها ومكانها وظروفها ومناسباتها ، ومع مرور الزمان قد يتداخل ويمتزج بعض هذه المصالح فى المعتقـــدات الدينية أو السياسية أو الاجتماعية ، ويصير مـــن المعتقـــدات بدهـــاء سدنة أو كهنة تلك المعتقدات ، ســـواء كانوا من رجال الكهانة أو رجال الحكم أو الساسة والمشـــتغلين بالسياســـة .. وجدوى ذلك دائما محدودة ، لأن المصالح من جهـــة حقيقتـــها ووقائعها متغيرة حتماً مع تغير الأوقات واختـــلاف الظـــروف والأحوال ، بحيث يمكن أن يأتى عليها وقت يصبح التمسك بـــها افتعـــالا وتكلفـــاً ومجـــرد تعصب وعناد خال من أى معنـــى وجدوى ! .. يشاهـــد مثل ذلك فى إصـــرار رجـــال الديـــن على التزام القديم من الطقوس والأزياء والمراسم والمواســـم

والطراز والشكل ، كما نرى مثل ذلك أيضا فى تمسك الساسة والحكام والزعماء بمبادئ وشعارات كانت فى وقت سابق رنانة مسموعة مقبولة من الجماهير ثم فقدت رنينها وجاذبيتها بتحول الناس عنها لعدم نجاحها فى تنفيذ وعودها وآمالها.

ثم إن الظنون التى لاتفارق خواطر البشر ـ تغذى باستمرار وجود المصادفة لأنها جميعا احتمالات بالنسبة للآدمى لايمكنه أن يقطع فى شأنها بشىء !

وحياة الأحياء ومن بينها حياة البشر ـ نظام كونى إلهى جليل جدا ، يجمع بين شدة البساطة وشدة التعقيد والتركيب .. أما شدة البساطة فلكى يستفيد منها الحى فى تدبير معاشه خلال عمره قصر أو طال حسب دوره وترتيبه فى الخليقة ، أما شدة تعقيده وتركيبه فذلك لاستمرار الحياة بأسرها وعلى اختلاف صورها وأجناسها وبيئاتها من حيث مسارها العام فى الاتجاه المراد لها الذى تتضامن فيه نواميسها ونواميس الكون لتحقيق المشيئة المقصودة من ذلك المراد ..

هذا كله لا يراه الحى كائنا ما يكون ، إلاّ من ثقب ضئيل شـديد الضآلة ومن مسافة ومدى بالغى القصر والسطحية !!

ومهما بدا للبشر الآن فى تطورهم وتقدمـهم واتسـاع معارفهم وخبرتهم من كثرة ما يعرفون ويعملون ــ لا يخـرج عن كونه فى الأغلب الأعم فروضا شهدت لها بعض الظواهر التى يطالعها الإنسان فى الطبيعة أو نظرات واحتمالات بشرية ربطوا بواسطتها تلك الفروض بعضها ببعض وبنوا على ذلـك مفاهيم بشرية وضعية صارت أسساً لمعلوماتهم وخبراتـهم .. هذه الأسس والمعلومات التى أقيمت عليها فى عصرنا مختلـف المعامل والمختـبرات والتخصصـات والمعـاهد والمصـانع والمحطات والموانىء والمنشآت والأجهزة والآلات ووسـائل النقل والانتقال والاتصال والمـواد والنواتـج والمصنوعـات والمركبات .. وتلك جميعا كيانات محدثة بشرية معرضة دائما للقدم والزوال مرتبطة ارتباطـا لا ينفصـم بـإرادات البشـر واهتماماتهـم خاصة وليس لها دخل بالنظام الكونـى للحيـاة بعامة . علما بأن بنية المعرفة التى يتناقلها البشـر المتعلقـة

بالحيـــاة وبالكون بنية بشرية صرف .. فيها يرتسم دائمـــــا ــ مهمـــا بلغت من التقـــدم والتطور ــ حركة وعــــى الإنســـان واحتمالات رؤى وتصورات وافتراضـــات عقله واتجاهاتـــــه وميولـــه وحاجاتـــه كإنسان .. إذ هو لا يفكـــر ولا يســـتهدف أولا وأخيرا إلا ما يتعلق بالبشر والبشرية . وهذه نقطـــة قـــوة وضعف فيه لم تفارقه منذ وجد جعلت نمـــوه كجنـــس ونـــوع محدودا دائما بحدود بشريته ولغاته ورموزه واصطلاحاتـــــه ، وحالت وتحول وستحول بينه وبين فهم المطلق فهما نسبيا فقـــط فى حدوده البشرية لايمكن أن يتجاوزها ــ وهو مالوّن وجـــوده وتاريخه ومستقبله بالنسبية والعرضية كمـــا لـــون وجـــــوده بالعجائب والمخاطر والمآسى . والله تعالى أعلم .

* * *

كل ما سبق مما قلناه أو أحصيناه ، إنما يدخل ويخـــرج من بين آلية التذكر والنسيان فى ذاكـــرة ووعـــى الآدمــــى ــ لأن الوعـــى لا يعـــى الأشياء والمعانـــى جملة أو جمـــــلاً .. ولا يستعمل العقل أو العاطفة أو همـــا معـــاً ــ إلا شيئا فشـيئا

على خطوات متتابعة تتابع كمسيل السـوائل ، ضيقـة حينـا وواسعة حينا آخر بحسب قسمة الماضى والحاضر والمستقبل ، وعلى مقتضى ظروف وأحوال المكان ومـا يسـتدعيه مـن حضور الحاضر وتذكر الماضى وتصور أو توقع المسـتقبل .. وهذه نسبية بشرية عامة لا يتوقف عملها وتأثيرها طوال الحياة منذ وجدت وإلى حيث يشاء الله ..

وقلما يلتفت أحد إلى أهميـة هـذه النسـبية وفاعليتـها وآثارها فى تصرفاتنا ومساعينا ومصائرنا جميعـا ـ برغـم كثرة وتكرار تداول الحديث عن النسيان والتذكر علـى ألسـنة البشر .

إذ الإنسـان منذ أن يعـى يغـرق دون أن يشعـر فى الالتفات إلى ذاته أولا ، ولا يرى بداية ونهايـة سـواها ، وهـو دون أن يقلـق أو يشك أو يتردد أو يفطـن ـ يرد كل ما يحدث داخله إلى ذاته كأنها عنده شجرة المبتدى والمنتـهى ، إذ فيهـا يجتمـع بالنسبة له كل ما وعى أنه حدث له أو فيـه مما هو فى الوجود الفعلى أو التصور ظاهرا أو باطنـا مـن

كيانات وأحـداث وآمـال ومخـاوف يشعر بها أو يتصورهـا أو يتعامل معها عقله أو عواطفه ! ٠

ويبدو أنه ليس فى استطاعة أحد إيقـاف نشـاط هـذه النسبية العامة بصفة تامة ، وقد يتمكن الآدمى من مراجعتـها أحيانا ومن تعديل مسارها ولكـن على نحو محدود،لأنه يحتاج إلى قـوة إرادة وعزيمة ومران طويل ، ولا يقوى على ذلـك إلا القلة القليلة فى أى عصر! ــ ولم ينجح التعليم العام السـائد ولا التعليم الخاص الواسع الانتشار الآن فى الحد من نيوع هذه النسبية الفاشية فى النوع الإنسانى منذ وجد حتى الآن !

هذا ويوجد فارق جسيم بين التحمل والاستسلام السـلبى للواقع وإن كان مريرا يائسا وقبول الحيـاة علـى أى وضـع ومستوى ، وبين الصبر الواعـى المتدبـر الملـىء بـالإرادة والتصميم والعزيمة !

فالتحمل السلبى إذعان فقط لنصيب الحى من حياتـه ، أبكـم إلاّ مـن الأنين والشكايـة وتبادلهمـا مـع الآخريـن المماثلين ! ــ .. ويبدو أن هذا هو حال معظم الخلـق الذيـن

يعانون الركود العقلى والنفسى أو القنوط وعدم المبالاة الخالى واليائس من كل أمل فعّال جاد فى نفس الآدمى الذى لم يعد يبالى بتحسين أحواله أو مقاومة السوء القادم ! .. وفى هذا الجو المقبض المتجمد اليائس لايكاد يوجد تأثير ملحوظ لقواعد الأخلاق أو للعقائد الدينية والاجتماعية حتى فى المجتمعات الحديثة الحافلة بالمدارس والمعاهد وبالمعابد والمساجد !

أما الصبر الواعى المتدبر الملىء بالإرادة والعزيمة ، فهو دائما من نصيب القلة ، ومعظمه فطرى وشبيه بالفطرى نتيجة الاستعداد الداخلى ، وهوإنما يتجه فى اتجاهين قلما يلتقيان : اتجاه إلى الآخرة وعزم وعزوف عن حياة الأحياء العاديين ودنياهم بأخلاطها وأغلاطها ومشاكلها التى لا تنتهى وانصراف يكاد يكون تاماً إلى الآخرة وصفائها المناسب تماماً للإيمان وخدمة الإيمان .. وهو ما وجد ويوجد لدى الرهبان والمتصوفة حين يتحقق لديهم الإخلاص فى مسعاهم غير المألوف .. أما الاتجاه الآخر فيكون إلى دنيا يعقد فيها الإنسان عزمه بعناد وثبات وإصرار على النجاح ـ وعلى تغيير

واقعه غير المرح أو المزعج إلى واقع آخر يكون فى مصلحتـــه ومصلحة من هم فى حكم نفسه ــ وهذا حال غالبية الصـــابرين فى كل زمان ومكان .. فهم منكبون علــــى العمـــل والســـعى لتحسين حالهم وتجويده وتطويره ، وهم فى ذلـــــك لا يبـــالون بالمشـــاق والمتاعب والكد والكدح ــ فى سبيل أن يتحقق لـــهم ما يصبون إليه . هذا النوع من الصـــــبر مجـــدول بالمثـــابرة والدأب والتدبير والإقـــدام مع الحساب والفطنة واليقظة وترقب الفرص وانتهازهـــا ، وهـــو نوع لا ينام ولا يكف عن تنميــــة ما حصل عليه وتوسيع أهدافه وأطماعه .. يبنى جديدها علــــى قديمها مباشرة أو بطريق غير مباشر ، فيصبح الإصـــــــــرار والمثابرة ركيزة حياته بأسرها .. لا يهتم إلا بها لأنه لا يمكنـــه أن يعيش إلا فيها ، فتذوب وتغرب بين يديه وعينيـــــه مبـــاهج الحياة الإنسانية المألوفة لعموم النـــاس ويكـــاد لا يشعر بـــها ، لأن الاعتدال وضبط النفس نادران فى الآدميين دائما وفى كـــل عصر .. وللآن لم تتمكن الحضارة الحديثة الحاليـــــة مـــن أى

وسيلة مجدية فى انتشارهما فضلا عن تعميمـــهما . ومـــازالت الأطماع والانحرافات والخدع على أشدها فى كل مكان !!

ونادراً جداً ما يكون التحمل المستسلم الذى أشرنا إليـــه مصحوبا بهدوء نفسى وسكينة قلب وطبع ، لأن غالبيـــة أهلـــه يسود بينهم السخط وضيق الصدر والغضب والمــــرارة فـــى الشدة ــ والمبالغة فى المرح والتبذير والصخب فـــى أوقـــات الإقبال والرواج !

ومن ينظر من بُعد يسمح برؤية كافية إلى حياة البشـــر فى نهارهم وليلهم على هذه الأرض ، سوف يهولـــه ويفزعـــه اللغط والضجة والاضطراب والازدحام وألوان الحركـــة التـــى تبدو حمقاء فى هذا الجلس بما يدعو أى عاقل غير مقيد بسكنى هذه الأرض ــ إلى الفرار ليتجنب الهوس .. لكننا نحن البشـــر لا نشعر ــ بحكـــم قانـــون العـــادة ! ــ بما نحن فيه وعليـــه مما عشناه وألفناه آلاف آلاف السنين ــ إذ كلنا قادر علـــى أن يتجاهل تجاهلاً تاماً فى حركاته ومقاصده ويقظته ومنامه وجود ذلك المحيط الصاخب وما يجمعه ذلك المحيط الزاخر الهادر !!

الآدمى لايرى فى معظم الأحيان إلا ذاتــه وأغراضـــها ومصالحها وأهواءها ، وهنا يبدو السر فـى صلفــه إذا منــح المقــدرة على معرفة قليلة أو كثيرة لما هو خارجه وحولـــه ، فلا يدرك أنه مقيد بقيود يستحيل أن يفلت من جميعـــها وهـــى مغروسة فى فطرته تتحكم فى تصرفاته واستعداداته ، وأعجب ما فى تلك القيود مرونتها الهائلة وقابليتـــها الشـــديدة للتمـــدد والتقلص .. وعلى حسب هذا التمدد والتقلص يتحرك الآدمـــى نحو المزيد من الترقى والتقدم والتطور ، أو يرتد راجعاً إلـــى درجات ودرجات من التخلف والتأخر ، وهذا المعنـــى يـــتردد بطرق شتى فيما بين أيدينا من تواريخ وآثار وحفريات !

وربما تميزت الحضارة الحالية عما سبقها بتمردها علـــى القضاء والقدر وإصرارها بعناد على مقاومة وعلاج النكبـــات والكوارث الطبيعية وغير الطبيعية حيثمـــا تقـــع ، وبعنايتـــها بالالتفات إلى جذب جمهور البشر إلى خارج إطـــار معارفـــهم وعقائدهم وعوائدهم واجتذابهم إلى حيث يوجد الكون العظيـــم والطاقـــات الكونية الهائلـــة التى يعمل العلم الوضعى بنجـــاح

فى المزيد من انتفاع الإنسان بها .. وربما كان فـــى انفــراج وانفتاح ذلك الطريق غير المسبوق اتساع ضخــم فــى آفــاق الحياة البشرية بعامة ، وبسط لهذه الآفاق إلى ما انطوت عليــه أرضنا من إمكانات غطّى عليها جهلنـــا الحاضـــر بها وبمـــا فى هذا الكون العظيم من ثمرات وطاقات بلا حدود لـــم تمتــد عيوننا وسواعدنا بعد إلى إقتطافها واستخدامها فى صالحنا !

إن فى نفس كل منا عند اليأس والقنوط هروباً ولـــواذاً إلى فكرتنا عن ذلك الماضى الذى لم نعرف حقيقته قط ، وهــو هروب أو لواذ عاطفى فطرى مـــن شـــأنه أن يشـــل العقــول والعزائم وهو يستحيل أن يغير واقع العالم الخارجى ، وإنمـــا ينشر سلبيات البشر أمامهم وحواليهم ، إذ هو تغيير فى كياننـــا الداخلى حيث لم يعد يرتبط هذا الكيان بواقع فعلـــى ارتضينـــا التعامل الجاد المخلص معه ، ولذا تشابهت فـــى أعيننـــا أيـــام الخمول والركود والرخص ، ومرت وتمر هذه الأيـــام دون أن نشعر شعوراً حقيقيا بمرورها ولا بوجودها ، لأن أوقات اليأس كلها محض ضياع عاطفى وفكرى ، واضطراب فى الســـلوك

والتصرفات ، وذلك كله سلب وعكس ونقيض لحياة الإنسان الممنوحة المتاحة له منذ ميلاده بكرم فائض يشعر به من يتأمل في حياة أى آدمى من ثراء ذاتى . وربما كان يأس الإناث أقل عمقا وضراوة من يأس الذكور ، كأنما يسير الأمل واليأس فيهن فى دوائر أو حلقات يقود منها الأمل إلى اليأس واليأس إلى الأمل ـ بينما يسير الأمل واليأس لدى الذكور فى خطوط ذات نهايات قد تتقابل وقد لا تتقابل فيموت الرجل بيأسه !

وفى خلال الحديث عن اليأس والأمل ، تبرز حتما فكرة القناعة والرضا وصور هذه الفكرة لدى البشر! لأن أغلب الناس كانوا ومازالوا يتحدثون عنها دون أن يعرفوا حقيقتها .. إذ لا تسمح دوافعهم واستعداداتهم الغريزية بإهمال السعى الجاد وأحيانا المهلكِ للحصول على مطالب حياتهم بكل ما فى استطاعتهم مما أدى إلى اعتياد المنافسة والصراع والطمع وأحيانا الجشع والتدمير والنهب والسلب والقتل !!

وغالب مـــا نسمعه عن القناعة والرضا بين الآدميــين لا يخرج عن كونه كلاماً فى إطراء الاكتفـــاء والاعتــدال ـــ يغطى فى كثير من الأحيان فشل الفاشل فى تغيير حقيقة حالـــه مع اشتعال قلبه بالمطامع والشهوات ، وهذه إن كانت قناعـــة فهى فى الحقيقة انتظار بليد لتحقق أحلام وأمانى دون بــذل أى سعى جـــاد لتنفيذهـــا ، انتظـــاراً لأن يقيض لهـــا من الحـــظ ما يحققها !

ومن صور القناعة المألوفة يأس التقــــدم فـــى الســن والشعور معه بالشيخوخة .. إذ تتوقف آمال الآدمى وأطماعـــه توقفاً تاماً لقربه من الآخرة .. فهذه القناعة ليست أكـــثر مـــن اكتفائه بما حصل عليه من دنياه ويحرص على حفظه مخافـــة تعرضه للحاجة والعوز ، وربما لاحظ عليه من حوله نوعاً من التقتير فيما جمعه إبان إقباله وتعلقه بدنياه !

وربما تكون القناعة أو الرضا فطــــرة فطـــر عليـــها صاحبها ، وهو أمر نادر فى البشر .. إذ لا يسمح له طبعه قـــط بعدم الالتفات إلى استدامة داخله وإلى احتياج هذا الداخل فـــى

كل لحظة إلى السلام والمودة والهدوء ،لأن هذا يشـــكل عنـــده رأس ماله فى حياته كلها .. سواء بينه وبين نفسه أو بينه وبين الأقربين !

الإنسان وأطوار الحياة ، والحضارات !

أساساً نحن أغراب بعضنا عــن بعــض لوجــود ذات خاصة بكل منا لا تفارقه إلى أن يموت .. ولكن بيننا كأحيـــاء قرابات تستند إلى صلات الرحم والزواج أو الجوار أو المــودة الشخصية والأسرية .. وهذه علاقات اجتماعية إيجابية تتفــاوت ضعفاً وقوة مع نوع العلاقة ومع تفاوت الأشخاص والجماعات والأمكنة والأزمنة ليس لها مقياس مقــرر إلاّ الاعتيــاد الــذى يراعيه الآدمى فى بيئته طبقاً لأعرافـــها وعقائدهــا ، وهــذه العلاقات قد تشتد فتجاوز درجة التآخى أو الأبوة أو البنوة فــى الضراء والسراء ، وقد تهن وتتراخى حتى يقف مثلاً أربـــاب القرابات القريبة كالأبوة والبنوة والأخوة مواقف مــن بعضـــهم البعض تخرج عن حدود اللياقات والشكليات وربمــا تتجــاوز ذلك إلى تبادل الكراهات والعداوات !!

هذه العلاقات الاجتماعية الأولية هامة جداً لأنها هى التى تجمــع وتلحم وتقيم حياة الجماعات البشرية قديمها وجديدهـا ، إذ ليس فى الاستطاعة تصور جماعة بغير صـــلات الأرحـــام والزيجات وعلاقات الجوار والمودات .. ولا يكفى العقل وحده وخدمته والتعاون فى ترقيته وتفوقه لإيجاد مثل تلك العلاقـــات الأولية الأزلية التى ترتكز فى الأغلب الأعـم على العواطــف والحنو والمؤانسة والتساند والتعاون مع الكثير أو القليـل مــن العقل والتبصر .

فآمالنا لا تتخيل قط أن تتخلص من العواطف نـــهائياً ، ولا تتوقع أن يتحول كل الأحياء من الآدميين الموجودين علـــى هذه المعمورة إلى جماعة واحدة فقط .. فهذا ربمـــا تجـاوز قدرات واستعدادات الآدمي المبنية فيما يبدو علـــى أنـــه يحيـا حياته فى جماعات لها حدود مرنة تتناسب ضيقاً وســعةً مــع تغيرات الأحوال والظروف والأوقات دون أن ينعدم تعددهـا .. ويبدو أن هذا ملحوظ فى امتداد وانتشار الحضارات وتقلصــها ونشاط الديانات وتجمدها وفى تغـــيرات العقـائد والمذاهــب

والأعراف والعادات والفنون والمعـــارف والآداب والأذواق ، وهــو ملحوظ أيضا فى دوام الأخذ والعطاء والألفة والنفـــور بين تلك المصادر دون فقد ذاتية كل منها .. لأنها قابلـــة فـــى حدود ـــ نعرف بعضها ـــ لتبادل التـــأثيرات حســـنة أو غـــير حسنة تتراوح بأصحابها بين القـــــرب والصداقـــة أو التبـــاعد والعداء !. لأن البيئة الجغرافية والاجتماعية كما تشكل ســـحن أهلها وألوانها وأحجامهـــا وتميزهـــم بهـــــا عـــــن أهـــالى البيئات الأخرى ، فإنها لا تلغى قط خاصية بيئتـــها ولا تمحـــو بمرور الزمن تميزها ســـواء تقـــدم أو تأخـــر مواطنوهـــــا ، وســـواء تطـــوروا أو لم يتطوروا !

ثم إن ترقى البشر يستهدف أولاً وأخيراً ـــ كما يبـــدو الآن ـــ فصل العقل والفهم والتفاهم والتواد والتكافل والتعـــاون وما يقتضيه ذلك من الروابط الإيجابية المفروض أن يشـــترك فيها ويتنافس عليها جميع الآدميـــــن ..هـــذا والالتفـــات عـــن الاختلافات فى الأجناس والألوان والأحكام والأجواء وما بنـــى عليها منذ القدم من تضارب وتصادم وتعـــاد فـــى الأفكـــار

والمصدقات والعقائد والأعراف والعادات قد بدأ يهن مع الزمن ، إذ لم يعد لهذه الاختلافات دور هام مؤثر على ذلك الاشتراك والتنافس فى نظر الآدميين الفاهمين لمعانى الحضارة الحديثة الحالية .

فقد لعبت تلك الفروق دورها فى تكوين وتنمية وتزاحم وتصادم وتعاقب الجماعات دهوراً طويلة إلى أن اتخذت الحضارة الحالية سمة العالمية وأخذت تسهم فيها بنوع من الجد غير قليل .. فلم يعد يتفق أو يليق بهذه السمة العالمية بقاء تلك الضغائن والعداوات المؤسسة فى الأصل على مرد الإحساس بالاختلافات البدائية المذكورة .

وقد سلمنا الآن دون أى اعتراض بوجود الأمريكى أو البريطانى أو الفرنسى الأسود أو ذى السحنة الصينية أو اليابانية أو اليهودية أو المغربية المستمتع بكل مزايا مواطنين من البيض والملتزم أيضا بكل واجباته طبقا لما يوكل إلى كل مواطن من هؤلاء بغض النظر عن لونه أو جنسه الأصلى !

ولكن لم يوجد مثل هذا بعد على نحو عام بنفس الدرجة من القبول ــ فى جماعات العالم الثالث ، إذ لم تمتص أغلبية الناس فيها أسس الحضارة الحالية حتى الآن .. وهى تحاول هذا الامتصاص على نحو ما يختلف قوة وضعفاً من جماعة إلى جماعة .. هذا الامتصاص الذى يمكن أن يخلصها من أثقال وأغلال ماضيها التى ما زالت تكبلها الآن وإلى مستقبل يقصر أو يطول !

فالمشكلة الكبرى لدى الآدمى منذ وجد حتى الآن ــ هى خضوعه التام للاعتياد فى كل منحى من مناحى حياته أى فى كل ما يشعر به أو يتصور أنه يعرفه أو يفهمه أو يعلمه أو يقبله أو يتجنبه أو يرفضه .. فالاعتياد إذ يعطينا فرصة لالتقاط الأنفاس والراحة والطمأنينة ــ يسلب منا دون أن نفطن قدراً متزايداً من الفهم أو الإدراك الذى ساقنا إلى ما اعتدنا عليه بحيث ننتهى إلى التسليم ثم الاعتياد على التسليم بأن واقع الأمر هو ذات المسلك الواقعى الظاهر المحسوس الذى اعتدنا

إتيانه .. إذ قد نسينا مع مرور الوقت وكثرة التكـرار السـبب الذى كنا قد اخترنا من أجله ذلك المسلك !

هذا حاصل لمن يتأمله ، يراه فـى جميـع مسـاعينا وتصرفاتنا وأحكامنا الخاصـة والعامـة ، ويجده فى كل عمل أو حرفة أو مهنة أو نشاط اعتدناه ، كما يجده فـى العلاقـات الزوجية والإنجاب والقرابات والجـوار والصداقـة والاقتنـاء والادخار ، ويشاهده فى الرياسات والتبعيات ، وفـى مظـاهر الثراء وأمارات الفقر وفى صور المكسب والخسارة .. بل فـى تفضيل البلدة والمسكن ومكان العمل والطريق المألوف ووسائل الراحة والترفيه والرياضة ، وفى المتجر والمصنع والمزرعـة والمعمل والمكتب والمعهد والجامعـة والمدرسـة والمقـهى والنادى والملعب ، كما يجده أيضاً فى شئون السياسـة والإدارة والتنفيذ والأمن وفى الاجتماعيات ــ ثم هو على أشده فى أمور الديانات والملل والمذاهب والطوائف والفرق .

فالاعتياد متسلط على البشر جميعاً فى كل زمان ومكان .. فى كل ما يأتونه وكل ما يرفضونه .. فى اليقظة والمنـلم .. وفى الحركة والسكون .. وهو يتنقل ويتنقل آلياً من المـــاضين إلى الحاليين ومن بعض هؤلاء إلى البعـــض الآخـــر بطـــرق التخاطب والتفاهم المختلفة خلال ما لا سبيل إلى حصره مـــن المناسبات التى لا تنقطع بين الأحياء ، ســـواء كـــانت بشـــأن حاضرهم أو مستقبلهم أو ماضيهم أو ماضى من سبقوهم !

وربما كان سلطان ذلك الاعتياد نوعـــاً مـــن الإبطـــاء والإرجـــاء ، مقصوداً اقتضاه ناموس الكـــون ـــ وذلـــك فـــى انتظار الوقت الملائم لانتشار رشد البشر والتمســـك بـــه فـــى المستقبل ، وترقب تخلص البشر بذلـــك مـــن الاحتيـــاج إلـــى السلوكيات الآلية الشائعة إلى الآن بيـــن الآدميـــن ـــ بـــإحلال الفطنة اليقظة محل ذلك الاعتياد بآلياته التى تشوه حالياً ـــ تلـــك اليقظة وتضللها .. ثم يبدو أن تلك الآليات المبنية علـــى ذلـــك الاعتياد بأشكاله وألوانـــه هـــى التى أضعفت ومـــــا زالـــت تضعف دور العقل فى قيادة حياة الآدمى ، لأن هـــذه الآليـــات

مازالت إلى اليوم تصور لنا أن العقل نفسه سعى من المساعى البشرية الخاضعة للاعتياد وآلياته وأنه قابل لتثبيته فى حدود صيغ معينة يرتبط بها أهل كل مصر بحسب ظروفه ومألوفه !

بينما العقل ليس مسعى من مساعى البشر ، وإقدام البشر على إخضاعه لأهوائهم هو فى الواقع خداع منهم لأنفسهم فى توظيف العقل .. لأنه هو وحده الذى يمكن أن يعرف نعم الخالق علينا ويستوعبها ويفهمها وينزلها منازلها من شكر الله عز وجل على ما أنعم أو الشكاية والضراعة إليه أن يخفف ما يؤلم أو يوجع ! .. العقل هو وحده الذى يخاطب عنا خالقنا ويبدى ويمثل لديه نوايانا ومقاصدنا على الحقيقة التى عقلها وليس على الوهم الذى نوهم به أنفسنا حسب ما تمليه علينا أهواؤنا .. لذلك كان العقل هو وحده الذى حمل ويحمل لواء ترقينا وتقدمنا وانتقالنا فى هذه الدنيا من طور إلى طور أفضل ، كما أنه هو هو الذى يحمل لواء الهزيمة والنكسة حينما نستكين وتتغلب علينا شهواتنا !!

استعباد الجماعات الآدمية واستخدامها للعقول في الامتثال للأهواء والشهوات والأحقاد والعصبيات والعداوات ـ قد استلزم بين وقت وآخر ـ رسالات كبار الأنبياء وفتوحات أهل المعرفة والعلم ممن سبقوا أزمنتهم ، مثلما استلزم تعاليم الحكماء الماضين .. كان هذا من وقت لآخر بمثابة البلسم لتلطيف حدة هذا الاستعباد المزمن القديم ، وقد أتاح ذلك الفرص الملائمة لنمو الجماعات وترقي الشعوب وإنشاء الحضارات البشرية ، وبنضوب المدد من أولئك الأفذاذ وخفوت أصواتهم واعتياد سواد الناس على عدم المبالاة بما فعلوه وقالوه ـ هبط نشاط الحضارات بعد أن عاد الناس إلى ما يشبه ما كانوا عليه من قبل ـ بتراجع التقدم وشيوع عدم المثابرة على تنميته وقلة المخلصين القادرين على مواصلته والتحمس له !!

* * *

النمط العشوائى فى التأخر ثم التقدم ثم التأخر الذى يلحظه المتأمل فى تاريخ البشرية ـ هذا النمط قد تكرر مرات ومرات ، وعلّته فيما نحسب ـ عزلة المتحمسين للعقل العارفين لقيمته عن أكثرية الخلق فى كل بقعة حتى اليوم ، وتصور الكثرة الأكثرية أن الدين والسياسة والسلطة والنفوذ والسعادة قد تستخدم العقل ولكن لا تخدمه !! .. مع أنه لا يمكن أن يوجد دين حقيقى إلاّ مع العقل ولا سياسة صحيحة أو سلطة راشدة أو نفوذ متين أو سعادة فعلية إلاّ مع العقل أيضاً . إذ لا يمكن للآدمى أن يخطو خطوة جادة فى أية مرحلة من مراحل حياة رشده ولايتعرض معها للندامة أو الملامة عليها ، إلاّ بالاهتداء والاحترام للعقل ! بل إن طريقنا إلى الله المفعم بالهداية القلبية لايتهيأ به اتصالنا بخالقنا ـ جل وعلا ـ إلاّ عن طريق العقل ..

ونحن نقصد بالعاقل الآدمى اليقظ الذى يعايش عقله من لحظة أن يصحو إلى أن ينام مقدماً حكم عقله دائماً على أحكام هواه وشهوته ، ولا نقصد من يستعمل عقله فى خدمة عواطفه

أو مصالحه وحدها ضارباً صفحاً عن المصــــالح المشــروعة لغيره من الخلق .. ولا نقصد به من يستعمل عقله فى مناسبات وينساه تماماً فى أخرى ! .. كما لا نقصد بتاتاً مــــن يســتعمل عقله وينسى ذمته وسلامة وحسن قصده والتزامه بالإنصاف !

لأن العقل هو الباب الذى جاءت منه كل المزايا العاليــة التى تميز بها البشر على باقى الأحياء من فهم وتصور ونطــق وفطنة وذكــاء ومحبة ورحمة وعدل وذاكرة وحافظة ورغبــة فى المعرفة والجمال والكمال !

ويبدو أن عقلنا على الأقل فى نظرنا الآن ــ يتخطـــى الأزمنة والأمكنة والأشياء والأحياء والأحداث ولا يتقيد بشعور ما أو بفكرة أو عادة أو عقيدة .. لأنه لا ينقطع عـــن محاولـــة الفهم والمزيد منه إلاّ إذا رضخ للتوقف والتعطل وانصرف إلى خدمة الأهواء والشهوات ! .. ومن هنا يبدو أن فى العقل شــيئاً كونيا أبقى من بقاء الأفراد والجماعات قد يماثل بقـــاء الحيـــاة نفسها ، ولذا كان من هذه الجهة ــ وبالنسبة للإنسان فــى نظر الديانات الكبرى ــ الطريق إلى خالق الكون .. وهو طريق بدأ

ضيقاً ثم أخذ يتسع ويتسع إلى ما شاء الله ! .. ثم قد اختلفت فكرة الآدمى عن عقله باختلاف الأوساط والأزمنة والأمكنة والظروف ، وباختلافها ضيقاً وسعةً وسطحية وعمقاً فى الإلمام بمعارف وتجارب وقدرات العقل واتصالاته الوثيقة بأعضاء الجسم وأجزائه لا سيما بالمخ والجهاز العصبى ومراكز الحس والأفعال والحافظة والحواس والتصور والتداعى والاستخلاص والقبول والرفض !

ولا شك فى أن عقولنا الآن على الجملة ، أوسع وأعمق من عقول من سبقونا على كافة المستويات ، ولكننا ما زلنا فى إطار نفس العلاقة القديمة التى تربط عقولنا بمصالحنا وأهوائنا .. أعنى النظر إلى العقل كأداة ووسيلة لخدمة أغراضنا وذواتنا . فلم يصبح للعقل فى نظرنا أغراض متفوقة خاصة به !

وهذا قد يفسر ، شيوع الملل والسأم لدى الكثير من العقلاء الجادين فى زماننا ، ومحاولة البعض منهم الالتجاء فى التسرية عن النفس إلى الخمر والمخدرات وإرضاء الشهوة

.. لأن مساعى العقل الخاصـــة به كلها جادة حتى الآن لـــــدى معظم أهل العقل .. لا تحفل إلاّ بما هو حقيقى أو راجح فعـــلاً لديها ، ولا يدخل فى ذلك العواطف والميول ، بل قد لا تبـــالى كثيراً بالغبون اللهم إلاّ من العباقرة والأفذاذ !

ولا نظن أن العقل باتساعه يستلزم ذلك الانفصال القديـم الذى يرجع إلى استمرار استعباد البشر لعقولهم خدمة لأهوائـهم .. هذا الانفصال الذى يتمثل حتى الآن فـــى وجـــود الطبقـــات والطوائف والقادة والرؤساء ورؤساء الدول .. فهذه كلها تعايش العقل إلى اليوم من قمة القوة والسلطة والنفوذ والثروة والجـــاه وبصوت العظمة والعـــزة والمكانـــة والمقـــام وفـــى ظـــلال الحضارات والجماعات منذ عرفت ، ومنها الجماعات الحاليـــة والحضارة الحالية !! .. فنمو العقل البشرى ، مـــا زال لـــلآن ماضياً فى خط سيره من تلك العبثوية برغم كبريائه واعـــتزازه الحاليين اللذين لن يغيرا تركيب جماعاتنا وبنــــاء حضارتنـــا ، وهذان قديمان يهددان كل شىء لدينا بالأخطار والكوارث !!

فليس يكفى لبقاء البشرية فيما وصلت إليه ، بل ليس يكفى لنجاتها من الردة أو الزوال ، أنه لا تزال تتقدم لديها العلوم الوضعية والصناعات المبنية عليها إلى حد هائل لم يسبق له مثيل .. هذا كله لا يكفى ما دامت عقول كثرة الناس لا تتقبل ذلك إلاّ من أجل استخدام ذلك التقدم فى إشباع الميول وإرضاء الشهوات والاستجابة للأهواء التى تجنبت العلوم الوضعية التعرض لها لا بالإنكار والملامة ـ كما تفعل الآن ـ ولكن بالإفهام والاهتمام وتعريف الجمهور بنقاط القربى بين ميوله وبين عقله وإرشاده إلى مصادر الأهوال ودوافع الميول والشهوات وإمكانات قيادتها والسيطرة عليها بحيث تتعاون وتتعايش مع ما وصل إليه العقل وما يمكن أن يزيد على ما وصل إليه بمراحل !

والجهود العقلية التى استخدمت فى تدبير وتنفيذ الأغراض والمصالح والميول والأهواء والمطامع والأحقاد والعداوات الخاصة والعامة ، قد غطت ماضى البشرية كلها وما زالت تغطى حاضرها ، وتغلغل العقل فى خدمة تلك

العـواطف والانفعالات لم يضعفها بل قواها باسـتجابته لـها حيث لم تستجب هى له !

ولكن فى مقدور التعقل ـ لو تكاتف العقلاء وصفـت نواياهم ـ أن يجتهدوا فى تغيير ذلك الواقـع لا إلـى إلغـاء العواطف والميول والمصالح الشـخصية أو العامـة ـ فذلـك محال المحال . بل إلى استخدامها الجاد فى التعاون والتعـايش مع الفطنة والحكمة والاعتدال والاعتراف من جانبـها بقيمـة ونفع التعقل زميلاً لا تابعا وخادما .. ومتى يستقيم ذلك ومثلـه يستقيم مستقبل البشرية إلى ما شاء الله ولا يتعـرض للالتـواء والنكسة اللذين يتعرض لهما الآن !!

وأعجب العجب أن كل ما فى حضارتنا الحاليـة مـن اكتشافات وتطبيقات واختراعات ومعارف لم يسبق لها مثيـل من قبل ، ومن مبالغة فى التعليم والتعلـم والعلـوم والفنـون والآداب والإعلام والعمـران والصيانـة والوقايـة والصحـة ووسائل الاتصال والمواصلات والضبط والربـط والإحصـاء ومعدات الحروب البرية والبحرية والجوية .. كل ذلـك مـن

عناصر ومفرزات حضارتنا الحالية إنما يتبع ويمتثل لأحكام وضوابط وجهود أنظمة العقل البشرى التى لا أول لها ولا آخر ، ويسير بلا توقف وبدقة بفضل وجود قدر من الحرص والالتفات إلى العمليات التى تتوالى بالملايين وملايين الملايين فى ذلك المحيط الشامل الهائل ، لكنه يخضع خضوعاً يكاد يكون تاماً فى حاضره كما كان فى ماضيه ــ لأغراض ومطامع وميول تتقاسم لنفسها أجزاء وأشطاراً من ذلك المحيط الشامل الهائل ، وتستعبد الجهود العقلية البالغة التنوع والضخامة فى خدمة حضارتنا عن طريق القرارات التى تصدر من تلك القمة ــ أو القمم ــ تحقيقاً لسياساتها وغاياتها !

فتلك الجبال والأحمال من أنشطة البشر وخبراتها ومبتكراتها العقلية لا تخدم القائمين بها إلاّ بالقليل العرضى ، لكن تخدم ابتداءً وانتهاءً سراً وعلانية أولئك المعنيين الذين فى القمة أو القمم حيثما كانوا ولا تنفذ إلاّ مشيئاتهم .. هؤلاء كلمتهم مسموعة لدى الحكام فى كل بلد مطلقاً كان كمهم أو غير مطلق !

فالجهاز العقلى الضخم لحضارتنا بعيـــد عـــن الفطنـــة والتعقل من هذه الزاوية ، وكثيراً ما يخفى بعده هذا مع جمهور الناس فى أوقات الرخاء والرواج العام ، لكنه يبدو منكراً فـــى أزمنة الركود والضيق والبطالة مليئاً بالألغام والمخاطر ومهدداً بكوارث لأنه لم يحسب من قبل حسابه وجاءت يقظة الناس لـــه مفاجئة فاعتقدوا أنهـــم غرر بهـــم وضاقت الأرض عليهـــــم بما رحبت !

ذلك إلى أن قيادة العامة ليســـت هينـــة علـــى العقـــلاء الصادقين المنصفين ، فهم يتجافونها ويبتعدون عنها لابتعـــادهم عـــن الزعامة والقيـــادة اللتيـــن تســـتخدمان الأمـــر والنـــهى وتحرصان على إبراز الرئاسة وتنبيه الخلق إلى وجودها .

فأولئك العقلاء يؤثرون الإمـــتزاج بالنـــاس والاتصـــال الوثيق بهم ، وذلك بالإخاء والصبر والمودة والمعونة والإرشاد الخالـــى مـــن السلطان والسلطة ، يتسرب ودهم وإخلاصــــهم إلى القلوب ومنها يتسربان إلى العقـــول والأفهـــام المحتاجـــة إلـــى الإرشـــاد والتوجيه . وشىء كهذا مارسه شيوخ الصوفية

فى العصور التى انتشر فيها نفوذ المتصوفة بيـــن الأهليـــن .. والفارق بين أولئك الماضين ، وبين عقـــلاء زماننـــا الداعيـــن العارفين ، أن أولئك كانوا معنيين بنشر معتقدات واهتمامـــــات باطنية فقط تصرف الآدمى عن اليقظة لحياته فى هـــذا العـــالم بينما عقلاء زماننا ينشـــرون معـــارف وخـــبرات وإدراكـــات ومفاهيم وأواصر ومودات مشتركـــة لا غنى عنها فى دنيانـــــا لأنهـــا معنية بدنيانا وبالعمـــل الجـــاد النافع المفيد غالباً فيـــــها فى السراء والضراء . على السواء !

* * *

يبدو أن كثرة الآدميين لـــم تنجح إلـــى اليوم فى إقنـــاع نفسها بعدم سلامة التطرف والمغالاة فى أى مسعى أو غـــرض أو غاية من مساعيهـــا أو أغراضهـــا أو غاياتها ، أيـــا كـــان اتجاه مقصودها : نفعيا أو غير نفعى . لأن النجاح فـــــى فـــهم عيوب التطرف والمغالاة لا يمكن أن يتحقق إلاَ مـــــع الفطنـــة وضبط النفس والاتزان فـــى مرحلـــة التنفيذ . وهـــى مرحلـــة ما زالت بالنسبة للجميع تمتلئ بالتوتر الـــذى تخفيـــه بـــأمواج

الحماس والاندفاع .. فنشر العلم والتعليـــم والتقـــدم والتطـــور غناؤه قليل فى تحقيق ذلك النجاح ، لأنه لا يعالج ذلك الاندفـــاع والحماس ، وهما انفعالان فطريان يحتاج علاجهما إلى تدريـــب ورياضة وتربية منذ الطفولة لا يلتفت إلى ذلك أكثر النـــــاس . وقد ينحاز الكثيرون لذلك الحماس وذلك الاندفاع ويعتبرونـــهما مـــن شواهد الفطرة النقية التى لم يلحقها الفســـاد والإفســـاد ـــ وهو وهم سائد ـــ لأن فطرة الإنسان جاءت لكى تتقدم جميعـــاً بكل عناصرها ومقوماتها ـــ وعياً وغرائز وميولاً وعواطـــف واستعدادات وملكات كلما تهيأت لها أسباب وظروف تقدمـــها ، وترتد وتتخلف إن اجتاحتها أسباب وظروف مؤدية لارتدادهـــا وتخلفها !

هذا ولكل جيل فى كل عصر أفكاره ومعارفه بالإضافـــة إلى ما انتقل إليه وارتضاه من أفكار ومعارف سابقيه ، وهـــذه وتلك ثباتها وقتى حتماً لارتباطـــه بزمانه ومكانـــــه وبالســـائد فيهما ـــ أما العقائد فمنها ما هـــو ثابت لا يتغير .. كالإيمـــــان بالخالق ـــ جل وعلا ـــ الذى خلقنا ضمن ما خلق من الأكـــوان

والمخلوقات ، ومنها ما هو فى حقيقته إضافات بشرية يزود بها الآدميون إيمانهم باستمرار خلال العصور بحسب درجة فهمهم وعلمهم بإيمانهم ، وهذه قابلة حتما للتغير شئنا أو لم نشأ .. لأن تقدم وعينا وتطور فهمنا ومعارفنا المتعلقة بأنفسنا وما حولنا ومنها من معالم هذا الوجود ــ ظاهرة كونية فينا لا سبيل إلى إسكاتها وإنكار وجودها وتجاهل تعارضها مع ما كان يتصوره بشأنها السابقون بغير حق !

فما يشعر به البشر من ثوابت فى حياتهم الفكرية والإعتقادية ، يتغير هو الآخر بالضرورة من طريق الامتصاص بالاعتيادات التى تمارسها الأجيال بلا انقطاع تحت نفس المصطلحات والمسميات والصفات . وما يشاهده بعضنا من بعض من صور التعصب والانحياز والعناد أمر سطحى فيه إعلان واعتزاز وليس فرعاً لجذور دفينة مستقرة .. إذ هو مجرد نفثات وهبّات قصيرة الأجل لاعتياد معاصر خال من التأمل والمراجعة والتقصى الذى ينتظر من عقل العقلاء ، وفيه ضجيج عامى من فريق من الناس وخلط ووعيد ومحاولات

للفت أنظار الجمهور طمعاً فى إشراكه فيما هم ودعاتهم فيه ..
إذ يستحيل أن تتطابق عقليات وسلوكيات أهل زماننا بمثيلاتها لدى من سبقونا ، فلا يوجد البشر إلاَ مختلفين أغياراً دائماً مهما بدوا للأعين متشابهين نتيجة القرابات والمودات والعيش معاً فى جماعات وأمم !

ثم إن أى آدمى مهما تكن قدراته من النمو غير العادى ـ لا يمكنه أن يضع فى ذاكرته وأن يتذكر إلاّ ما تصور هو أنه حدث : إما لأنه حدث مباشرة تحت حاسة أو أكثر من حواسه إن رأى بعينه أو سمع بأذنه أو أصيب هو أو أصاب غيره ، وهو حدث أدرك نبضه فقط بطريقته وفى ظروفه ، ولا يمكنه أن يدركه على حقيقته كلها بكل ظروفه ، وإما لأنه حدث مما نقل إليه عن طريق غيره سماعاً أو قراءة أو صورة شاهدها ، ويستحيل أن ينقل إليه غيره أكثر من بعض معالم الذى سمعه أو قرأه أو عاينه فى الصورة التى شاهدها .

فما مع البشر من الأحداث الماضية أو الحاضرة هو أمر ظنى فقط ينبنى عليه كل ما لدى البشر من اختلافات

واتفاقات مما رواه المؤرخون والمحدثون والكاتبون والعارفون والناقلون من أول الدهر إلى اليوم .

فنحن لا نتناول أحداث الحياة ولا نتفق أو نختلف على شيء منها ــ اعتماداً على يقينيات ومؤكدات ، بل فقط على ظنيات قريبة أو بعيدة عن الصحة بنسب لا يعلمها إلاّ الله ــ عز وجل ــ ولهذا لم يكن مناص من وجود الاتفاقات والاختلافات الدائمة بين البشر فى كل عصر وكل جماعة ، ويضمن بقاء هذه الحال من الاتفاقات والاختلافات فى حدودها المعقولة المقبولة ــ اعتراف أغلبية الآدميين بنسبية كل من الاتفاق أو الاختلاف بين الناس جميعاً !

فلماذا لم يوجد فى أى جماعة تسليم صريح أو مفروض بنسبية ما يثور من اختلافات داخلها أو خارجها ، واعتقد فريق من الفرقاء المختلفين أنه هو الذى على الحق الجازم القاطع المطلق ، كما اعتقد فريق آخر مضاد بنفس الكيفية والقطعية والإطلاق ــ استحال حينئذ أى التقاء بين هذين الفريقين ، وافترقا وتعاديا وبات كل ما بينهما ثارات ووقائع وخصومات

ومعارك قد تنتهى بدماء ودمار وتسليم من أحدهما للآخر بالإذعان المر أو العبودية ـ اللهم إلاّ إذا أفاق الطرفان تحت وطأة احتدام العراك وفداحة الخسائر إلى حكم الواقع ورجعا إلى الإقرار باستحالة أن يكون بين البشر حقوق مطلقة غير قابلة للتفاوض والتسوية والاتفاق !!

وكما تكون نسبية كفاءة الذاكرة فى التقييد والحفظ سبباً من أسباب تأهيل الآدمى للتقدم والتطور المطرد عبر الأزمنة والظروف ، قد تكون هذه النسبية نفسها من دواعى الاضطرابات والفتن والانقلابات والثورات والحروب إذا اعتاد الناس التسليم والتصديق المطلق لتوجيهات الحكام والرؤساء والقادة الذى يعتنقه سواد الجمهور من العاديين البسطاء المشغولين دائماً بالسعى على الأرزاق .

فالآدمى أينما نظر إليه بشىء من العمق نجده فى جميع توجهاته ووجهاته هو اليوم غيره بالأمس وغيره فى الغد مهما عاند واجتهد فى إعلان العكس لنفسه ولأنداده ، ومهما تمسك على الدوام بثبات ظاهرى أو بظواهر ثابتة من آباء

وأصل ووطن ودين ولغة وتـاريخ .. وهـي علاقـات تفيـد الاشتراك والحرص عليه ، لكنها لا تقف ولا تعوق اسـتمرارية التغير في الآدمي !

والعجيب أننا نعـرف مقدماً دواعي الخلاف والشـقاق في الأغلب والأعم ، لكن نتجاهل هذه الدواعي مع قدرتنا علـى توقيها .. نفعل ذلك إما جسارة وزهواً وكبراً ، وإمـا طمعـاً وإجحافاً ، وإما استهانة وبلادة وكسلاً .. ثم ننسى بعد وقـوع الشقاق نصيبنا في إحداثه فلا نلتفت إلاّ إلى الدفاع عن موقـف الجانب الذي ننتسب إليه بالاحتكام إلى الدفاع والهجوم والحـق والباطل والصحيح والخطأ والقيـام بـالواجب والإخـلال بـه والحلال والحرام والعدل والظلم !

والأعجب من ذلك شقاق النفـس فـي الآدمـي الفـرد وتعارض ميولها ومقاصدها تناوبـاً أو تعـاصراً ـ وضعـف وحدتها الشاملة المفروض أنها تقـوم بـالتوفيق داخلـها بيـن اختلاف المطالب والأغراض والمصالح والآمال والأهـواء .. هذا الضعف سائد الآن في جماعات عصرنا كلـها ، لا يكـاد

يوجد فارق فى أى منها ـ فى مقدار هذا الشغف ـ بين غنى الغنى وفقر الفقير ، أو بين علم العالم وجهل الجاهل ، أو بين ابن المدينة وابن القرية النائية !

وكل ما ذكرناه فى حاجة ماسة إلى الالتفات الجاد المطرد لا التفات الحكام والقادة وحدهم فيما يدبرونه ويكررونه ويراقبونه أو يفترض أنه محل رقابتهم ، بل إلى التفات كل فرد يظن أنه يقوم بما عليه من واجب اليقظة لما يجرى داخله وتظهر عواقبه خارجة .. وإلاّ فالأمور كلها خاصة أو عامة يستحيل أن تصحح نفسها آلياً وهذه خسارة للفرد والمجموع !!!

العزلة الغائرة ، فى الحضارة الحالية !

فى الماضى حينما كانت الأديان فى قوتها وسلطانها على الشعوب ، لم يكن الإنسان العادى المجهد المشغول طول عمره بقوته وقوت عياله ، يتردد فى أن يطرق باب رجل الدين الذى يتبعه أو يرتاح إليه فى ساعة من نهار أو ليل ، ليهديه فيما رآه مشكلاً عليه من أمور دينه أو دنياه ، وكان يفعل ذلك أيضاً الأقوياء والأغنياء وأهل الحل والعقد فى الجماعة دون أى تعفف أو تكبر، متمثلاً ذلك فى قدسية أعلام الملة وعلمائها ورجالها العامة .. فكانت السلطة الدينية ذات سيادة ومستقى للجماعة كلها من رأسها إلى قاعها فيما كانت تختص به من الأمور الجوهرية فى حياة البشر كلهم .

وذلك الماضى قد انقضى فعلاً ــ وإن لم ينقض اسماً ــ فيما يتعلق بالديانات ، لأن الإيمان بها صار ما يوجد منه ــ وهو قليل ــ هامشياً أدنى إلى الخيال والحنين إلى الماضى واللواذ بما كان عليه الآباء والأجداد ومحاولات لمقاومة

الحضارة الحالية وانتشارها على مستويات شتى في بقاع العالم .. فقد تجرع كافة البشر ما لم يتوقعوا تجرعه من أفكار وعقائد وقدرات وإمكانات وفرص وتدابير وتخطيطات حالة ومستقبلة ، مبناها ما بلغته العلوم الوضعية من تطور مذهل لم يتوقف مما شغل الآن عقول ونفوس جماهير الخلق في دنيانا عن المقدسات المعروفة وعن القائمين على خدماتها كباراً وصغاراً .. فلم يعد لها ولهم هيبة فعلية حقيقية تهيمن على النفوس وتقود دنياهم التي باتت في قبضة علمانية الحضارة الحالية بعد أن تغلغلت مبتدعاتها في كل شيء تقريباً ولم تسلم من تغلغلها دنيا رجال الأديان أنفسهم فهم يسكنون ويأكلون ويركبون ويتنقلون ويملكون ويخالطون ويختلطون لا يتمايزون في تعاطي هذه الحضارة عن غيرهم من الحشد الحاشد الذي تغلغلت فيه حضارة اليوم بخيرها وشرها !

فلم يعد لجمهور الشعب في الجماعات الراقية والتي في طريقها إلى الرقي ــ بعد ما لحق الديانات والملل من الوهن والتحلل ــ لم يعد لهم جهة فعالة معروفة للكافة يلجأ إليها

الخلق أفراداً وجماعات فى مشاكلهم خاصة أو عامة كما كان ذلك حاصلاً فى العهود والأزمنة الماضية . إذ انفردت السلطات المدنية العلمانية بالحكم والحكومة ولم تعد تتقيد فى حكمها بمشيئة سماوية ، بل أعلنت ومعها الجمهور أنها لا تحكم إلاّ حسب الأصول الدستورية ، أى بالمبادئ والقواعد المتفق عليها للحكم مع مراعاة الأعراف والتقاليد الدستورية . وهذه كلها أمور بشرية صرف يتفق ويختلف عليها الناس باختلاف ظروفهم وعصورهم ، فصار غير مقبول ما كان مقرراً أيام قدسية القيادات الدينية ، من التجاء أو إمكان التجاء أى آدمى إلى الكاهن أو الشيخ لحل المشكلات وإيضاح الحق والباطل والحلال والحرام .

فقد غضبت الجماهير لطول ما شاهدته وعانته سالفاً من ممالأة البعض للحكام المستبدين المتحكمين ، وانصرفت الجماهير من أوائل القرن الثامن عشر الميلادى إلى محاولات لا تنقطع لحماية وصيانة وتوكيد حقوق الشعوب فى مواجهة الملوك والأمراء ، وتكونت الجماعات والجمعيات والأحزاب

الاجتماعية والسياسية الشعبية من يمثلونـها ويمثلـون معـها الشعب ، فى مواجهة الحكام لمحاسبتهم والحلول محلـهم فـى مقاعد الحكم كلما أمكن ذلك ، وهؤلاء ـ فى الغـالب ـ مـن عامة الناس أصلاً .. بدأوا فى السعى على الرزق ، وكثيراً مـا انتهوا إلى بناء الـثروات والمقامـات وتأسـيس العـائلات ، فانقطعت صلاتهم بماضيهم المتواضع بعد تحقق نجاحهم فـى خدمة أنفسهم وذويهم .. ولم تستطع هذه الطوائف الاجتماعيـة السياسية ـ على طول التجربة ـ أن تملأ الفجوة التى خلـت من قبل بزوال سيطرة وقبضة رجال الدين على الشعوب !

فلم يعد ممكنا للآدمى العادى غير المحسوب علـى ذى نفوذ أن يلجأ إلى رجال الدين ، إلاّ بين الأقليات .. ولـم يعـد يمكنه أن يجد من هو مستعد لاستقباله ومساعدته فـى حـدود طاقته .. إذ الكل مشغول بمشاغله الخاصة أو العامة ، وليـس من بينها سماع الشكاوى أو الاستعداد لبـذل المعونـات إلـى المحتاجين إليها .. يرى برغم قدرته على ذلك ، أن هذا مـن اختصاص الجمعيات الخيرية ، وحسبه هو أنه يتبرع للجمعيات

بما يجود به إن طابت نفســـه بذلــك .. فالاتصـــال المباشـــر بالإنسان كإنسان ــ لم يعد من المألوف ولا محلاً للــترحيب ــ وصار فى نظر غالبية الناس نوعاً من الإستجداء يأباه الإنســان العادى الذى يحترم نفسه !

العزلة الغائرة فى حضارتنا الحالية !

ففى حضارتنا الحالية عزلة عميقة غائرة برغـــم كثافـــة السكان وكثرة تحركاتهم وانتقالاتهم ، وبرغم احتشاد وازدحـــام دور التعليم والاتصال والنشر والإعلام والترفيه بغير انقطـــاع نهاراً وليلاً ــ فآدميو هذا الزمان غرباء فى الحقيقـــة بعضـــهم عن بعض .. حتى الآباء والأمهات والأزواج والأبناء .. وهــذا شىء لا يبشر بخير ، لأن قلوب الناس قـــد أعوزهـــا الـــترابط الفعلى الذى تحتاج إليه الجماعات الحية الطويلة العمـــر التـــى يمكن أن تعيش متماسكة فى الشدة كما تعيش فى الرخاء !

وبرغم الجهود المبذولة بعناية وإصرار شــــديدين فـــى تطوير العلوم والمعارف الوضعية ، وفى إيجاد الجديـــد مـــن المخترعات والمبتكرات المتقدمة إلى حد بعيد والمبنية على هذا التطوير المستمر الذى لا يتوقف والذى تتســابق فـــى تحقيقـــه آلاف العقول والأبحاث والنتائج فى مشارق الأرض ومغاربـــها .. برغم ذلك كله لم يقترب الآدميون قرباً حقيقياً بعضهم مـــن بعض ، بل تباعدوا وزادت وضوحاً باطراد فردية كل آدمـــى وتعلقها بفرديتها وبالتمسك بها فى كل مناسبة ، وحرصها الذى لا يهـــدأ على اقتناص فرص النفوذ والتفـــوق والـــثراء بغـــير التفات إلى مطالب الإنسانية وموجباتها ووحدتها !!

ولإنقـــاذ حضارتنا الحاليـــة مـــن التفكك والدمـــار ـــ لا مناص ـــ فيما نعتقد من بذل مساعٍ جادة متناسقة متعاونـــة متلاحقة ـــ لمقاومة تلك العزلة العامة التى تـــزداد كـــل يـــوم انتشاراً وعمقاً .. وذلك لإعادة الآدمى العـــادى إلى ثقته فـــى إخلاص الآدمى المتعلم المتميز وإمكان اللجوء فى مشاكلـــــه إليه لكونـــه إنسانـــاً تفرض عليه إنسانيته إسداء المعونة بقـــدر

ما فى وسعه لمن يحتاجها من الناس دون استعلاء أو خشـــونة أو عــوض .. حينئذ قد تلتئم الفجوة المفزعة الموجـــودة الآن بين عامة الناس وخاصتهم ، وهى فجوة عاشت من قرون فـــى ظل أنانية القلة وحكامها وحكوماتها وطبقاتها وأنظمتها !!

تلك المساعى الجادة المتناسقة المتعاونة والمتلاحقـــة ــ مهمة ضخمة تحتاج إلى طول نفس وطـــول وصـــبر وعـــزم واقتناع .. هذه المساعى الجادة المخلصة لا يستطيع أى أحد أن يحدد ما يمكن أن يستغرقه تنفيذها تامة من عشرات الســـنين ، ولكـــن أهـــم مـــا تحتاج إليه فى بداياتها هو إيمان قلة قليلــــة من الصادقين المخلصين العلماء فى العلـــوم بكافـــة أنواعـــها وصورهـــا ، بضرورة سد هـــذه الفجـــوة الواســـعة العميقـــة الغائـــرة ، وفتح صدورهم وإتاحة ما فى عقولهم من معـــارف وخبرات وما فى قلوبهـــم من اهتمام وعطـــف لمعونـــة مـــن يحوجه جهله أو ضعفه أو حاجته من عباد الله ، لطرق أبوابـــهم .. فحبس هذه الإنسانيات الجوهرية عن أولئك المعوزين لبيعـــها بالمال أو بما هو فى مقام المال من النفوذ والجاه ــ شره وشر

جسيمان جـداً نحاول الآن تغطيتهما بقبول الأجور المخفضـة أو معافاة غير القادرين منها ولا نكاد نعطيهم فى الواقع عنايـة ما أو اهتماماً لأن ما نبذله لهم جهد هامشى لا يزحم اندفاعنـا لما نبذل لكسب المال والثراء والنفوذ !!

ويبدو أن كل آدمـى يجمـع درجـات وطبقـات مـن حضارات ماضية متنوعة مع درجـات وطبقـات حضارتـه الحالية ، لأنه موجود فى جماعة سبقته إلى الوجود وستبقى من بعد رحيلـه ، فـهو خـاضع حتمـاً دون أن يشـعر لتـأثير حضـارات متعددة زماناً ونوعاً .. لا يميز تمييزاً واضحاً مـا بين بعضها وبعض من فروق وتناقضات !

وهذا ملحوظ فى كافة المتعلمين تعليماً عالياً وفى كافـة الحكام وأصحاب المقامات وذوى الرياسات ــ وفى أصحـاب النفوذ السياسى والاجتماعـى والاقتصـادى وفـى أصحـاب الثروات العقارية والمالية . إذ يلاحظ لديهـم غلبـة المـاضى ونظرته من حيث الثقة والاطمئنان .. أما الحاضر فإنه يطفـو دائماً على السطح ..خاصة فـى البيانـات العامـة والخطـب

والأحاديث المكتوبة أو المقولة . لأن الماضى معروف أو مفروض أنه معروف أما الحاضر فى اتجاهه إلى المستقبل ففيه قدر من الغيب يتهيبه عادة أهل الاحتياط والتعقل ولا يندفع إليه إلاّ المغامر !

إخفاقات الحضارة الحالية !

قلما تبنى الأعمال الثابتة الباقية عامة أو خاصة على أكتاف المغامرين المضاربين الذين لا تروج سوقهم غالباً إلاّ فى أوقات الرواج غير الطبيعى أو عند احتدام الضائقة العامة والقلق العام على الأرزاق !

فحضارتنا الحالية برغم تفوقها الهائل فى الدنيويات الذى لا يمكن أن ينازع فيه أحد ـ لم تنجح فى إيجاد جماعات جديدة متينة البنيان ، أو فى تحويل الجماعات القديمة الراهنة إلى جماعات أكثر متانة وأقوى بناء .. ذلك لأنها فيما يبدو لم يتحقق لها حتى الآن ذلك التأثير الأخلاقى الفعال اللازم لمتانة وبقاء أية جماعة كبيرة أو صغيرة !

ولا تزال الجماعـــات الحالية متحضرة أو فى طريقـــها إلى التحضر ـــ .. لا تزال تميز فريقـــاً مـــن البشـــر بمزيـــة الاستعـــلاء المعترف به على الآخرين ، لأنهم ملوك أو أمراء أو نبلاء أو وزراء أو قـــادة أو رؤســـاء أو زعمـــاء أو كبـــار أو أصحاب مقامات ورتب أو آباء أو أزواج ، وهى فيما يبـــدو أشباح باقية لماض قديم جداً من الألوهيات البشـــرية المختفيـــة خلف تلك الألقاب وما فى معناها .. وأصلها جميعـــاً شـــعور شخصى غير عادى بمزيد من القوة والثقة فى النفـــس جعـــل صاحبه يميل ميلاً شديداً إلى إخضاع بقيـــة الخلـــق لإرادتـــه ودفعهم إلى تحقيق ما يختاره فى محيطه بقدر سعة أو ضيـــق ذلك المحيط ، وقد فقدت تلك الأشباح فى زماننا الكثـــير مـــن نفوذها الفعلى .. لكن قيمتها لدى أصحابها مـــا زالـــت غاليـــة عزيزة عليهم وعلى ذويهم وأتباعهم ، برغم تقلصها وذبولـــها فى أعين العامة فضلاً عن الخاصة !

وتلك الأشباح لا تزال إلى اليوم تذكر الإنسان باستمرار بالماضى ، وتنقل جانباً من آثاره وبقاياه إلى حاضرنا .. وهى لذلك ـ وفى نفس الوقت ـ معوقات تعوق الالتفات الجاد إلى المستقبل الذى تتطلع له فى ظل الحضارة الحالية جهود العقول والعلوم والفنون التى لا تنى ولا تهدأ !

واستعمال الآدميين لكلمات الماضى والحاضر والمستقبل يجرى على ألسنتهم بسهولة ويسر كأنه بديهى .. لأن معنى الزمان لديهم عادة هو مدى استمرارية بقاء الحى وغير الحى من الكائنات ، ومعنى المكان هو شغل أو إمكان شغل فراغ أو فراغات بحى أو بغير حى .. ويتجاهلون تماماً أن الزمان والمكان فى الواقع من مصطلحات البشر .. ولا يستعملها إلاّ الأحياء حال حياتهم .. وربما يكون ذلك راجعاً إلى عقل الآدمى ونشاطه الذى يتخطى باستمرار حدود حياة الفرد متجهاً إلى وجود الغير من الأحياء وغير الأحياء ، وإلى وجود الكون على قدر تصوره للكون أو وجود خالق الكون ـ جل وعلا ـ بحسب إمكانية أو قصورعقل الإنسان فى إدراك كنه

اتصال ما بالخالق عز شأنه .. وهذه فى واقعها ميادين صعبة تختلف صعوبتها فى الإدراك والوثوق ـ وضوحاً وسعة ـ لكن تخفى هذه الصعوبة مسمياتنا اللغوية التى اعتدنا عليها فى التعبير عن تلك الميادين ، أو اعتدنا عليها فى الإشارة إليها .. وهذه الوسائل اللغوية السائدة فى كل جماعة وكل عصر قديماً وحديثاً هى التى يعتمد عليها البشر ـ غالباً وبصفة عامة ـ فى مصدقاتهم كلها .. وهى لذلك لا تبعدهم ولا تلهيهم عن الإستغراق فى الالتفات إلى مطالب حياة كل منهم وإلى إخضاع تلك المصدقات لهذه المطالب إذا لزم الأمر !. بأن يساير معنى تلك المصدقات حاجات هذه المطالب .. لذلك تطورت المصدقات بتطور المجتمعات لا العكس ، لأن نجاح حياة الحى هو غاية الغايات ، ولذلك فإن تضحية حياة إنسان لا تجوز إلاّ إذا كانت من أجل صيانة حياة أو أعراض عديدين والله أعلم .

فغالبية البشر فى أى عصر تتمسك بمعتقداتها بالصورة التى تجدها ملائمة للعصر وعلى مقدار ونحـو مـا تعتقـده ، وكل جيل يختلف في ذلك عن الجيل الذى سبقه قليلاً أو كثـيراً بحسب ظروفه وتقدمه أو تأخره ، لكنه يصر على زعم أنهـا ما زالت على حالها القديمة التى كانت عليها لدى آبائه وأجداده لأنه يستخدم فى شأنها نفس الأسماء والصيـغ والمصطلحـات والحركات والمواعيد والمواسـم والمراسـم ، مـع إطـارات ومظاهر وتجهيزات وأثاثات وأدوات تناسب العصر الحـاضر وتساير جيله وترضيه .. وقد يشذ البعض فيقلد متكلفـاً تقليـداً جزئياً قليل الجدوى لبعض ما كان يفعله الأسبقون مـن إطالـة اللحى وارتداء الجلباب وحلق الرؤوس ، لكنه يستحيل عليـه ـ مهما أخذ بالظواهر ـ أن يرد ذاته الحديثة ابنة عصرها إلـى أحوال الأولين الغابرين ! كما يستحيل عليه أن يحمل الأغلبيـة الغالبة فى مجتمعه وأمثاله من المجتمعات ـ على العودة إلـى الماضى الذى لم تعرفه تلك المجتمعات ولن تعرفه . وهذا فيـه من الاستحالة أكثر مما فى محاولة القفز بالشاب إلى الشيخوخة

أو ارتداد الكهولة أو الشيخوخة إلى الشــباب !!.. وقــد يــأثم ويشتط جيل وينال من هذا الإثم أو الشطط نصيب أو يــتراخى فينال جيلا أو أجيالاً تالية .. لكن ذلك لا يوقف قط ويســـتحيل أن يوقف توالى الأجيال واختلافها المستمر المبنى علــى ذلــك التوالى .. فهو من طبيعة الحياة فى سائر الأحياء !!

عالم الكلام والحماقات !

وعالم الكلام يغشى مساحة كبيرة من يقظة الآدمى فــى كل زمان ومكان وفى كل مجتمع ، وهو عالى الصوت مزدحم الخواطر سريع الإثبات والنفى والإقرار والإنكار على درجــات مذهلة من السطحية وقلة المبالاة بتحرى الواقع .. هذه الآفــات المتنوعة شوهت وتشوه الكثير مما معنا وفى أيدينا من معارفنا وأحكامنا على ما نحبه ونكرهه ونقبلــه ونرفضــه ونصدقــه ونكذبه ، ســواء فى الماضى والحاضر .. فينا أو فى غيرنـــا مما هو موجود فى الواقع والحقيقة أو نتصور وجوده فى الظن والخيال !

ولأن عالم الكلام بذلك الاتساع والعموم لا سبيل إلى إحكام رقابته وضبطه ، لأنه مرتبط ارتباطاً كلياً بكافة الاختيارات والميول البشرية .. وسلطاننا على هذا كله دائما نسبي ، ومن ثم لا يمكن إنفاذها أو تعطيلها لأنها طرق متاحة لتحقيق حاجات وضرورات ومطالب حياة الحي في جميع أدوارها وأحوالها وظروفها بلا استثناء ، بينما أشكال تلك الإختيارات والميول مستمدة باستمرار ــ وبكل أنواعها ــ من إمكانات واستعدادات وعلاقات وعادات وتصورات وموجودات المحيط ثابتاً كان هذا المحيط أو متغيراً !

ولا يستطيع الآدمي ــ أياً كان مبلغ عناده وعزمه ــ أن يتمرد من كل وجه على المحيط أو الجماعة فيما اعتاده وجرى عليه المحيط .. وتمرده إذا تمرد هو تمرد جزئي جانبي فقط .. يعبر به عن أمور لا يرضاها بأمور أخرى أصح أو أفضل في نظره ، أو لأنها تعبر عن تمرده وسخطه على محيطه ومقاومته إياه وازدرائه له للعيوب التي يأخذها

عليه .. هـذه العيوب التى قـد يطويهـا وقد يذيعها علانيـة فـلا ترضى فريقاً من الناس ، لكنها لا تكفى لإثارة تمردهـم ولا تصلح لإثارة غالبيتهم !!

وهنا ينبغى ألاّ ننسى أن ما نسميه العقل أو التعقل يحتاج إلى ما نسميه الإلهامات .. وهى دوافع تدفع عقولنا إلى رؤيـة أمور ومسارات يسلكها ويسير فيها العقل والتعقل ، ويخمد هذه الإلهامات إغفال الآدمى لها وتجاهله إياها وانصرافـه عنـها لعكوفه على المحسوسات التى فى داخله وخارجه فى ذاته وفى محيطه التى تشتبك بها وتنصرف إليها مصالحـه ومطامعـه واحتفالاته بنفسه ومن هم فى حكمها .

وربما كانت تلك الإلهامات منـابع ومصـادر تغذيـة فطرية لا غنى عنها لنمو عقولنا وتقدمها وتطورها . نتعـرض لنسيانها أمام انبهارنا وإعجابنا بما حققته عقولنا نحن .

إننا ندفع دون أن نشعر ثمن هذا النسيان لتلك الإلهامات بالحماقات التى لا أول لها ولا آخر .. هـذه الحماقـات التـى تواكب نمو وتقدم وتطور الحضارة التى نعيشها ، علـى ذلـك

النحو الأعرج الأبتر الأحمق !! لأننا جميعاً ـ خاصة وعامة ـ نحمل سموم هذا النسيان وننشر تدميرها لداخلنا الذى وجد ليحفظ سلامة خارجنا من التشوه ويضمن استمرار بقاء متعاون داخلنا وخارجنا .. وهو لا غنى عنه لإطراد نجاح الحضارة وبقائها .. هذا التعاون ينبغى أن يكون دائماً جاداً فعالاً من الجانبين بلا افتئات ولا تعالٍ وتعاظم وتيه ، لأن ذلك يجعل ذلك التعاون تبعية قليلة الجدوى . علماً بأن الانبهار ـ قصر أو طال ـ لم يخرج عن كونه شعوراً مفاجئاً قوياً بنجاح الذات مصحوباً بإحساس عارم بقيمتها ومنزلتها وسمعتها بين الناس .. وتلك انفعالات تأخذ من مخزون الآدمى الداخلى عمقه وتسلبه إياه ولا تعطيه ما يعوضه حقيقة ـ عنه لأنها تستغل وتستقطب حرصه الشخصى على تنمية أهوائه .

* * *

لا تكف مجتمعاتنا عن الإشارة أو الإشادة بما تصورته لدى هذا أو ذاك من مناقب تدعو للإعجاب والانبهار .. هذه المناقب قامت على أحداث وإنجازات كانت ومضت قبل أن يعترى أصحابها ما اعتراهم من ذلك ، وهذه آلية تنسى الآدمى اعتماده على داخله وأعماقه لأنها تحصر حركته بين أسباب خارجية للانبهار وأسباب خارجية للقنوط .. وهذه وتلك مصادر بعيدة كل البعد عن أعمال الإنسان وما يجرى فيها قبل أن يطمرها اعتياد المجتمع على عدم الالتفات إلى الأعماق فى هذه الأيام وفيما شابهها فى الماضى القريب أو الماضى البعيد !

والديانات السماوية دعوات يدعوها مبعوثون إلى شعوب ـ ملحوظ فى توجيهها إليهم تغيير جانب أو آخر من جوانب أعراف الجماعة وعدم التعرض بالتغيير إلى الجوانب الباقية بافتراض أن بقاءها محل احترام ممن يتمسكون بها ، فإن أخذ مكان تلك الأعراف ، أعراف غيرها أكثر وضوحاً ورقياً ، فحب وكرامة .. وقد سلمت كتب الأديان السابقة على الإسلام

بنظام الاسترقاق والرق لجريان الناس عليه واحترامهم له ، بينما واجه القرآن ما تغلغل عن الرق فى نفوس الناس ونظام المجتمع ، باعتناق سياسة تدريجية تغلق وتضيق أبواب الاسترقاق وتفتح أبواب العتق كفارة أو مكرمة ، حتى يساعد بذلك على إزالة هذا النظام الغائر فى حياة الناس فى ذلك الوقت ، ومن ثم فلا معنى للتعلق بذلك النظام بعد إلغائه فى العالم كله لأنه غير لائق بآدمية الآدمى فى هذا العصر .. وقريب من هذا الباب إعراض البشر الآن متدينهم وغير متدينهم عن تعدد الزوجات ، وهو ما عاقبت عليه بعض القوانين المدنية .. وكذا إعراض معظم الناس فى البلاد المتقدمة ، عن ركوب الدواب فى انتقالاتهم وعن استعمال المراكب الشراعية فى الأسفار ، واستغنوا عن الذهب والفضة فى سك النقود ، والتزمت الحكومات الراقية أو الساعية إلى الرقى ــ بتحمل أعباء المتعطلين والمعوقين والعاجزين والمرضى والمحتاجين للتعليم والتدريب مع إشراك الشعب كله بحسب قدرات طبقاته فى أداء الضرائب المفروضة عليه

لمواجهة نفقات هذه التكاليف وغيرها من تكـــاليف المصـــالح العامة الأخرى التى تزداد اتساعاً مع تطور المجتمع .. وقيـــام الحكومات بهذه التكاليف هو من أجل صيانة وتقوية اقتصاديات واجتماعيات الشعب ، وهو دور يستند القيام به إلـــى سياســة بصيرة لا إلى مجرد عاطفة خيرية كالتى يتميز بـــها الإنســان حين يستجيب إلى عاطفة الخير لديه .. فما زال أهـــل الخـير يعبرون من مالهم الخاص عن حبـــهم للإحســان بالصدقــات والمعونات والوصايا والأوقاف والمؤسسات الخيريـــة ، إلـــى جانب ما تقوم به الحكومات زيادة فى كماله أو تداركا لنقصــــه .. وتلك الاستجابة لعاطفة الخير والـــبر والصدقـــة تفرضــها الديانات السماوية وتوجبها على المؤمنين بها .

ولا يفوت البصير أن يلاحظ أن خيال المتدينين مـــن أى ديانة ينمو مع الأيام فى كافة الاتجاهات وينتشر باستمرار فـــى كافة الأنحاء من جيل إلى جيل ، ويغنى هذا الانتشار والاتســاع والتنوع والازدحام بـــالأحداث والآيـــات والعجـــائب ـــ عـــن الاحتياج للعمق ومتانة الأسس العقلية والمنطقية لتغلغل العقيـــدة

وتكاثر أتباعها إلى اليوم والغد وكثرة سيرها وتواريخها وما لا حصر له من شيوخها وأوليائها وعلمائها ومدوناتها .

والمتدينون مع اتجاههم الواعى إلى الآخرة ، المصحوب بإنكارهم لسلوك وإنكارغير المتدينين ـ يبطنون خوفهم من تجربة المحاولة الجادة لمقاومة تفاهة الحياة السائدة فى المجتمع . فهم على الدوام لا يغادرون منتصف الطريق .. لا يتركون الماضى قط إلى المستقبل ، بل يغرقون الحاضر الذى يعيشونه فعلاً فى سُحُب الماضى التى لا أول ولا آخر لها .. هذه السُحُب التى لا يمكن أن تهبط إلى الحاضر بأى حال لتصير واقعاً حياً يتجه إلى مستقبل ما .. يحدث هذا لأنهم ينشدون عودة ما مضى وانقضى ليريحهم من حاضر لا يرضيهم ولا يعدهم بمستقبل يكون خيراً من حاضرهم !!

ويبدو أن خطاب بعض الديانات لم يحفل كثيراً بمستقبل البشر على هذه الأرض لاهتمامه بقرب الساعة وضرورة التفات الإنسان للإسراع إلى الطاعة والاستقامة قبل أن تفاجئه القيامة !. فتعرضت حياة البشر للاحتياج إلى مسايرة العصور

واختلافها على مقدار كفاية من تولوا قيادها ومرونتهم وفهمهم لما هو جوهرى لا يتأثر بتغير الزمان والمكان . ومن ثمّ كان تعدد واختلاف التوجيهات والأحكام والسياسات وسعة وضيق النظر ودوام الانتقال من التشدد إلى الاعتدال والوسطية والعكس ، والعجز عن التخلص كلية من تردد القادة والأتباع بين شدة التمسك بالماضى البعيد أو القريب ، وبين إفساح الطريق للمستقبل بسعة أفقه ونضجه وفطنته ، وهو ما يمكن أن يشارك فيه الآدميون العقلاء جميعاً برغم اختلاف ماضيهم وماضى آبائهم . فطال لذلك على الناس انتظار الآخرة ، وباتت لغة الخطاب التى اعتاد عليها الناس فى الماضى عاجزة عن أن تؤدى الدور الذى كان يؤدى من قبل فى الاقتناع وترشيد الاختيارات لاختلاف العصر الحاضر عن الماضى لغالبية البشر ! . ومع التسليم بحاجة الآدميين إلى الدين دائماً إلاّ أنه يجب الالتفات فى خطاب الأديان أن يكون ملائما لمفاهيمهم وآمالهم وتفكيرهم وأشخاصهم فى العصر الذى يعيشون فيه ، لأن الدين لا يفرض فرضاً على

الإنسان بل يؤمن به بالرضا والاقتناع ويرغب فيه ويصر عليه باختياره واستحسانه إياه .

نسبية فكرة الخطأ والصواب !

ويبدو أن فكرة الخطأ والصواب لدى الآدميين دائماً فكرة لها معنى نسبى عام بشرى أخلاقى أو دينى أكثر منه نتيجة مادية أو قضية منطقية .. وهذه الفكرة فى مضامينها تساير الأزمنة والأمكنة ، وتتقدم وتتطور فى وقت على وقت ومكان على مكان ، وليست بأى حال ناموساً كونياً تخضع له الموجودات كلها . وقد اجتهد الآدميون فى العصور الحديثة فى توحيد مقاييس الزمان وتعميمها بحيث تقيس أعمار الأحياء وغير الأحياء وأجزاء الكون التى عرفها البشر القريب منها والبعيد مع محاولة تحديد مسافات وأحجام الأجرام التى فى وسعهم رؤيتها .. وصحة هذه الرؤية المعتبرة صحيحة الآن لدى معظم الناس ، هى صحة قابلة فى المستقبل للتعديل أو التغيير مع تقدم العلم الوضعى .. وينبغى ألاّ يكون ما نصفه

الآن بالصحة أو بالخفة موجباً لتكذيب ما صح عند عموم الغابرين فى الماضى أو لتصحيح ما كذبوه وأسقطوه من قبل ، لأننا دائما بإزاء حكم بشرى مرهون بزمانه ومكانه .. فلم يعد مناسبا التهويل فيما ورد ببعض كتب الأديان عن أن الخالق ـ جل وعلا ـ خلق الأرض فى يومين أو خلق الكون فى ستة أيام أو خلق سبع سماوات وسبعة أراضين .. فذلك وأمثاله كان معتقد الناس المطالبين بتغيير مللهم البائدة إلى الأديان السماوية التى لم يكن يعنيها إذ ذاك تصحيح المفاهيم التاريخية أو الجغرافية أو الرياضية أو الفلكية الشائعة بين سواد الناس وقتئذ .. فهذه أو تلك يجرى تصحيحها فى أوانه وأوقاته مع ترقى العقول وتطورها بتوالى العصور . فالأديان السماوية تساير فطرة مراحل النمو الأخلاقى والروحى والفكرى فى الجنس البشرى ، وتحاول تقويم ما يمكنها تقويمه من أعرافه وعاداته وسلوكياته إلى أن يبلغ فى تطوره درجة أن يتخلى نهائياً عن بقايا وحشيته وغفلته ونزقه وجشعه .. هذه الوحشية

التى بقيت فيه من دهـــور حيوانيته التى حجبت إنسانيته آمـــاداً لا يعرف طولها إلاّ الخالق عز وجل !

كمال الإنسانية

وربمـــا كانت بداية الآدمى عند الديانات الســـماوية ، هـــى كمال الإنسانية وتمام العناية الخالقة باســـتعداداتها ، وأن ما اعتراها من الانحراف والطيـــش كـــان ومـــا زال بتـــأثير الشيطان وظروف حياة البشر على الأرض .. وهـــو تصـــور أخلاقى سام مقصود من أول الأمر لدفع كـــل آدمى رشيد فـــى زمانه ، إلى أن يترك الانحرافات التى يمارســـها أو يمارســـها غيره لأنها غير لائقة به ، وأن يجذبه ذلك بقوة للعـــودة إلـــى الصورة الأصلية النقية التى كانت محلاً لعناية الخالق عز وجل ورعايته ابتداءً ، وما زالت محلاً لرحمته وغفرانه بعد ذلـــك .. علما بأن تصور الآدمى ملازم لوجوده ووجود نسله وجماعتـــه ودينه ووطنه وتاريخه واجتماعه واقتصاده وسياسته وعلومـــه وفنونه وآدابه ، ولازم لنشاط عقله وعواطفه وآماله وإدراكـــه

لحاضره ومستقبله فى الدنيا والآخرة . وهو فردى وجماعى ووقتى عرضى أو ملازم متمكن لا يخلو منه تفكير أحد فى أية لحظة !

والقدرة على التصور أساس ليس عنه غنى لكل معارف الآدميين فى الماضى والحاضر والمستقبل ، ولكافة اكتشافاتهم وابتكاراتهم واختراعاتهم ومهاراتهم ، ولجميع إلهاماتهم ونبوءاتهم ومعتقداتهم ، وبها فصلوا دنياهم عن أخراهم وميزوا ذواتهم – فيما بينها وعن جميع الأحياء ، كما ميزوا الحى عن الميت منهم ، ورفعوا قيمة حياتهم ووزنها عن كل ما فى الكون .. وبهذه القدرة على التصور اتصلوا بالخالق – جل وعلا – وعبدوه ودعوه وتوسلوا إليه بمختلف الوسائل وخاطبوه واستجدوه واستعانوا به واتجهوا إليه وأعرضوا عنه ، فلا غرابة فى أن يمتلئ تصور البشر منذ وجدوا بالخالق – جل وعلا – وبالكون الهائل العظيم وبالدنيا والآخرة ، وأن يمتلئ بالمتغيرات المناسبة أو غير المناسبة لحالهم وظروفهم وعصورهم .. وهى تغيرات حدثت وستحدث

باطراد فيهم ما بقى جنسهم ، لكنهم لا يفطنون لذلك فى أغلـــب الأحيان .. ذلك أن تصورنــا ــ أياً ما كان نوعه وقيمتـــه ــ هو إدراك ما لتجربة ما بشرية صرف فصار جزءاً لا ينفصـــم عنا وليس جزءاً من الطبيعة ، بل هو صلتنا الأولى والأخـــيرة بها كآدميين فى محيط سرمدى هائل لا نتعدى أن نكـــون فيـــه ذرات متناهية الصغر !

اللغة والحياة والأحياء !

كافة اللغات التى معنا الآن ـ نحن الآدميين ـ هى من صنعنا .. دفعتنا إليه استعدادات موجودة فى خلقتنا .. وهى أصوات وإشارات وحركات مسموعة أو مكتوبة أو مصطلحة بطريقة أو بأخرى ، للتعبير عن حاجاتنا ومشاعرنا وإرادتنا وأفكارنا ولحفظ ما تحفظه منها ذاكرة الآدمى لننتفع به ما استطعنا .. تنمو وتتطور مع نمونا وتطورنا وتساهم فيهما ، وإذا انعدمت انعدم وجودنا كآدميين ، واستحال اتصالنا بدنيانا وأخرانا على أى وجه يمكن التغيير فيه أو نقله أو تدوينه أو تسجيله .. إذ لا يمكن تصوره أو التفكير فيه بغيرها ، لأننا لا يمكن أن نتصور أو نفكر أو نختار أو نقرر بدون لغة !

ونحن لا نلتفت للّغة ودورها الحاسم الأساسى فى حياتنا مثلما لا نلتفت إلى دور التنفس أو دور اليقظة أو الوعى ، لأن هذه كلها أساسيات ملازمة لحياتنا الطبيعية لا نأبه لها عادة بل ننساها معظم وقتنا وعمرنا .. منذ وجدنا ونحن ندفع ثمن

هذا النسيان باستمرار .. ندفعه أوهامـــاً وأطماعــاً وشــهوات وغباوات وضلالات وخصومات وعداوات نسيء فيها استعمال اللغة واستخدامها إساءةً لا يغتفرها العقل الفطن ولكن يســـيغها دائما الكسل والبلادة والخفة والاستعجال والتقليـــد والغــرور ، نضيف دائماً عوضاً عما نستبعده منـــها ، فصــــارت جبــالاً حملناهـــا ويحملهـــا التالون من بعدنا توارثاً أو تتبعاً . إذ اللغة لغة الناس عامة وإن اختلف محصولـــها بـــاختلاف الأفـــراد والأوساط والحضر والريف والبلاد والعصـــور .. ولا يتمـــيز فيها المتسلط بسلطانه ولا القوى بقوته ولا الغنى بغناه !

لا نعى شيئاً بغير لغة ما ، ولا نؤدى عبادة بدونـــها .. ولا نفطن قصداً فى جد أو هزل إلاّ عن طريقها .. ولا نتحــاب أو نتعادى إلاّ ونستعملهـــا .. ولا نعمـــل أو نَعْـــرف أو نتعلـــم أو نُعَرّف أو نُعَلّم شيئاً ما كبر أو صغر إلاّ معبراً عنه بألفــــاظ وعبارات ومصطلحات أو حركات نابعة منها صادرة عنـــها .. ولا نولـــد أو نمـــوت إلاّ خبراً تحملـــه لغـــة .. ولا نفـــرح أو نحـــزن ولا نستيقظ أو ننـــام ولا نكـــد أو نرتاح ولا نـــأكل

أو نجــوع ولا نبنى أو نهدم أسرة أو قرية أو بلدة أو جماعـــة أو دولة إلاَ بلغة !

ولغات البشر تدريجية كحياتهم .. تبدأ مما لا يكاد يكون ثم تنمو بالتدريج ثم تتحدر ، وهذه " التدريجية " موجودة فـــى حياة باقى الأحياء ما نعرفه منها وما لا نعرفه .. وهى تلاحــظ كذلك فى غير الأحياء وتكويناتها ، وربما كانت فى منشأ الكون العظيم كله بكل أجزائه وتكويناته .. وتدريجية الإنسان الفـــرد تساير تدريجية لغته فى جماعته ، بمعنى أنها تبدأ فى كل حياته وتنمو مع نموها وتتدهور مع تدهورها .

ولأن حياة الجماعة أطول بكثير جداً من حياة الفـــرد ، فإن محصول لغة الجماعة أوفر دائما مـــن محصـــول آحـاد أفرادها فى عصر كل منهم ، ومن ثم وجدت فـــى الجماعـــات القواميس والمعاجم لمساعدة الأفراد علـــى الإحاطـــة بمعـــانى ألفاظ ومصطلحات لغاتهم حسب حظها من التقدم فــــى زمـــن وضع كل معجم . وبذلك أحاط الآدمى فــــى جيلـــه بمعـــانى الألفاظ فى الأجيال السابقة مع ما استجد من الألفاظ ومعانيـــها

فـــى جيله ، فتشابكت الأجيال بعضها ببعض وشعروا بأن كل جماعة ذات لغة واحدة باقية فيها برغم توالـــى حركـــة توالــد الأفراد وزوالهم !

ولأن الفرد الآدمى فى أية جماعة متقدمة أو متـــأخرة ، يمكنه أن يتعلم لغة أية جماعة أخـــرى ويتحدث بهـــا بطريقـــة ما ، بل ويكتبها على مستوى قدراته وأحيانا يجيدها ، لذلك فقـد عرف الآدميون من قرون طويلة ماضية أننا جميعاً أناس برغم اختلاف الأوطان والأجنـــاس والألـــوان والأحجـــام والسحـــن والأديان والأعراف والآداب والقوانين فى كل زمـــــان ، كمـــا عرفوا أننا جميعاً ــ برغـــم دوام ذلـــك الاختـــلاف ــ أمكـــن ويمكن أن نتزاوج ونتناسل ونمتزج وتظهر معالم امتزاجنا فـــى أفرادنا وجماعاتنا بدنيا واستعداداً وسلوكاً ولغات وعـــــادات .. نتوارث ذلك الامتزاج ونستديمه بحيث لم يعد يوجد بيننـــــا الآن جنس نقى صاف خالص من ذلك المزج بصورة أو أخـــــرى . وذلك فيما يبدو هو أساس قـــدرة الآدميين على التكاثر والتقـــدم والتطور ، وهذه مزية ثمينة جداً ربما ترجع إلى أن نمو عقـــل

الآدمى قد تأخر أحقابا عن نموه البدنى ، فلا تعزى خطـــوات التقدم فى بداياتها الماضية أو الحـــاضرة إلاّ لتمســك بعـض العقول بها واجتهادهم فى استنباط كل مـــا يســتطيعونه منــها بالتفاتهم إلى ما تكشف عنه مواهب الموهوبيـــن والجماعــات المتحضرة التى حاولت وتحاول بنشر التعليم ، بث الاســتثارة فى عقل الإنسان العادى لكى يشارك مشاركة فعلية حقيقية فـــى التقدم والتطور ، وهى محاولة محدودة النجــاح ربمـــا لغلبــة انكباب المتعلمين والمعلمين على النفع المادى الذى بـــات لـــه المقام الأول فى أعين الكل إلاَ من ندر !

ومعنى ألفاظ وإشـــارات وتراكيب اللغة ــ أى لغـــة ــ فى المعاجم وفى الاصطلاح العام فى الجماعة، يخالف دائمـــا مخالفة قليلة أو كثيرة المعنى الحى فى المناسبة الحية التى يعبر عنها فعلاً أى آدمى باللغة . وهذا وإن كان باباً مفتوحاً للوهـــم والإبهام لكنه أولاً وأخيراً باب أساسى جاد لا تستغنى عنه اللغة لكى يتسع نطاقها وقدرتها على مسايرة الظروف التـــى قلمـــا تتماثل بين فرد وآخـــر .. وهو اتساع أدى ويؤدى باســـتمرار

إلى مرونة اللغة وسعتها تلقائياً نتيجة دوام الإستعمال البشـــرى الحى والذى يحيى لغته بحياته . ولا يحجب هذا اعتياد الآدميين السائد أنهم يفهمون مقصود الآخرين ومقصودهم هم من طريق اللغة وحدها . ومن هذا جاء فيما يبدو ــ ما يشاهد بين النـــاس من إساءة التأويل والفهم ومن الريبة والشك ومن المبالغة فـــى التحفظ والاحتياط ومن حسبان المكر والغدر وعواقبهما ! .. ــ فتفشى اللغة واتساعها ويسرها على الألســـن والأقـــلام قلـــل بالضرورة من الثقة والأمان بين البشر ، لأنه زاد فـــى تعقيـــد حياتهم فى مجتمعاتهم وجردهم أو كاد من البســـاطة وســـلامة النية . فلم تعد الكتابة ولا توثيقها تقويان على رد مكر النـــاس وزيفهم ومقاومة المكر بمكر مضاد ، فبدأت مع الوقـــت تفقـــد فائدتها !!

فلا مناص من عودة الناس إلى قدر ثابت من الاســـتقامة الداخلية إن كنا جادين فى الإبقاء على ما بلغنـــاه فضـــلاً عـــن حرصنا على الزيادة فيه .. إذ من الحماقة المهلكـــة أن ننـــهب ونسلب ما أجهدنا أنفسنا فى بنائه وإشادته وكسبه .. فمن ينـــهب

ويسلب من المجتمع الذى يوجد فيه ليعيش وينفع وينتفع ، ينهب فى الواقع ويسلب نفسه وهو لا يشعر على المدى الأطول الذى ينبغى أن يحسب العقلاء حسابه ، وليس هذا حال معظم الخلق الذين يتصارعون دائما على منافع شخصية عاجلة الجدوى ظانين أنهم قادرون على حفظها والاحتفاظ بها إن حصلوا عليها ، وهو ظن لم ولا يصدق قط !!

فالبشر جميعاً بلا استثناء غرقى تماماً فى اللغة بمعناها العام .. نخاطب بها السماء وتخاطبنا ونخاطب بها الأرض وتخاطبنا ونخاطب بها الكون عسى أن يستجيب لنا .. إذ لا نستطيع أن نتصل بغيرنا على الإطلاق إلاّ بلغة بشرية أو حركية مبنية على معنى ألفاظ هذه اللغة ، ولغاتنا البشرية دائمة الولادة والتنمية للألفاظ والمعانى والتراكيب والأساليب فى نطاق بشريتها لا يمكنها أن تتخطاه فى أى ظرف .

ومراتب فهمنا لمعانى لغاتنا لا حد لها فى التسامى أو فى الانحطاط .. وهى فى الحالين مراتب بشرية متقدمة متطورة أو متدهورة متأخرة فى موازين البشر . وفى كل جيل تختلف

درجة التمسك بالتسامى أو التمسك بالانحطاط ــ وهو ما يغير باستمرار طابع كل جيل وكل عصر ويزيد أو ينقص صعوداً أو هبوطاً من حضارة المجتمع !

واللغة تستخدم وتستعبد الآدميين فى أكثر الأحيان ، وتقودهم أحياناً إلى حقائق وإيداعات وتقودهم أحياناً إلى أوهام وأحلام وأباطيل وأساطير تتسلط على عقولهم وتتحكم فى سلوكهم وتصرفاتهم ، فتأخذ مقام الدين فى الديانات ومكان العلم فى المعارف والعلوم وتأخذ أيضاً مكان نفوذ الفضائل فى الأخلاق والأذواق والعادات . وكثير من ذلك كلام فى كلام صرف ــ لايعدو الأقوال إلى الأفعال ولا يعبر عن واقع فعلى أو عن فهم بديهى يقبله العقل السليم ولا يأباه أو يلفظه ! وذلك الكثير بحلوه ومره وسمينه وغثه يلوذ بما يسمى بالمجمع عليه أو بالمأثور المعلوم أو بالمتفق عليه الآن أو يتمسح أحياناً بإلهام الأولياء والقديسين أو بالاستناد إلى الثقات من العلماء وأهل الذكر العارفين ، فيتكاتف سلطان اللغة ومخزونها وماضيها على امتداد نفوذها فى حاضرنا لكى يظل يمسك

بزمام الحاضر كعادته الدائمة التى ينحاز إليـــها حتـــى اليـوم ملايين الخلق قلبا وقالباً !!

فنفوذ اللغة فى أعماقنا كأحياء متغلغل منتشر انتشـــاراً ممتداً فى كـــل اتجــاه فى وعينـــا ولا وعينـــا وفـــى عقولنـــا وعواطفنا وفى يقظتنا ونومنا وفرحنا وحزننا وعلمنـــا وجـــهلنا وخيرنـــا وشرنـــا ! .. هذا النفوذ متغلغل فينا هذا التغلغـــل ، منذ أن عرفنا أنفسنا مـــن أبعد الماضى إلى أقرب الحـــاضر .. لا يستطيع الآدميون أن يأخـــذوا أو يعطوا أو يقرروا أو يلغـــوا أو يقبلوا أو يرفضوا أو أن يجدّوا أو يلعبـــوا أو أن يتعـــارفوا ويتواصلوا ويتقاربـــوا أو يتنافـــروا ويتباعـــدوا أو أن يوالـــوا أو يعادوا دون لغة !!

* * *

فى وسع البشر كجماعة فى تنظيـــم اســـتعمال اللغـــة بوضع قواعد وأعراف وعادات واســـتعمال لـــهجات وابتـــداع اساليب وصور للتعبير اللغوى ، لكن ليس فى وسع أحد التحكم التام والسيطرة الخارجية عليها .. لأنها أولاً وأخيراً لغة آحـــاد

الناس فى خصوصياتهم وعمومياتهم معاً .. وكثيراً ما يتصل ويتسلل ما يستعمل فى الخصوصيات إلى العموميات والعكس ، وليس فى مقدور أحد أن يحول دون ذلك .. فاللسان واللغة يغلبان كل قيد يفرض على الآدمى الحى بين وقت وآخر ويتحديان كل رقابة لأية سلطة أو سلطان . وهذا من الأسباب الأساسية لدوام تغير المعتقدات والأفكار والأحوال والظروف والعصور والأجيال واستحالة السيطرة الكاملة الدائمة على ذلك التغير !

فهل يمكن معالجة الجانب السائد التلقائى فى اللغات بالجانب العقلانى منها ؟

يبدو أن نسبة العقلانية دائماً أقل بكثير من نسبة التلقائية ، وأن الزيادة المستمرة بعامة فى عدد السكان تحافظ على هذه النسبة المختلة برغم ما يبدو من انتشار المدارس والمعاهد وتقلص الأمية وتوافر الكتب والمكتبات وغزو الإذاعة المسموعة أو المرئية لكل دار تقريباً . لأن هذه جميعاً تعنى أولاً وأخيراً بنموها هى ونجاحها فى الانتشار والإقبال ،

ولا يهمها كثيراً تقويم أفهام الناس وإيقـاظ عقولـهم وتوسـيع مداركهـم .. فزوال ما يسمى بالأمية بتعليم القـراءة والكتابة لا ينقص من الجهل العام والسطحية ، ولا من انتشار المحاكـاة الإرادية أو غير الإرادية بطريقـة غـير واعيـة ، ولا مـن استحباب الكسل والفرار من المجهود والاعتياد على الخمـول ! وهذه كلها أسواق مفتوحة الأبواب لذيـوع وامتـداد الجـانب التلقائى فى كل لغة وكل جماعة ، وهو ما ترحب به وتسـانده ميولنا العاطفية والحيوية .. وهى قوة يُحسب حسابهـا دائمـاً تعيننا علـى الاستمساك بالحياة الفطرية الخاملة التى لا تحتـاج إلى العقل والتعقل !!

ونحن دائماً نتصور إمكان الجمع بين النفع والانتفاع فى كل عمل نقصد ونعنى بتنفيذه ، ونتناسى أن دافعنـا الأساسـى إليه هو جانب الانتفاع الشخصى به أولاً وأخيراً انتفاعاً ذاتيـاً خالصاً لأنفسنا !. فنحن منذ خلقنا نغلف بطريقـة أو بـأخرى أغراضنا الذاتية بإطار خارجى من إمكان الانتفاع والانشـغال بالهم العام ثم لا تلبث هذه القشرة الخارجية أن تتهاوى وتتطاير

وتبرز فيها أمانينا وأطماعنا ومعها الاتهامات والشكوك وفقدان الثقة العامة الذى يودى بحضارتنا . إذ أن مساعينا العامة والخاصة يعوزها دائماً الإخلاص وصدق النوايا ، وهما عاملان لا يحفل بهما الآدميون كثيراً فى أى زمان ومكان برغم لزومهما لاستمرار نجاح الأعمال والمشاريع والبرامج والسياسات !

واهتمام حضارتنا الحالية الهائل بالإعلان والدعاية ، معناه استخدام اللغة وتأثيرها فى عواطف وميول البشر لاصطياد واجتذاب الرغبات والقرارات من الجمهور بإذاعة أفكار وتصورات يمكن أن توقظ الآمال والأهواء والميول التى تستهدف الدعاية والإعلان إيقاظها!! .. فليس فى عملية الإعلان والدعاية قصد رئيسى إلاَ كسب المعلن الأكيد والربح المحتمل لصاحب الإعلان أو راعيه المكلف بهما تحقيقا لمصالح الطرفين .. فلا يراعى فى هذا النشاط الهائل أكثر من النفع الشخصى للقائمين به ولمن قاولوهم على القيام به ، إذ لا يسأل المعلن أو الداعى ولا من كلفه بالإعلان أو بالدعوة ، عن

ضمان صدق أو نفع ما روجه لدى خلق الله الذين انقادوا إليـــه ولبوه ونفذوه ، فهذه مجازفات تستخدم لغة سائدة فى مجتمعاتنا واعتدنا عليهـــا رغم عدم إلزامها والتزامها بالأمانة مع كـــثرة ما تثيره من الإغراء والإغواء .. ولا يكاد يستثنى من ذلك ــ نظــراً لخصوصية طبيعته وطبيعة ونـــوع المشتغلين بـــــه ــ إلا الإعلان المتعلق بالأبحاث والدراسات والمؤلفات والنـــدوات والمؤتمرات العلمية .. سواء بالنظر إلى خصوصية وطبيعــــة ونوع المشتغلين والمهتمين بهذا القطاع الجاد ، أم .لأن مثــــل هذه الموضوعات محل عناية واهتمام فـــــى البـــلاد المتقدمـــة وموضوع مراقبة جادة مستمرة من جهة القيمة العلمية ومبلـــغ مـــا تحتوى عليه مـــن المعرفـــة مما ينفع المشاهد أو الســامع أو القارئ .. فلا تحتاج ولا يحتاج المعنيون بها إلى الأســاليب الدارجة للدعاية والإعلان ، وتتسلح فى شيوعها وفى تقديمـــها للناس بمنظومة هذه القيم التى لم توجد بعد فى دوائر التجـــارة والصناعة والسياسة والفنون والآداب !

ونحن ننسى لشدة الاعتياد ، أن اللغة ـ أية لغة حية ـ هى السجل الأساسى الرئيسى الأول والأخير لحياة كل آدمـى حى فى هذه الدنيا .. منه وبه يتكلم ويتخيـل ويتذكـر ويحلـم ويعرف ويجهل ويعقل ويهجر ويحب ويكره ويقبـل ويرفـض ويدبر ويتدبر وينفرد ويتجمع ويصالـح ويعـادى ويعلم أنـه يحيا وأنه يموت .. يظل فى هذا السجل ما معنا الآن وما كـان معنا فى الماضى وما نتصور أنه سيكون معنا فى المسـتقبل ، وينطفىء هذا كله تماماً إنْ توقفت اللغات عن عملها الدائم الذى نعيش به ومعه !

وذلك النسيان طبيعى ولا يفارق حياة البشر الواعية فى أغلب الأوقات ، لأن وعى الآدمى فيما يبدو هو وذاكرته عبارة عن لفائف وطبقات بعضها فـوق بعض . ونحـن قد اعتدنـا ألاَّ نلتفت إلاَ لما يجرى على السطح ، كما اعتدنا أن نغفل فـى أكثر الأوقات ما يجرى تحت السطح فى الأعماق ، مثلما نغفل ما يحملـه هـذا السطـح ومـا يحمله هذا الحامل له صعودا أو نزولاً وغوصاً إلى الأعماق . ونحن ما عشنا نزيد من تلـك

اللفائف والطبقات ، وتغطى هذه الزيادة المستمرة دائماً سطحاً سابقاً بسطح جديد يأخذ مكان السابق فى وعينا المألوف الحاضر !

وقبولنا المطرد لتعاقب الأسطح على هذا النحو بغير مقاومة واعية ، هو سبب ملازم من أسباب تعقيد حياة البشر الذى يتزايد مع تضاعف عددهم وتزاحم أنشطتهم اليومية الخالية فى أكثر الأحيان من الإمعان فى الانتباه والحرص على التحقق والتثبت .. إننا ندفع باستمرار ــ معجلا ومؤجلا !! ــ ثمن تراخينا وخمولنا وجمودنا وتشبثنا بما اعتدناه !.. هذا الثمن هو معاناتنا التى لا تنتهى لذلك التعقيد الذى لم نعرف بعد كيف نعالجه بوسيلة ناجحة نقتنع بها ونثابر عليها وعلى استعمالها !

ويبدو أن عقول كثرتنا إلى اليوم وإلى مستقبل لا نعرف مداه ــ أضعف من أن تفلح فى تحريك إرادتنا وعزائمنا إلى الإصرار على مقاومة عاداتنا التى تحبسنا وتحاصرنا وتسترسل إمعاناً فى إرباك حياتنا . وربما كنا من طريق

الخيال واللغة نبالغ فى تصور قدراتنا على الاحتفاظ بهذا الـذى نتوهم أنه تقدم وترقٍ فعلى ، بينما هو فى واقعه موجـات قـد تعلو لكنها سرعان ما تنحسر وتتراجع وترينا وتذيقنـا مـرارة فشلنا ويأسنا ! ..

إننا فى معظم الوقت فى ضباب يقظتنا الذى لا ينجلـى فلا نرى الأمور والأشياء على حقيقتها ، وإنما نشـاهدها مـن بعيد من خلال الكلام والأوصاف والفروض والمعانى والأفكار والنظريات والاعتقادات والعلاقات والارتباطـات والشـكوك والعداوات وما نسميه تارة بالسلام وتارة بالحرب !

وما زلنا منذ الأزل ـ خاصتنا وعامتنـا ـ نستسـهل الكلام فى الأغلب الأعم ، ونتقاعس أو نحتاط أو نجفل ونتفادى الأفعـال ، ومـن ثم تتسع لدينا المسافة بين القول والفعـل ، لأن الفعل يلازمه جهد وأحيانا مشقة وأحيانا أخـرى مسـئولية مادية أو معنوية .. وبذلك تنفصل لغة التشدق والكلام عن عالم السلوك والأفعال ، يوردنا فى هذا إخلادنا الفطرى إلى الراحـة ونفورنا من الأفعال التى يلازمها الجهد والعـرق والمشـقة ،

فضلا عـن أثقال المسئولية المادية والأدبية الملازمـة لـه ، بينما لا ندفع عن الكلام ضريبة ، ولا نؤدى جهدا ، ولا نتحمل مشقة !!.. والمراقب لسلوكيات البشر كثيرا ما يلحظ كم ننحاز للمبدأ أو المعتقد ونحتد به أمام الآخرين أو عليهم ، ولكن نعافه ولا نطبقه على أنفسنا أو أحبابنا ، لأن قواعد كل منا متفاوتـة المكانة والمتانة والاستجابة للزمـان والمكـان والظـروف !. ويبدو أن هـذا ليس منه بـد لأن جماعاتنا بأشكالها الضيقـة أو الواسعة غالبيتها الغالبة تلقائية لا ترحب بالجد والالـتزام ، ولا بالتوجيه أو التدريب الذى يفرض عليهـا عناء الكد والكدح والالتزام !!

وليس هذا بعجيب على الجماعات البشرية !! ، وإنمـا العجيب أن تقوى تلك الجماعات أو بعضها ــ على النـهوض والانتعاش برغم ما لديها من هذه المثالب والمعوقات .. يحـدث ذلك بفضل إصرار ويقظة وثبات قلة متماسكة فـى الجماعـة تحافظ على يقظتها وتمسكها لمدة من الزمن كافية لإشعال حمية الكثرة وإلهاب طموحاتـها وأطماعـها ، فيصـر الآدميـون

العاديون فى أنفسهم مزايا خاصة كانت خافية من قبل عليـــهم يستحقون بسببها أن يسودوا ويتفوقوا على سواهم ! فإذا وفقـوا للوصول إلى تلك السيادة وذلك التفوق فقد سجلوا مسعاهم هــذا فـــى تاريخ البشـــر ، وظـــل ذلك علـــى الدهـــر مذكـــوراً .. لهم وإن لم يدم ويبق بسبب ارتدادهم إلى الـــهوان والضعـــف والتأخر !!

* * *

لأن اللغة عنصر أساسى فى تركيـب وعـــى الآدمـــى وذاكرته ، فإنه لا يمكنه أن يشعر بذاته إلاَ بصورة أو أخـــرى من صورها ، إذ هى عنده الطريق الرئيسى للتعبير عن الـذات وعن وجودها وتميزها على غيرها مـــن الأحيـاء بالمشــاعر والخواطر وبالعلاقات الأســرية والجواريـــة والاجتماعيـــة وبروابط العمل والإقامة وبالانتماء إلى ناحية أو بلدة أو وطـــن أو جيل أو عصر .. وبدون اللغة لا يشعر الآدمى بهذا العـــالم وما فيه مما يعرفه وما لا يعرفه ، كما لا يمكن أن يشعر بحــق أو واجب أو غنى أو ملك أو نفوذ أو سلطة أو بنقيض هذا من

الصفـات الأخـرى .. فدنيانا بأسرها ـ خاصة أو عامـة ـ لا تستغنى عن اللغات فى أية لحظـة أو أى اتجـاه أو غرض أو ظرف .. لا يستطيع البشر فرادى أو مجتمعين أن يخطـوا أيـة خطوة داخلية أو خارجية دون استعمال لغة فى التعبـير عنها ، سواء فى خطابها للذات أو خطابها للآخرين !

وعند أغلبية الناس تعلو قيمـة القديـم الـذى اعتـادوا الرجـوع إليـه ، علـى قيمة الجديد بالغاً ما بلغ سنده حتـى فى البلاد المتقدمة جداً .. فهـم لا يقبلون جديداً من أحد إلاّ إذا لـم يعارض أو يتجاهـل أو يستخف أو يتصادم بقديم مـألوف معـروف ، فإذا انزلـق إلـى هـذا المغمـز سَخَّفه النـاس إنْ لما يعـادوه انحيازاً منهـم لمـا ألفـوه ووقـروا عليـه مما قرأوه أو سمعوه واعتادوا من قديم قراءته أو سـماعه !!.. ولا جدوى من وضوح الدليل المعارض وقوة عارضته وحجـة منطقه إلاّ أن ينصاع الجمهور شيئاً فشـيئاً للتجربـة العمليـة الجديدة الناجحة ويعتاد الأخذ بها فيقيم بذلك اعتياداً جديداً !!!

اللغة ـ وأعنى بها اللغات بعامة أيا كانت أرومتـها ـ أوسع أداء دائما مما يعرفه أى آدمى جاهل أو عالم ، معرفة فعلية حقيقية ، لأنها مجموع قوالب عامة حتى فيما يطلق عليه اصطلاح " المعارف " .. وظيفتها أن تكون فى طوع تصرف الناس لكى تعبر بسهولة غير محدودة عن الأفعال والوقائع والأحوال الفعلية المعنية فى الزمان والمكان ، وعن الأفكار والمعانى وما هو عام أو خاص من الرؤى والخواطر والآراء والأفكار والتصورات والآمال والأمانى والأحلام والأوهام والمخاوف والنوازل والبلايا .. سواء فى هذا كله ما كان له وجود حقيقى أو مما يمكن فى العقل أن يكون له وجود أو مما يستحيل وجوده على الإطلاق !

ولم يوجد حتى الآن فاصل لغوى يمكن أن يفصل ويعزل بين هذه الأمور المختلفة أشد الاختلاف بحيث لا تتداخل ويختلط بعضها فى بعض .. وهذا عيب أساسى فى جميع لغات البشر حيّة وغير حيّة .. هذا العيب جعلها وما زالت كمجرد شبكات صيد لا يميز الرامى بأى منها تماماً حقيقة ما يريده من

طرحها .. الفصاحة أو البراعة فى اللغة ميزة ذاتية لها وحدها لا تمتد قط إلى الزيادة فى الصدق أو إلى واقعية واقعها أيا كان ! .. لأن الفصاحة أو البراعة عامل فنى عاطفى يزداد قوة مع تجاوز الواقع أو تغطيته فى الكثير من الأحوال كما فى الشعر القصصى وكما فى المناظرات التى يعنى فيها المتناظرون بالغلبة بأكثر مما يعنون بالواقع ومقتضياته ولوازمه !

ثم ينبغى ألاً ننسى أن اللغة وحدها هى التى تمثل وتحدد أوضاع وروابط وصلات ومقامات ومراكز الآدميين فى مجتمعاتهم من قرابات وأنساب وألقاب وأسماء ونعوت ومراتب وأعراف وعادات ومسلمات .. وهذه جميعاً لا يخلو أساسها من ترجيحات وظنون وافتراضات وانحيازات ومصادفات وميول وحماقات وغباوات !!!

كما ينبغى ألاً ننسى أن القدرة على الفهم ومداه لدى الآدمى ، تختلف باختلاف أعمار وظروف الأفراد ، كما تختلف باختلاف الأجيال والأفكار والأزمنة تقدماً أو تأخراً

.. وتلك الاختلافات الدائمة الوجود فى الجماعات البشرية كلـها خلقت وتخلق حتماً قدراً مشتركاً من التفاهم المؤقت بين سـواد المجتمع يكوّن ما يعرف بالرأى العام ، حيث لا تسمح التربيـة ولا الأعـراف أو العـادات أو المشـارب ، باتسـاع الفـهم والتعمق فيه .. فهـذان إلى يومنا هذا وإلى مستقبل لا نعـرف أمده ، من خصائص خاصة الخاصة ، وربما كان ذلك بسـبب انصراف جهود عامة الناس إلى الأعمـال البدنيـة والتنفيذيـة اليومية التى لا تتيح لمعظم المشتغلين بها متسعاً مـن العافيـة والوقت للمران على الفهم ومعاناته ، فعاشوا ويعيشـون علـى مقدار ما وصل إلى كل منهم مـن منقـول الأقـوال والآراء والمعتقدات .. لايميزون بين قديمه وجديده ومتروكه ومقبولـه وسقيمه وسليمه ، وفى وهدة هذا النقل غير الواعـى يتكـرر مااعتاده الناس من جيل إلى جيل دون أن يثـير ذلـك غضبـاً أوملالاً !

فـــى تلك الطبقــات المطحونـــــة بضغـــوط الحيــاة وإيقاع السعى لا يتطلع جُل من فيها لأكثر من رزق يومه ويوم من هم فى عنقه !! ولم يلطف من ذلك انتشار الصحافة وكـثرة ما تذيعه وتنقله وسائل الإعلام وما تملأ به الأسماع والعيـــون من التوجيهات والدعايات ومحاولات الإقناع والترفيه والتهدئـة أو دغدغة مشاعر طبقات الشعب العامة بأن فى يدها الحـل .. لـم يعد هذا يفلح لأن الطبقات تعرف أنها عاجزة عـــن ذلـك تماماً ، ولم يعد يفلح لأن المقصود الأكبر للصحافـــة ووســائل الإعلام هو الانتشار وما يعود عليها بسببه من نجـــاح وقـــوة وربح مادى ومعنوى.فضلاً عن القدرة على تحريك الجمـــاهير وتوجيهها إلى مايراد ، وأثر ذلك على السياسة والسياسيين فى الداخل والخارج !!

ذلك إلى أن العمومية نتيجة للذيوع والانتشار ــ بيســرها وسهولتها ــ هى اندفاع عام إلى السطحية السوقية وتخل علنــى صارخ عن الحرص على " فردية " الآدمى وشعوره بأعمالــــه واعتزازه بها وإصــراره الملازم لذلك علـــى تنمية الفطنـة

وتنقية وتصفية الرؤية والفهم . هذا هو أس الترقى الحقيقى للآدمى داخلاً وخارجاً ومنبع خصوبته التى لا تعرف حداً .. ولا يستطيع الآدمى ــ فيما يبدو ــ أن يلغى أعماقه أو يغيرها بجديد من صنعه هو لكى تؤتى أكلها ، وإنما يستطيع دائماً أن يغذيها وينميها بما يستمده من ركام النقل الذى يتراكم بغثه وسمينه مع تتابع الأجيال !

وحضارتنا الحالية المعتمدة على تطبيقات علومنا الوضعية إلى حد بعيد ، لا تعنى بأعمال الآدمى العادى أو العبقرى عنايتها الشديدة جداً بجانب أو آخر من جوانب الطبيعة الكونية وأعماقها ، فنشأ بذلك فيما يبدو خلل فى توازن كل منا وضَعُفَ فينا الالتفات إلى داخلنا عن التفاتنا واهتمامنا بخارجنا ، وهانت لدينا قيمة وأهمية أعماقنا وضمائرنا إزاء انصرافنا واغترارنا بالحصول على المنزلة والنفوذ والتأثير فى المحيط الخارجى برغم أن ذلك عرضى وقتى دائما يموت قبل أن نموت !!

إننا جميعاً وبغير استثناء ضحايا انبهارنا بعظمة وسـعة وتنوع وتفـرع وطرافـة وتجدد ما نشهده فعلاً ووهمـاً مـن العالم الخارجى ، ولم نعد قادرين على الخـلاص مـن ذلـك الانبهار الذى ترحب به وتخدمه وتشجعه لغاتنا بأفواج وأمـواج الأسماء والمسميات والمصطلحات وطرق التعبير والتصويـر التى لا أول لها ولا آخر !!

إننا أبد الدهر نحب ما نخترعه ونزعمه ونحب حبنا لـه وننتهـى بتصديقه والتمسك به والدفاع عنه ، لأنه بات جانبـاً لما فى ذاكرتنا وإن لم يكن مما نملكه فعلاً .. ومن هنا اختلـط فى ذاكرتنا ما تخيلناه وما اخترعنـاه وما عشقناه مما تصورناه بما أداه أو اخترعه غيرنا !! .. فكل منا يحمل هذا الخليط على درجات متفاوتة بحسب الأعمار والتربيـة والوسـط وتقـاليده وظروفه .. ونادراً جداً جداً أن تلقى إنساناً لم يكذب فى حياتـه قط ، ومن يدعـى أنه كذلك مغتر لا يصدق نفسه ولا يصدقـه أحد !. إن معظم لياقتنا ومجاملاتنا وحفاوتنا واحـترام بعضنـا لبعض وتحياتنا وتهانينا ومواساتنا ــ خال من الشـعور الصادق

.. ألزمتنا بهـا العادات الحسنة من أجل مـا يسـمى بحسـن العلاقات وسلاستها ، وهذا نوع من السياسة والكياسة فقـط .. فرضتها علينا مجتمعاتنا من قديم !! .. وفى كل لغـة اهتمـام خاص بهذا الباب وبتوفير حاجياته ، لأن البشر ـ متحضريـن أو غير متحضرين أغنياء أو فقـراء متعلميـن أو جـهلاء ـ شديدو الحرص على الإقرار بالاعتبار لكل منهم على حسب ما يرى أنه جدير به فى عين أمثاله ومن هم دونه أو فوقه !

فاللغة أداة خطيرة جداً مشتركة في كل البشر ، تـلازم الحى فى حياته ، وتتعقبه بعد وفاته فى آثاره وسيرته وخلقـه وقومه وأمته وجنسه .. وهـى تعيش مع الآدمـى كما يعيـش الآدمـى معهـا لا يفارقهـا نهائيـاً إلاَ فـرداً فرداً وبـالموت أو بالغيبوبة !

وبقاء اللغـة بعد اختفاء من يختفى من الآدميين ، هـو من أهم وأخطر أدوارها في حياة المجتمعات ، لأنه يصـون معظم تراث البشر فى جعبة ألفاظـها ورموزهـا وأصواتـها وأسمائها وأفعالها وحروفها وتراكيبـها ومدلولاتـها وعامـها

ومجملها ونطقها وخاصها ومخصصها ومعرفتها ونكرتـــها !!
فالآدمى يتحدث لغة الماضين فى يسر وطلاقة للتعبـــير عـــن معانيه ومشاعـــره وتعامله هو فى حياته وحيـــاة أمثالـــه مـــن الأحياء ، ويحاول دون أن يشعر ــ فى كل مناسبة تمر بـــه ــ إدماج جديده الحى فى المسار القديم للغة التى يتكلمها ، فيظـــن فـــى الأعم الأغلب أنه على طريق من سبقوه لا يتجـــاوزه .. وهو ظن تكذبه حياته بكل معالمها التى تخالف حياة من ســبقوه كما خالفت حياة أولئك حياة الذين سبقوهـــم !.. فإدماج الحـــى فى ذلك المسار القديم الذى ليس له إلاّ وجود اصطلاحـــى إزاء ما اعترض مساره من إدماجات وتعديلات ، هو إمعان اعتدنـــا عليه ــ فى عدم اليقظة وفى الاكتفاء بالقالب والاستغناء بالشكل عن التنبه للجوهر والموضوع !

ولا يوجـــد فـــى أية لغـــة تعريف عام متفق عليـــه ، لأن وعينا على سعته محدود بحدود قدراتنـــا اللغويـــة التـــى وظيفتها الأساسية هى التوضيح من أجل الفهم والحفظ البشريين

المخلوقين المحكومين على الدوام بقدرات البشـــر وما يطـــرأ عليه وعليها من تغيرات وأحوال لا تنتهى ما استمرت الحياة !

صدق الاعتقاد ..

فيم يكون ؟!

قد يحسب البعض أن صدق الاعتقاد محض كلمة تقال ، تشير إلى الاعتقاد فى النظر أو الأفكار أو الأقوال أو المذاهب أو النظريات ، إلاّ أن صدق الاعتقاد لا يكون حقيقة إلاّ فى السلوك .. السلوك هو المعيار الحقيقى لصدق الاعتقاد .. يكون الإنسان صادق الاعتقاد حقيقة حين يسلك سلوكاً معيناً بإخلاص مدفوعاً إليه فقط باعتقاد معين يؤمن به أو يحترمه وليس لمحض مصلحة شخصية تحركه أو تدفعه .. حين ذاك فقط يكون الإنسان صادق الاعتقاد ويكون اعتقاده فى هذه الحالة اعتقادا صادقاً لا محالة .. أما إذا كان مدفوعاً بمصلحة شخصية ــ يخالف فيها ما يستلزمه الاعتقاد الذى ينتسب إليه ــ فإنه يكون لا محالة كاذباً فى اعتقاده مكذباً له !!

وهذا لا يمنع الآدمى من أن يتقلب عليه الإخلاص وعدم الإخلاص ، فيخلص فى سلوك ثم لا يخلص فى سلوك آخر ويعود وينتصر إخلاصه فى سلوك ثالث وهكذا ! وهذا هو حال معظم البشر فى معظم الظروف فى كل مكان وأوان .. فى السابق وفى اللاحق . فلا يتفق اعتناقهم لعقيدة بمعنى انتسابهم لها مع صدق وإخلاص ذلك حقيقة فى كل سلوك فعلى .. ذلك لأن الإخلاص واقع ، ولأن الانتساب إلى العقيدة وصف خارجى كلى عام ، يتم إما بالميلاد وإما بالإشهار .. يرجو المنتسب أو يرجى منه أن يصدق فى كل سلوك.. وهذا رجاء قد لا يتحقق فى بعض الظروف ، أو فى معظم الظروف ، ولا يخل عدم تحققه بإصرارنا على الانتساب للعقيدة ولا بتسليم الآخرين بانتسابنا لها ـ لأن ذلك الانتساب له فى ذاته وجود اجتماعى وفردى مستقل ، ويمثل جزءاً من قيمتنا فى الجماعة التى تدين بتلك العقيدة ، والتى نعتبر أنفسنا على الدوام وأياً كان سلوكنا من أعضائها .. فالمنتمون إلى عقيدة معينة يعتبرون أنفسهم من أصحابها اجتماعياً وتاريخياً ـ بغض

النظر عن تحملهم أو عدم تحملهم لمسئوليتهم قبلها وشعورهم أو عدم شعورهم بهذه المسئولية !

وهذا إن كان يكفى لبقاء نوع من المكانة وقدر من القيمة للعقيدة فى عواطفنا المتعلقة بالكرامة الفردية والقومية ، مثل مكانة الأسرة أو مكانة الوطن ـ فإنه لا يكفى لا لمنع هذه المكانة من التقلص والضمور ، ولا لضمان نمو هذه المكانة باستمرار كما تنمو العناصر الحية فى واقعنا الذى نعيشه فى عصرنا .. هذا لأن العقيدة مهما أطريناها وغالينا فى قيمتها عندنا ، ليست على الإطلاق حية حياة قوية فاعلة فى سلوكنا اليومى .. إذ إنها مختزنة بحالتها القديمة منذ قرون اختزانا لا يسمح لنا بأن نفهمها فهما معقولاً مسايراً لتطورنا فى زماننا ، أو يسمح لها بأن تمتزج امتزاجاً تلقائياً ذاتياً مع ما نعرفه ونعيشه ونحبه ونفضله من المعارف والعلوم والفنون .. هذه الممارسات التى نزاولها فعلاً كل يوم مع ما نعرفه ونعيشه فى عالم لم يعد يطيق العزلة العقائدية

أو الفكرية أو القومية وصارت فيه كل أجزاء الأرض مفتوحة أو تكاد لسائر الناس من جميع النحل والملل !

وحتى الآن لم تفقد الجماعات متحضرة أو غير متحضرة نوبات التعصب العقائدى . وهى نوبات مفاجئة يصعب تبريرها بأسباب حقيقية ، لأن سببها حالات قلق تمر بها هذه الجماعة أو تلك .. تجد المتنفس لقلق العامة فى سهولة إثارة الغيرة وإساءة الظنون بأن هناك مخاطر تهدد العقيدة من جانب أعداء لها موهومين أو مزعومين !. وهذه النوبات تجىء متقطعة قد يفصل بين الواحدة والأخرى سنوات من السكون والانصراف إلى شئون الحياة بجدها ولهوها وهامشية عقائدها !

وفى كل نوبة من نوبات التعصب العقائدى ، يتخذ التعصب شكلاً من أشكال الاهتمام السطحى المبالغ فيه بتفاصيل العقيدة وطقوسها رجوعاً بها إلى الكتب القديمة وما فيها من مسائل ومما كان يهم الأولين مع محاولة تقليدهم فى العبادات وبعض المظاهر الخارجية السطحية الشكلية دون الجوهر الحقيقى للدين أو العقيدة .. وبمرور الوقت تبهت هذه

المظاهر السطحية الشكلية الخارجية ويسخف المقلدون والمقلدات ، ويتضح للكل انعدام وجود الجذور الحية التى يمكنها العثور على التربة المهيأة لاستقبالها ولبعث حياة جديدة فى العقيدة وكفالة نمائها فى البيئة الحاضرة مسايرة لظروفها وأحوالها وأذواقها وإمكاناتها المعنوية والمادية والروحية الحقيقية !

ولا يكاد التعصب العقائدى بين المسلمين يفترق فى طبيعته تلك عنه بين غير المسلمين من المسيحيين واليهود ، فهو يثور بين آونة وأخرى لدى هؤلاء وأولاء ـ مع شدة القلق الاجتماعى ويأس العامة من علاج أوضاعها الراهنة واتجاه أنظارها إلى الماضى البعيد متوهمة أن حكم العقيدة كان سائدا فيه وحياة الناس كانت لذلك رخية .. ولأن هذا اليأس قد شمل النظم الدينية الرسمية فى البلاد المتحضرة إلى الحد الذى جعل الدولة تنفض يدها من أمرها ، فإن هذا اليأس قد عبر عن نفسه فى انشقاق المذاهب الدينية المنظمة إلى فرق عديدة

يتسع منها ما يتسع ـ ثم يأخذ فى التقلص حين يتضح مع الوقت عجز وصفاته وعلاجاته وخيبة آمال الآملين فيها !

هذا ويبدو أن آخر ما يبقى من الاعتقاد لدى الجماعات ، هو قدرته على توليد وإثارة التعصب لدى عامة الناس .. فبرغم اعتيادهم على إهمال المعتقد والاستخفاف به فى حياتهم اليومية وتندر البعض منهم عليه وعلى طقوسه وعلى القائمين بخدمته ، فإن هؤلاء المستخفين حقيقة بالدين سرعان ما يتخذون لدى أى بادرة صورة مدهشة للتعصب وفى مبالغة تدعو للاستغراب ! ومن المفارقات التى تدعو إلى مزيد من الاستغراب ، أن التعصب ـ وهو يستقطب انفعالات ومدارك ووعى الآدمى ـ يستقطع من مساحة العقيدة ذاتها فى وجدانه ، حين يصرف الانفعال وأسقام التعصب عن الإيمان العميق الذى يتغلغل هادئا ثابتا يملأ حنايا الآدمى ويشده على الدوام ـ بلا تعصب ولا انفعال ـ إلى جوهر الهداية ونقاء الضمير وكمال الإيمان !

المسلمون بين الماضى والحاضر !

لثمانية قرون أو أكثر أو أقل ــ ظل المسلمون ينظرون إلى غيرهم من علٍ من ناحية الحضارة ويعتبرونهم متخلفيــــن بكثير .. ويبدو أن هذه النظرة التى كانت على نحو ما غـــير مبالغ فيها ، قد ترسبت فى أعماق المسلمين فلم يشغلوا أنفســهم قط بتتبع أحوال البلاد غير الإسلامية وتطوّرها .. ورسخ فــى أذهانهم بقاء واستمرار صورة التخلف التى كانت عليــها تلــك البلاد وفى تلك القرون الخالية .. ومثل هذا حـــادث الآن فـــى أوروبا وأمريكا .. فلا يهتم الأوروبيون والأمريكيـــون اليــوم بتتبع أحوال البلاد الإسلامية وتطورها ،لأنهم رسخ فى أذهانهم صورة عن المسلمين وتخلفهم عمرها ثلاثة أو أربعة قرون ــ صرفتهــم عن أن يجدوا عند المسلمين معرفة ما ينتفعون بـــها أو فنــاً تفيد منه فنونهــم . الغـــرب عموماً بات ينظر إلينــــا مـــن علٍ ، وذلك أمـــر يغيظنا ويضنينا ويفجر لواعجنا علـــى ما بتنا عليه !! .. وهنا فارق هام لم يلتفت إليه أحد ، هـــو أن غير المسلمين الآن ، ومنذ عدة قرون لديهم شوق إلى المعرفــة

أشد ، وإصرار على التطوير أقوى ، وجـــرأة أمضـــى علـــى المنافسة الحرة فى الحياة الواقعية على هذه الأرض !! .. هـــذا الفـــارق بين هـــذه القوى التى انطلقت ، وقوانا التى تعطلـــت أو خمدت أو كادت ، يرجع إلى عوامل عديدة لم يعد مقبولا أن نقعد عن استجلاء أسبابها واستشراف كيفية الخروج من وهـــدة مانحن فيه بسببها !

نحن ، والذات .. والحياة !

حياتنا إذا تأملناها بشيء من الهدوء والصبر والفهم فــي أية مرحلة من مراحلها أطفالاً وصبياناً ومراهقيــن وشــباناً ورجالاً وكهولاً وشيوخاً ، وجدناها حبات كحبات المسـبَحة .. كل منها منفصلة عن أختها .. يربط بعضــها ببعــض خيــط متصل من لحظة مولدنا إلى لحظة فقدان الوعى عند المــوت ! .. هذا الخيط الذى يجمع بقوة تلك الحبات ، هو شعور كل منــا الدائم بذاته ، وأنها هى هى فى كل حال وظرف وصحوة ونوم وفــى كل زمان ومكان .. لا يغفل أحد منا قط عن الشــعور بهذه الذات .. صالحنا وطالحنا ، عارفنا وجاهلنــا ، صغيرنــا وكبيرنا ، متحضرنا وهمجينا .. ذات كل منا تحمــل وحدهــا بغير شريك كل ما لقيه صاحبها من تبعات حبات مسبحة الحياة التى يجمعها ذلك الخيط الشعورى الذى بدونه لا يمكن أن توجد فردية كل فرد ومعها شخصيته .. حول هذا الحبل تنمو فرديــة كــل منا يميناً أو شمــالاً ، أو تجمــع بين اليمين والشــمال ،

ثم تذوى لكى تختفى من ذلك الوجـــود الفـــردى الشـــخصى ، كاختفاء حبات المطر فى البحر أو الأرض أو الجو فى عيـــن مـــن يراقبهـــا حال انفراطها من السحابة التى كانت تتماســـك فيها !!

ويبدو أن خيط الذات لدى كل منا تلتف حوله استعداداتنا ووعينا وإدراكنا وعواطفنا وميولنا ، لتساير وتشاهـــد بصـــورة أو بأخـــرى نمونا ونضجنا وذبولنا كما هو مكتوب لنا ..نحـــن لا ننتبه إلى أى من تلك الأمور إلاّ بقـــدر ما نشعر بـــه منـــذ لحظة ذلك الشعور .. فليس فى وسع أى آدمى الإحاطة مقدمـــاً بكل نصيبه من جملة الاستعدادات والمواهب المزود بها .. وقد يعيش ويمـــوت دون أن يفطـــن إلى وجـــود ما لديه من هـــذه أو تلك !.. ذلك أن وعينا وشعورنا بـــالذات جزئـــى فقـــط .. وسيبقى إلى ما شاء الله جزئياً مهما تنبه وتقدم وتطـــور إدراك الآدمى وفهمه لتكويناته وتركيباته الداخلية والخارجية ككـــائن حى .. وستبقى هذه فى معظمها غامضة إلى ما شاء الله ، على إدراك الآدمى وفهمه الكاملين !.

هذا الغموض يبدو كغموض الحياة نفسها التى لا يعلـــم أستارها وأسرارها كافة إلاً خالقها .. ومـــهما فـــهمنا وعلمنـــا واتسع ميدان فهمنا وعلمنا ــ فهو دائماً ميدان مخلوقات ذكية ، مهما اتسع ذكاؤها فإن له غاية ونهاية .. وميزتنا أننا لا نعرف ولا يمكننا أن نعرف تلك الغاية والنهاية .. لأن وعينا أو فـــهمنا لا يمكـــن أن يتوقف أو يشبع مـــا حيينا . فلم يولد آدمى قـــط إلاً ضئيلاً أبكم عاجزاً محتاجاً لشهور ولسنوات ينمـــو خلالـــها وعيه وعقله بقدر ما تسمح فطرته وبقدر ما يمكنـــه محيطـــه وتتيح له الجماعة التى هو ضمنها .. فميلاد كل منا هـــو آيـــة نقصـــه الدائـــم المترتب علـــى أنه وجد من عدم ليبقى لأجـــل لا يعرفه بل ومن المحال أن يعرفه !

وما تراه عقولنا بديهياً غير قابل للمنازعة ولا يحتـــاج لبرهان ، هو بقضه وقضيضه تقدير بشرى وليس ناموساً كونياً صحيحاً فى كل زمان ومكان .. هو تقدير رجحته عقولنا فـــى إطار قدراتها الدائمة التغير القابلة للاتساع والانكماش والتقـــدم والتأخـــر إبان مـــا كتب لجنسنـــا من وجـــود فى العالم الـــذى

لا يتعدى وجودنا ودورنا فيه وجود ودور حدث مـــن أحداثـــه مهما ضخمته عقولنا أو أوهامنا !

على أننا يجب أن نحس دائماً بأهميتنا فى الكون .. هـذا الإحساس ضــرورى لتستمــر ثقتنا فـــى أنفسنا ــ لا غــروراً أو تيهاً ــ وإنما لنستطيع بهذه الثقة فى قدرتنا أن نسعى ونحقق النجاح المستمر .. وهذا يستلزم أن نزيد باطراد فهمنا وفطنتنـــا وجدّنا ، وهو نجاح لجنسنا يرحب به العالم ليسانده فى ازدهـــار بقائه وترقيه !

نوايا البشر ومقاصدهم تختلف بداياتها عن نهاياتها مـــن حيث النتائج والآثار بالنسبة لعموم الناس ، وكثيراً مـــا تبـــدو النتائج والآثار فى أول أمرها انتقاماً وثأراً وتدمـــيراً وتخريبـــا وإفناءً ، ثم تصبح مع تغير النوايا والمقاصد بشـــائر ووســـائل خير عميم على سواد الناس لأنها أحدثت تطورات هامة جـــداً علمية وصناعية وزراعية وطبية وفنيـــة وحضاريـــة غـــيرت مستويات الحياة فى عالم البشر .. ما ينفع عموم الناس يبقـــى مع الزمن ويغطـــى نفعـــه الحاضـــر والمستقبل ، ويطمـــس

على ما مضى وانقضى من بدايات الســوء والشــر إلاّ بقايــا متخلفة هنا وهناك تهيج من وقت لآخر وتعكر أمــن الكــثرة ، ويبدو أن هذا لا مفر منه فى جنسنا !

والحياة بعامة فى الآدميين وغيرهم من الأحياء ، انتقال وحركة وتطور مستمر من بسيط يتدرج فيصير مركباً ، ثم من مركب إلى متعدد ومن تطور نحو النماء والزيادة .. ثم ينقلــب إلى نقص وذبول وفناء فى الزمن القابل وفى دورات وحقــب تتشابه دون أن تتكرر فعلاً فى أفرادهــا ومجاميعــها .. هــذا التشابه ينطوى دائماً على تغيرات حدثت لا تدركــها النظــرة المعتادة إلى أن تتراكم هذه التغيرات فيتضــح منــها اختــلاف الأجيال لدى أهلها وغير أهلها ، وهى اختلافــات تبــدو فــى الأجسام والملامح والنشاط والتفكــير والعــادات والمشــارب والآمال والمخاوف !

واختلاف أجيال البشر قد يضيق بسبب العزلة وقســوة الظروف وشظف العيش ، وقد يتسع مع تيسر الاختلاط ويسر الاتصال ومؤاتاة الظروف والفرص والأسباب التى تفتح أبواب

الكسب والأمل والحركة والتنقل . وهذه وتلك وإن كانت أسباباً لذلك الاختلاف الواضح ، إلاً أنها حوافز قد تحفز المحتاجين إذا فطنوا إلى احتياجهم وعرفوا سوء حالهم فى بؤسهم واقتنعوا بضرورة تخلصهم منه وسعوا جادين إلى تحقيق هذا الخلاص .. وقد نرى كل يوم أمثلة تترك ـ باجتهادها ومثابرتها ـ دوائر وقرابات فقرها المتوارث الذى عاشت فيه مع تخلفها وبدائيتها . لأن نقل المجاميع من التأخر إلى التقدم والتحضر فى زمن قصير ـ شىء شاق جداً لا ينهض به الأفراد عادة حتى لو أثروا وارتقوا وخلوا من الأنانية !

والآدميون فى كل زمان ليسوا وحدات حية متجانسة ملساء حريصة على تجانسها وملاستها ، وإنما هم دائماً تضاريس فيها الناتئ وغير الناتئ ، وفيها المقلد الملتزم بالمحاكاة والمتابعة أو الواقف عند ما عرفه من غيره وما عرفه غيره منه . وإلى هذا ربما ترجع قابليتهم لدوام التقلب والتغير ولكثرة تنقل وتوارد الخواطر والأفكار والعواطف بغير موجب معقول تحتفظ به الذاكرة وتستدعيه إن احتاج الأمر .

ومن هذا الباب تتوافد وتتزاحم فى رؤوسنا آلاف الآلاف مـــن الظنون والهواجس والمخاوف وآلاف الآلاف مـــن الأطمـــاع والاشتهاءات والملاذ مما لا حصر له من الريـــب والشـــكوك والمبادرات إلى الشائعات والقالة والاتهامات بلا ســـند .. لقـــد ألفنا من أول الدهر الرضاء بالغرق والإغراق فى ذلك البحـــر الدائم الاضطراب الذى لا يعرف له قاع ولا حدود ولايسلم منه آدمى حى !!

وقد اعتدنا ألاً نراقب أنفسنا لنعرف كيف نعى ونفكـــر .. فنحن فى واقع الأمر لا نعى ولا نفكر باستمرار ، ولا نعـــى ونفكر طول الوقت باطراد وتسلسل إذا وعينا وفكرنا .. وفـــى الغالب لا نعى ونفكر بنية التأمل إصراراً على الفهم والتحقـــق .. فوعينا فى ذاته هوائى ينتقل من موضوع إلى موضوع آخر ومن مقصود إلى مقصود مختلف تماماً بلا نظام أو تنظيم ، بل بـــلا تفكير أو تعقـــل .. وليس منـــا على الإطلاق من يلـــتزم أو يحـــاول أن يلتزم فى يقظته بالسيطرة على وعيه وتفكـــيره

أو حتى بأن ينظم كيفية استعماله لوعيه وتفكيره تنظيما عقلانيـاً دائماً فى كل الأمور والأغراض !

فى حياتنا الواعية والفكرية ما حيينا ــ دائما ما تتداخـل المصادفة ويتداخل القصد والهوى والتعقل والآليـــة والانتبـاه وشيء من الاندفاع والحمـق وشيء من البصيرة والفطنـــة ، ولا ينتظر منا الآن أو فى أى وقت أن نكون خـلاف ذلـك .. لأننا بتنا من الكثرة الهائلة جداً فى العدد والعادات والمشـارب وربما فى التكوينات ، بحيث يسـتحيل علينـا تعديـل أنفسـنا بالسرعة التى نطمع فيها أو نتصور تحقيقها فى أى اتجاه .

إنما الذى يتغير بسرعة وبسرعة فائقـة كلمـا تقدمـت البشـرية ، هـو الآراء والنظـرات والقضايـا والخطــط والمشروعات والحركات ولـيـدة الانفعـالات فـى الدعـوات والدعايات التى تتداولـها المؤتمـرات والمجـالس والنـدوات وتروجها إيجاباً وسلباً الصحف والإذاعات !.

ثم نحن لا نعرف بالضبط ما نعنيه بعبارة الرأى العـام ولا ما نسميه الجمهور ولا ما نقصده بكلمة الشعب أو الأمة .. وهذه تكاد تكون بدهيات ترددها الألسنة والأقلام فى كل مكـان ولا يتردد أحـد فـى استعمالهـا والإحالة عليها بلا اسـتئذان أو تحرج بفضل عمومها الشديد وغموضها الذى لا حدود لـه تحده وتتيح جلاءه وتفنيده لمن يريد أن يواجهه بعناية وفطنة !

* * *

المتأمل فى الحياة والناس قد يهولـه أن يجـد نقـائص الآدميين أكثر بكثير جداً من فضائلهم ، وأنهم يدأبـون علـى إسكات هذا التقابل المهين ، بقدرتهم على الانتفـاع بالاعتيـاد الذى ينسيهم معظم الوقت مهانة تلك المقارنة ممـا يشـجعهم أحياناً على استمراء النقص بل وعلى الغلو فيه عمداً وقصداً !!

علـى أن ما لدينا مـن نقائص وفضائل تظهـر لنـا أو لا تظهر ، أصلها هو وعينا بالفروق التى يميزنا إحساسـنا ووعينا بها .. وهذا هو سر فردية كل منـا .. فنحـن مـهما اجتمعنـا أو تفرقنـا ، وتواصلنـا وتقاربنـا ، أو انفصلنـا

وتباعدنا ـــ أفــراد نولــد أفــراداً ونموت حين نموت أفـــراداً .. مختلفون قــد نتشابـــه تشابهـــاً قويـــاً أو ضعيفاً من جـــانب أو أكثر ، ولكننا لا نتطابق قط ، لأن التطابق التام يذهب بوعى وفردية كل منا !

والتشابه القابل للاستمرار هو الذى يكوّن الأسرة والقبيلة والجماعة والأمة والبشرية ، التشابه وليس التطابق هو الـــذى يشكل هذا كله لأنه يتيح دائمـــا فرصـــا للاختـــلاف وانتظـــار المتغيرات والفروق فـــى الأحـــوال والأغـــراض والمشـــارب والعادات ، وهو ما يتيح فرصاً لا حصر لها إما للتقدم والتطور وإما للتأخر والركود والجمود .

وقدرة الآدمى ـــ متطوراً كان أو متـــأخراً ـــ علـــى التصور والوعى الذى يقتضيه التصور ، هى استعداده لالتقـــاط وإدراك أوجه المشابهة أو الاختلاف فيما يجرى داخلـــه الـــذى يشعر به ، أوخارجه الذى يؤثر فيه كائناً ما يكون !

نحن جميعا نأخذ معظم الأشـــياء علـــى التقريـــب .. وتصورنا لأمر ما أو لشيء ما هو دائماً لا يتجاوز تقريب ذلـك الأمـــر أو ذلك الشـــيء إلـــى وعينا وذاكرتنا على نحو مــــا . فلا يتجاوز وعينا فى تصوره صورة ما وعاه ولا ينفـــذ إلـــى واقعه فى ذاته أبداً ، وغالباً ما يكفيه ذلك لكى يعيـــش حياتـــه راضياً بها . فتقدمنا أو تأخرنا من حيث التطور والقدرة عليـــه ليس إلاّ نوعاً من القياس أو من الوزن لنجاحنا أو فشـــلنا فـــى حياتنا كبشر ، وفى موازيننا نحن فقط .. ولذلك عرف الآدمـــى من قديم حاجته الشديدة إلى الاعتقاد والإيمان .. وهو يعـــرف ضرورتها لحياته .. ولكنه لا يعرف حقيقتـــها ولا يمكنـــه أن يعرفها !.. ما يعرفه أن الاعتقاد والإيمان يكفلان له الطمأنينـــة والأمان والنجاة من القلق والتمرد والثورة واليـــأس والشـــعور الممعن المهلك باستحالة وجود حياة ممكنة لكـــائن واع عـــاجز ضئيلٍ فى هذا الكون الهائل المروع الذى يحيط به مـــن كـــل داخله وخارجه معاً .

وقد فشلت الشيوعية تماماً فى اقتلاع الاعتقاد والإيمان ـ من قلوب الكبار والصغار حكاماً ومحكومين ومتعلمين وغير متعلمين وأغنياء وفقراء .. أما أولئك الذين يتنكرون للاعتقاد والإيمان فما زالوا قلة قليلة جداً حتى فى البلاد التى سيطرت عليها الشيوعية سبعين عاماً !.. ما يشاهد الآن فى أماكن عديدة من ضعف سلطان ونفوذ رجال الدين على الناس ، هو رد فعل لإحساس الناس الواضح القوى بعجز هؤلاء عن التطور وقصورهم الشديد فى ملاقاة وخطاب القلوب والعقول بما يناسب تطورها .. واحتياج الناس إلى المدد الروحى نلمسه فى ترددهم الآلى على دور العبادة يترجمون بذلك عن حالة المحتاج الذى لم يجد بعد ما يشبع حاجات روحه .. هذه الرغبة فى الإشباع الروحى نلمسها ايضا فى ترديد الناس لصيغ الاعتقاد والإيمان إعراباً نفسياً عن إلحاح هذه الحاجات الروحية التى لم تجد بعد ما يشبعها فعلاً !

ويبدو أن الآدمى يشعر شعوراً غامضاً قوياً بحاجاته الروحية ، لكنه لا يعقل هذه الحاجات إلاّ من خلال أنشطة حياته الدنيوية وتعقله لهذه الأنشطة .. وهو حين يبتعد كليةً عن أنشطته الدنيوية يفقد اتصاله الحقيقى بحاجاته الروحية ولا يحملها عندئذ إلاّ خياله وحده واصطلاحاته ، وربما كان هذا هو موقفنا جميعاً من الحاجات الروحية !

وحاجاتنا الروحية جزء أساسى من حاجاتنا البشرية .. وهذا الجزء هو الذى يبنى حياتنا الروحية ، ونحن مطالبون بتبنى تلك الحياة الروحية وترقيتها وتطويرها مع تنمية وترقية وتطوير حياتنا البشرية الدنيوية باستمرار وإصرار ما حيينا .. هذا الترقى الروحى هو ضمان تنمية وترقى وتطور حياتنا البشرية بعامة !

ويبدو أن رسالات الأنبياء صلوات الله عليهم — وكلها مرتبط ارتباطاً وثيقاً بحاجاتنا وبنجاح حياتنا البشرية — هى هدايات وانطلاقات يسلكها ويحسها ويتمسك بالسير فيها الآدميون آمنين مؤمنين فى طريق الحياة المكتوبة لهم ..

هذا الطريق المتجه ـ بدايةً وأصلاً ـ إلى النمو والترقى والتطور إلى حدود لا يعرفها البشر ، ولا يمكنهم ما بقوا أن يعرفوها .

فتجميد الحاجات والحياة الروحية فى قوالبها الحالية أو الماضية على نحو ثابت لا يتحرك ، ربما كانت فى مداومة ومعاندة ضارة غير نافعة وغير مؤدية بالضرورة للمفارقة والتباعد بين حقيقة احتياجاتنا الروحية وبين الأشكال والقوالب التى نحاول بها إشباع هذه الاحتياجات ولا ننجح ! إذ يستحيل علينا أن يطابق سلوكنا سلوك آبائنا ، وكل ما نستطيعه هو المشابهة المعقولة المعنى والمناسبة .. وهذه المشابهة المعقولة والمناسبة لا يمكن أن توجد حقيقة فى أى آدمى إلاَّ عامة .. لأن حياة كل منا تتغير حتما فى تفاصيلها من حال إلى حال ، ومن عمر إلى عمر ومن فهم إلى فهم !

هذه المشابهة تقليد إما إرادى أو لا إرادى .. وهو على درجات لا آخر لها من الصدق فى النية والعزيمة ومن الإتقان والدقة فى الاستيعاب بالنسبة لموضوع التقليد ! فالمشابهة

ليست إلاً وضعاً عاماً جداً يجمع تحته ما لا حد له ولا عدد من الفروق والتباينات والاختلافات ، كما أن وعينا الذى نعى بـــه ذواتنا وندرك ونفهم ونجد ونلعب . هذا الوعى مليء بالشـــقوق والثغرات التى ينفذ فيها باستمرار آلاف مـــن رســـائل العقـــل الباطن الذى لا سلطان مباشراً لنـــا عليـــه .. هـــذه الرســـائل تعترض سير التعقل بالخواطر المفاجئة التى تأخذ مواقعها على سطح الوعى وتأخذ حظها من إرادتنا وسلوكنا وتصوراتنا !

فلم ولن يستقيم طريق وعينا استقامة تامة ، إنما يـــزداد استقامة وثباتاً ، ما ازددنا تقدمـــا وتطـــوراً والتفتنـــا بعنـــاد وإصرار إلى التزامها .. ذلك أن استقامة وعى الآدمى ليســـت إلاً فطنته ونضجه وحكمته التى يسيطر بـــها علـــى نوازعـــه ودوافعه واندفاعاته وانفعالاته العصبية عادة على الانضباط لدى معظمنا .. هذه الفطنة هى التى تعطى القيمة والمنزلة لخبراتنـــا وتجاربنا وحظنا من المعارف والعلوم والفنون فى كل عصـــر .. وبغير هذه الاستقامة يكون كل ذلـــك أقـــرب إلـــى العبـــث والمجازفة والتهور والتطرف والحمـــق ، وإن أغرتنـــا نتـــائج

بداياته بروعتها وبريقها أحياناً سيما بالاقتدار المعجـــب علـــى التصرف والتغيير والاســتحداث فـــى الماديــات واســتعمالها والانتفاع بها إلى حد المغالاة التى تصرف التفاتنا كلـــه إليــها لننسى أن لنا وعياً يجب علينا أن نحرص أشد الحرص علـــى استقامته ، لكى يستقيم أمرنا حاضراً ومستقبلاً ونعبر كأنـــاس متحضرين بأمان الأزمات التى تتكرر بغير انقطاع مواجـــهتنا لها هنا وهناك من آن إلى آخر فى حضارتنا اليوم والغد مـــع اتساعها وتعقدها وصعوبة ضبطها بأى صورة على أى حكومة منفردة مهما تكن إمكانات وموارد أى بلد !

فقد احتاجت البشرية الآن أشد الاحتياج إلى القـــدرات الدولية المشتركة ذات الادراك الواســـع المتبصـــر العـــارف الواعى ــ لمواجهة أزمات هذه الحضارة المليئـــة بالأزمـــات والمشاكـــل ملاءتهـــا بفرص المزيد من الترقى والتطور التـــى لم يسبق لهـــا من قبل نظير ، ولاقتناعنا الآن بعجز إمكانـــات أى بلد ــ مهما كانت موارده وقدراته ــ عن أن يواجه منفردا مشاكل عالمنا .. فقد بدأنا نخطو بخطوات فيـــها الكثـــير مـــن

التردد والتوجس فى ذلك الطريق المشترك يدفعنا إليه الخـــوف من الغد ويعوقنا الماضى بآلامه وأحلامه !

وحياتنا فى هذه الدنيا ، هى مما لا يمكن أن يعى وعينا سرها وأصلها ، ملحوظ فى وجودها قدرتها على تمويل العـــالم الخارجى لها بما يلزم لبقائها .. داخل كيان كـــل منـــا البدنـــى والنفسى مركب مجهز معد لتلقى ذلك التمويل المستمر ، ما دام الكيان البدنى والكيان النفسى قادرين علـــى أداء ذلـــك التلقـــى والانتفاع بما يلزمهما منه وطرد ما ينبغى طرده وعلى تجديـــد خبرة ذينك الكيانين باستمرار طوال العمر المكتوب للحـــى .. حياة كل منا معتمدة من هذه الزاوية اعتماداً كلياً على أجـــهزة ووظائف فينا لا عمل لها إلاّ فى دنيانا مسوقة جميعـــاً ــ كمـــا نشاهد ــ بشىء آخر لا نعرفه حتى الآن .. ويبدو لذلك لنا أنـــه غير دنيوى .. وهو فى نظرنا سر الحياة .. ويسميه الآدميـــون من أقدم القدم بالروح .. حينما توجد الروح يكون الكائن كائنـــاً حياً ، فإذا فارقته يموت ولا تلبث أجهزته ووظائفه حتى تتوقف ثم تموت هى الأخرى . ربما كان هذا هو السر الذى يبدو لنـــا

عاماً فى أفراد الأحياء جميعاً إنساً وحيوانا ونباتاً ، لكنه مـوزع توزيعاً شديد الاختلاف والمغايرة .. وهو الذى يفرق بين أنواع تلك الأحياء وبين أفراد كل نوع منها . وهذا السر هـو الـذى فيما يبدو قد نبه الآدميين من قديم إلى إمكان بقاء الحيـاة بعـد هلاك الأجساد وإمكان بقاء أفراد الأناس كأناس بعد الموت فـى عالم آخر لا يحتاج إلى مطالب دنيوية مما اعتاده الآدمى فـى دنياه المشغـول على الدوام باحتياجاته فيها !

* * *

عالمنا لا يكف عن إنتاج الحياة .. حتى الموت يفضـى فيه إلى حياة .. والأحياء فى عالمنا تنتج أحياء مثلـها بطـرق مختلفـة ، كمـا تنتج أشياء أخرى حية وغير حية .. ولكنـها لا تنشئ نفسها أو تخلق تلك الأشياء خلقا من العدم .. لا يعـى هذه الحقيقة من الأحياء إلاّ الآدميون دون غير الأحياء مما يملأ الكون من قوى وطاقات وظواهر وأشياء مما يجرى ويسـرى ويذوب ويرسب ويتحد ويتفاعل ويتصـل وينفصـل ويـتراكم ويتحلل وينجذب ويتنافر ويشتعل ويخبو ويضىء ويقيم ويتوهج

ويتبدد . عرف ذلك الآدميون ويزدادون له معرفة وبه قدرة على الانتفاع أو الإيذاء إلى أن يغلب عقلهم على حمقهم تماماً فيرحب العالم بسلامهم أو يتغلب ولعهم بالإيذاء على عقولهم فيهلك الجنس البشرى وينفض الكون يده منهم جميعاً !!

ومعرفتنا بذلك ــ أكيدة أو غير أكيدة ــ كلها غير قطعية كونياً ، لأنها معرفة بشرية فقط ، أقرها عقلنا البشرى وخبرتنا البشرية اللذان لا يمكن أن نتجاوزهما حين نريد أن نعرف .. لأن ما وراء ذلك يدخل حتماً في منطقة الاعتقاد وعدم الاعتقاد والإيمان وعدم الإيمان .. وهذه المنطقة منطقة أساسية في تكوين الآدميين لا غنى عنها لتوازنهم وتعلقهم بالحياة ، وهذان الأمران الضروريان لايكفي لهما التعقل والخبرة ، وهذا قد يشير إلى ضآلة شأننا في الكون نحن وما معنا من معارف وعقائد !

ونحن وفي مطالع قرننا هذا قد استبعدنا الكثير من اعتقاداتنا القديمة ، وعدلنا الكثير منها وتعلقنا بالاعتقادات الجديدة أو المعدلة .. وهذه وتلك عند التأمل فيها قد يكون

حظها غير واضح فى عين التعقل والتجربة . وربما كان ذلــك بطلاوة الجدة أو التعديل وانتشارهما بالمحاكاة ثم بالتوارث فــى الأعم الأغلب .. وهما الطريقان الرئيسيان لتحويل المجــاميع ، وفيهما الكثير من المصادفة والحظ الذى لادخل فيه للانتقاء فــى تغليب الرأى والنظر .. فحياة الآدميين الدنيوية دائماً شــــبكات بالغة التعقيد والتراكب والتضافر من خيوط مختلفة ليــس لــها أول ولا آخر ، تبدأ بالحمل لتنتهى بالموت ، وهى أهم وأعـــم من ذات أى آدمى ووعيه وعقله وعواطفه وآمالـــه وأطماعــه وآلامه ومخاوفه وتقدمه وتطوره وتخلفــه وتــأخره ، إذ هــذه المسميات جميعاً لا توجد ولا تعمل إلاّ داخل حياتنــا الدنيويــة وبسببها وكعوارض وظواهر وآثار ونواتج لها تـــزول حتمــاً بزوالهــا .. ولكننا قاطبة لا نلتفت فى أغلب أحوالنا وأوقاتنـــا ولا نهتم ولا نحسب حساباً صغيراً أو خطيراً إلاّ لهذا وذاك من تلك المسميات وآثاره ونواتجه !

وقد استنفد التفاتنا الكلى لتلك الجزئيات الوقتية المختلفة المتعارضة فى أحيان كثيرة — استنفد إيماننا واحتفالنا وتقديرنا وتقديسنا للحياة ككل ما منحنا إياه أو تمكنا على نحو ما من توجيهه والتصرف فيه ، مع أنه فى نظرنا لا نظير له على هذه الأرض ولا فى أى كوكب آخر أو نجم أو جرم من أجرام الكون العظيم .

وهذه الحياة التى هى الأصل الأولى الجوهرى لوجود كل آدمى كان ويكون وسيكون ، ولكل ما معه وما فيه — هى القيمة الكبرى لكل قيم البشر مجتمعة .. ونسيان الآدمى لها إهدار واسقاط لمعنى كل قيمة أخرى فرعية مما قد تشغل بال وحرص وحساب واهتمام وعناية الآدميين . إذ لا قيمة لأى من تلك القيم الفرعية يمكن أن تتحقق وتبقى وتدوم ، إلاّ إذا كانت مصحوبة بوعى كامل وإيمان بقيمة الحياة بعامة ، وهذه لا يمكن أن يسد مسدها ما اعتاد البشر عليه من تفضيل قيمة الذات — أى ذات أو كل ذات — على قيمة حياة البشر الآخرين منفردين ومجتمعين .. ذلك التفضيل الذى عاق ويعوق

وسيعوق ــ إذا بقى على حاله ــ استثارة وتقدم وتطور أخلاق جماعات البشر .. فهذه الأخلاق قد حكمها ويحكمها وربما سيحكمها نفس المقاييس والأعراف والتعاليم الماضية غير المتجانسة أو الملائمة للحاضر الاجتماعى ، الأمر الذى ترتب عليه تفكك المجتمعات وانتشار ما يسميه أهل الأديان اليوم بالمنكرات والمحرمات والبدع التى شاعت نتيجة قلة الفهم وخطأ القصد وعدم أو نقص التفطن إلى ضرورة الوعى الكامل لقيمة هذه الحياة ذاتها والإيمان التام بهذه القيمة الأولية الأساسية !

وإلى أن تصل الإنسانية إلى هذا الوعى الكامل ، ستظل غالبيتنا عبيد الأنانية والشقاق والدهاء والحسد والحقد والتشيع والتعصب والاستثارة ! .. لأن معظمنا حتى الآن ينظر إلى الحياة على هذه الأرض ــ نظرته إلى الفرص أو الغنائم التى يحق لكل آدمى أن يأخذ أو يهتبل منها ما استطاع نصيبه وحظه دون مبالاة أو حساب للآخرين !

وخالق الحياة ــ عز وجل ــ هو فى يقيننا خالق الكون بما فيه ومن فيه ، وعند هذه النقطة يجب أن يقف وعينا وفهمنا عن عملهما الدنيوى البشرى ، وتكفينا محاولات الوصول إلــى أقصى ما يمكننا من المعرفة البشرية بشأن ما فى داخل كل منا وكل ما حولنا فى كل جيل .. وهذا دائماً قابل للزيادة والتقــدم فى إطار نسبية المعرفة البشرية التى لا تخلو قط من النقــص ولا تصل قط إلى الكمــال المطلــق ..علمــا بــأن مواهــب واستعدادات الآدمى مرتبط بعضها ببعض بصور لا أول لــها ولا آخر ، ولا يمكن فصل هذا الارتباط على الإطــلاق فــى حياتنا كأحياء فى هذا العالم ، كما أنه من المحال فيمــا يبــدو اختصار هذه المواهب والاستعدادات أو الاقتصار النهائى علــى بعضها حتى وإن يكن فى المقدور تقوية البعض والزيادة فــى دوره وأهميته وإضعاف البعض الآخر وإهماله دون القضــاء عليه تماماً !

وليس من الرشد أن نعتبر إدراكنا لهذا الواقع عيباً في خلقتنا ، فهو على أية حال تفطن وتقدم في الفهم وتخلص من الغرور والوهم . وربما كان انتشار الغرور والوهم لدى أغلبية البشر حتى الآن من أسباب ريبتهم في مقررات ونواتج العلوم الطبيعية الحالية كالطبيعة والكيمياء وفروع كل منهما وتشككهم فيها في نفس الوقت الذي تشككوا فيه في الأديان ، لأنهم لم يتعودوا بعد على محاولة رؤية الكون في أقرب الصور التي صورها خالقه له ، والتي يمكن لعقل الآدمي العاقل أن يعيها ويفهمها بفطنة وترحيب بعد عشرات الأجيال من نزول الأديان !

لقد أسكتت ضمائر الناس وأذهلتها وغطت على عيونهم كثرة كاثرة من الأشياء الجديدة التي تتوالى بلا انقطاع وتملأ ما حولهم بالجديد والعجيب وتثير أشواقهم وأخيلتهم وأفكارهم فلا تترك مسافة لتأمل عقل أو لتفطن فطنة ! ولكن ربما يجيء وقت تظهر فيه معالم التشبع وضيق الصدر وملال الاعتياد فيعود لغالبية الناس شوقهم إلى الفهم لا إلى التقليد

والمحاكاة ، ويحسون بالضيق الخانق بما حولــهم مــن سـلع ووسائل ومصنوعات وأبراج تحول بينهم وبين التطلع المتــأنى لداخلهم وأعماقهم والنظرة المليئة بالمعرفة والشوق إلى الكــون الواسع العظيم ، فيتذكرون خالقهم بشغف جاد وفاهم وصـــادق صدقاً عميقاً لا يوهنه الوهم الشائع حتى الآن من لزوم التركـيز على الذات بمقولة إنها بداية الحياة البشرية ونهايتها بل وبدايــة الوجود ونهايته بالنسبة للآدميين . ذلــك لأن محبــة الغــير ــ أقربين وغير أقربين ــ ضرورية وأساســية لوجــود الجنــس والجماعة والعائلة ولبقاء ذلك ولنموه وترقيه وتطوره .. لولاه لــم تكــن لتوجــد الأسرة ولا القبيلة ولا البطن ولا الشــعب ولا الأمة ولا النوع الإنسانى كله !

وأنانية أطفالنا وصغارنا خطوة أولى فقط على الدرجات التى تتضح بها خلال العمر المحبة الغيريــــة التــى رســمها ورعاها الخالق عز وجل . وبقاء الأنانية فى الآدمــى ــ بعــد تلك الخطوة الأولى ــ قصور أو عجز أو آفة ، إذا فشــا فــى البالغين والبالغات تعرضــت الجماعــات البشــرية للمخــاطر

والمهالك ! فلم يحفظ جنسنا من الضياع أو يصونه من الفناء حتى الآن إلاّ تغلب المحبة الغيرية على سيادة الأنانية وتسلطها .. وهما سيادة وتسلط وقتيان مؤقتان بأمد بقاء السيادة والتسلط !

وشر ما تبتلى به محبة الغير ــ عدم المبالاة والإهمال وسوء الاختيار والسطحية والاندفاع . وهى نقائص شائعة تستغلها أنانية الأنانيين وأطماعهم على نحو يتكرر بتكرار تلك النقائص كثيراً أو قليلاً حسب ظروف الجماعة وحظها من ضبط النفس والرشاد . وهذه كلها احتمالات متداخلة سلبية وإيجابية سلطاننا عليها كأفراد نسبى ، وإنما نعيشها على نحو ما عاشها من سبقونا من البشر بكثير أو قليل من الفروق والتغيرات تبعاً لزماننا وترقينا أو تخلفنا .. وفى هذا الإطار النسبى أمكننا أن نعرف ونفهم على درجات شديدة التفاوت ما لدينا الآن من المعرفة والعلم ، وقد يمكننا مستقبلا أن نبلغ المزيد من ذلك فى وقت أقصر إذا كتب لجنسنا الاستمرار فى الترقى . وبرغم ما لوث حضارتنا الحالية من معايب ومصائب

وخطوب وحروب وفتن وثورات وضائقات وأزمات ـ فليس من شك فى أننا أكثر فطنة ويقظة وفهما ومعرفة وشعوراً بالإنسانية وقيمة الإنسان من أهل الحضارات الماضية جميعاً باستثناء أفراد القديسين والأفذاذ والنوابغ الذين بزغوا كالبشائر فى عتامات وجهالات تلك العصور الماضية !

* * *

كل منا يأخذ خلال حياته ـ أحياناً أو كثيراً ـ بأفضليات أو أساسيات يسندها إلى أصل ما من عقائد أو من مبادئ عامة يراها واجبة أو لائقة ، لكنها غالباً من صنعه ومن بنات ميوله هو ، صورتها له عاداته وأفكاره وتقديراته ومشاربه وقدراته هو على وعى وفهم ما يجرى فى بيئته وزمنه .. ولأننا لا نعيش منعزلين ، فإن تلك الأفضليات والأساسيات تبدو لنا واحدة لدى هذه الجماعة أو تلك ، ولكن تشابهها فى الواقع تشابه غير عميق وغير متبع فى التطبيق ، مما دعا كل جماعة إلى إيجاد حكومة ذات سلطة تفرض بها قدراً معقولاً من الرقابة والنظام والقمع على جوانب من سلوك

الناس فيها .. فوجود الحكومات ضرورة بشرية فطن إليها الآدميون من قديم الزمان لضمان الأمن وكبت الشذوذ وحماية الأرواح والأموال فى الجماعة ، ويستحيل على أية جماعة متحضرة أو غير متحضرة أن تعيش بدون حكومة مناسبة لها ، فلم يعرف الآدميون حتى الآن كيف يحيون معاً تجمعهم أفكار وأغراض وميول متجانسة متحابة تجعل وجود السلطة الخارجية عليهم نافلة لا معنى لها !

ثم ينبغى ألاّ ننسى أن فهمنا لا يحدث دفعة واحدة ، ولا يستمر على حاله ، بل يجىء على دفعات لاختلاف الأعمار والأوقات والظروف والبيئات .. يجرى عليه خلال ذلك التقارب والتباعد والإضافة والتعديل والتقوية والتبديل والحذف والرفض .. وهو دائماً فهم وقتى ، ابن الوقت الذى نبديه فيه لأنفسنا أو لمن معنا .. ذلك لأن تعلقنا بمبادئنا واعتقاداتنا هو دائماً تعلق نسبى محكوم بوقته وظروفه التى نعبر فيها عن تلك المبادئ والاعتقادات .. وهو ما يتيح للآدمى فرص النمو والنضج والتعلم والتأمل والمزيد من الإدراك

والحكمة ، كما يغريه بعكس ذلك من البلادة والقعود والغفلـــة والركود وبغض التغيير وتهيب الانتقال والخوف مـــن تـرك المألوف !.. ذلك أن ماضينا يمسك دائما بما أخذناه وحققنـــاه ، بينما يتطلع حاضرنا أو لا يتطلع لمستقبلنا .. فمستقبلنا أضعـف من ماضينا برغم أننا لا يمكن أن نحيا حيــاة الذيـن رحلـوا لاختلاف الوعى بالذات لدى كل فرد منا صغيراً كان أو كبـيراً جاهلاً أو عارفاً أو راقياً متطوراً .. فالوعى بالذات هو شـعور كل منا المطرد من الميلاد إلى نهاية الحياة بوحدة ذاته هـــو .. وبتعلقه هو العميق الغائر بهذه الوحدة وتاريخها الـــذى يشـمل حتمـــاً مـــا وصل إلى وعيه هو عن دنياه المشتركة بصــورة ما وعن ماضيها وحاضرها !

أما اللاوعى لأى منا ، فبرغم معرفتنا إياه فى عصرنـــا وحديثنا عـــن وجـــوده لدى كل منا وعن دوره فى الحياة الذى لا تسيطر عليه إرادتنا الواعية ، فخـــال تمامـــاً من " الأنـــا " أى من الشعور الواعى بالذات ووحدتهـــا ، فلا نلتفت عادة فى اطراد مسار حياتنا الواعية إلى أحلامنا التى لا تخلـــو منـــها

فترات النوم ولا دواعى انفعالاتنا واتجاهات وأفضليات ميولنا وشهواتنا التى اعتدنا أن نعزوها إلى أسباب قابلة للفهم ونراها محلاً للمحاسبة والمساءلة ، أو علة للمودات والمحبات والقرابات والولاءات !

ولأن ذاكرة الآدمى لا تستقبل إلاّ ما يعيه فهى لا تعى شيئا وتختزنه إلاّ إذا صار موضوعه موضوعاً للوعى ـ كإدراكنا فى اليقظة لما رأيناه فى المنام من صور الحُلم ومحاولاتنا أحياناً ـ لتفسيره وتأويله بلغة الوعى ، أى بلغة ما من لغات البشر .. كذلك وعى الآدمى للإلهام المفاجئ الذى لا يدرى دواعيه ولا ينتظره أو يتوقعه من قول يقوله أو فعل يفعله أو يتجنبه ، فيصادف وقته موقعه اللائق الصائب وكأنه البرق الخاطف لمع فجأة فى وعيه واستجابت له إرادته بلا تردد ودون أى تفكير سابق فيه .. وحتى الآن ليس لدى وعى الآدميين وسيلة لتيارات اللاوعى أو لاستدعاء الإلهامات أو لما يسمونه بالكشف ومعرفة الغيب والمستور أو رؤية المستقبل أو إبصار ما لا يبصره البشر عادةً من بعيد !!

والبشر يعزون هذا ونموه إلى ما يسـمونه المواهب الخصوصية أى الغامضة التى لا تفسر شيئاً ولا ترشـد إلـى واقع قابل للتجربة والفحص والتكرار من أى إنسان آخر علـى درجة كافية من المعرفة والخبرة فى ذلك الخصوص .. ذلـك أن معارف الآدميين هى معارف مرحلية دائمـاً ، لأن العقـل والخبرة المستندة إلى التجارب تزداد قوة وقدرة علـى خدمـة العقـول كلما ازدادت تجاربها انضباطاً ودقة حسب ما يتيـح لها زمانها ومكانها وما لديها من وسائل لتحقيق ما يستطاع من الانضباط والدقة !

وكثيراً ما يبدو لنـا أن الحياة التى نحيا بـها أساسـاً كأفراد ، تقاتلنا فى الغالبية كمجاميع وأجيال .. هذه المجـاميع شبيهة بمجموعات المناشير التى تعمل فى نفـس الوقـت فـى اتجاهين متضادين صاعداً وهابطاً، وكثيراً ما يتلاقى الصـاعد والهابط فى منتصف الطريق ثم يتبـاعدان ويتكـرر التلاقـى والتباعد والصعود والهبوط إلى غير حـد !! هـذه المناشـير

المضادة تتلاقى مع حتمية زوال الأفراد ومـــع دوام حصـــول الميلاد والرحيل فى الجماعات !

وحتى فى حياة الأسرة ، نلاحظ أن تلاقينـــا اليومـــى ، وقتى وقصير فـــى الغالب ، ولـــذا لا يلتقط بعضنا من بعـــض إلاّ القليل مما عنده بصفـــة عامـــة ، ونادراً ما نصادف آدميـــاً لا يكره أن ينفرد بنفسه وقتاً يقصر أو يطول .. وقد يحـــاول أن يملأه بالقراءة أو الكتابة .. ذلك أننا عادة ينقصنا الثراء الفكرى وحب التواصل والاختلاط والصحبة ، وهذه المزايا القليلة التـــى تزداد قلة من يوم لآخر ، وربما بلغت حد الندرة فى حضارتنـــا الآن !! ذلك أننا شغلنا جميعاً بالتهافت علـــى مـــا هـــو جديـــد وحديث وغير مسبوق مما يظهر بيننا فى كل لحظة ـــ شـــغلنا عن الاهتمام بداخلنا وتنميته وترقيته ، وبات داخلنا فى أعيننـــا جافـــاً ضامراً لا يهتم به عصرنا الذى التفت ويزداد التفاتاً كـــل يوم ـــ إلى اقتناء الماديات التى تغمره بها باستمرار صناعـــات وفنون هذا الزمن المذهل بأطماعه وأهوائه ووسائل إغرائـــها والتشويق لها وطرق الاتصال والترويج العجيبة الفريـــدة فـــى

نقلها !. فمن اليسير على أى إنسان الآن فى القاهرة أن يتصل بإنسان آخر فى دلهى أو لندن أو نيويورك ، ولكن ليس من اليسير على الأخ أن يحب أخاه أو على الإنسان أن يكون له صديق يتعلق ويتمسك بصداقته بلا قيد ولا شرط .. ضمرت وذوت فى زماننا وتباعدت الأخوات ولم يعد يجمعها دفء الأسرة إلاّ فى الريف المعزول عن الحضارة وحركتها الخارجية التى لا تهدأ فى ليل أو نهار ، كما بهتت ألوان الصداقات فلم تبق كما كانت من قبل دليلاً على الاعتزاز بالإخلاص للأصدقاء ، وإنما مجرد أمارة على الاندماج فى المجتمع وممارسة العلاقات الاجتماعية التى قد تعين على النجاح والشهرة !

ونحن عادة لا نلتفت إلى ما فى ذلك من مجازفة خطيرة بالسلامة الداخلية لكل منا ، ولا نلتفت إلى أننا نفقد باستمرار المنابع الأساسية لإنسانيتنا التى تجتهد آمالنا من قرون فى تحقيقها ، ونتحول باندفاع إلى أن نكون بشراً بلا روح ولا كرامة لا يعنيه إلاّ الأيام التى يقضيها على هذه الأرض

ويمتع نفسه بها إلى أقصى ما فى استطاعته بلا غريزة تصونـه وتصون نسله من الزوال أمداً ما كما فى بقية الأحياء !

وهذا ــ لمن يتأمله ــ مستقبل مرعب ملـــيء باليـــأس امتلاءه بالأنانية والقســـوة وعـــدم المبالاة .. مثل هذا لا يحيـا إلا أيامـــه المحـــدودة ، ولا يهتم أو يسأل عن أى ممن كـــانوا أو بقوا أو وجدوا بعد رحيله !.. وبهذا ومثله تموت آمال البشر الهائلة التى ساقتهم وتسوقهم إلى التمكن من البقاء والنماء فـــى أنفسهم وفى ذراريهم وفى جنسهم إلى آخر الدهر .. إننـــا دون أن نشعر نضمن ونستبقى الإنسانية كلها أفراداً وجماعـــات ــ بتلك الآمال الضخام التى فى ذهن كل فرد والتى بـــها عشـــنا ونعيش ويعيش نسلنا من بعدنا إلى الأمد الذى أذن الله تعالى لنا جميعاً به .. شاهد ذلك من قديم الآزال قبور البشر وشـــواهدها وهيبتها وإكرامها فى عيون الذين على قيد الحياة منا !

ويبدو أن ما نسميه القيم والآمال فى المستقبل والأقــدار والخطط ، وإن بدت غامضة خفية ، إلاّ أنها دائماً عميقة فينـــا وأساسية لدوام جنسنا ، ولا نملك أن نستغنى عنها ونتجاهلـــها

لأمدٍ يطول دون أن ننقرض سريعاً أســرع ممــا نتصــور ــ وربما كان غموض تلك الأمور التى ليس لعقولنا دور جاد فيها من لوازم حياة البشر نفسها .. فهى مما يمكن للآدميين ترقيتــها مع ترقى عواطفهم وعقولهم وحياتهم بعامة ، بيد أنه لا يمكــن إلغاؤها مع بقاء البشر بشراً!

فوعينا وإن كان لا يدرك أصول تلك الأمور وفحواهــا ومصادرهــا ، إلاّ أنه قــادر تمامــاً وبعامــة على انتظارهــا أو احتمال وقوعها أو رجاء خيرها أو إقصاء شرها أو لليــأس من إقصائه .. وليس لنا ولا هو فى وسعنا مهما بلــغ مقــدار وعمق معارفنا وعلومنا الوضعية ــ .. ليس لنا ولا فى وســعنا ألاّ نلتفت لتلك الغوامض التى تتردد أجراسها على لســان كــل آدمى عاش أو يعيش وتخاطب أعماقه وتتدخل فى مصيره بعــد اشتراكها فى نشأته !!

إرادة الآدمى ليست كل حياته المدركة ، وإنمــا هــى دائما جزء منها فقط .. وقد يتســع ســلطان الإرادة البشــرية باتساع السطوة أو باتساع الفهم والمعرفة والاعتدال فى التعامل

مع الحياة ، وهذا النوع من الاتساع يسلم بتلك الغوامض وبدورها فى وجود الأحياء والحياة .. والأديان من قديم توصى بذلك الاعتدال الذى يجمع بين الفهم والرزانة والإيمان فى أنظمة انتهت بانتهاء أهلها ، وفى أنظمة أخرى ما زالت باقية صار دور ذلك الاعتدال فى أهلها محل نظر !

* * *

حياة العامة من الناس خلاف حياة خاصتهم من جهة المزايا المادية وتوابعها المعنوية التى يتشبث بها الخاصة .. وهذه وقف عليهم وعلى من يلتصق بهم ممن صاروا أغنياء أو فى حكم الأغنياء بعد فاقة ووضاعة .. وهؤلاء قد يكونون أكثر من الخاصة حرصاً على إبراز ما وصلوا إليه فى سلوكهم ومعيشتهم ، وربما قصروا الاتصال بطبقاتهم على القليل أو الباقى من المجاملات أو المعونات !!

أما سواد العامة فعلى ما فيهم من جهل وتأخر ، فإنهم أكثر التفاتا إلى التقاليد السائدة فى محيطهم ، وأسرع مبادرة إلى التضامن فيما بينهم فى الضائقات ، وأعمق شعوراً

بالمــودات واللياقات ، وأقل تكلفاً وأبسط يداً بمــا معهــــم .. وما معهم دائماً قليل قليل قد يؤثرون به على أنفسهم ومن هــم فى حكم أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، وربمـــا كــان ذلــك راجعــاً لقلـــة فراغهــم أو كثرة أعمالهم المنهكـــة أو المملـــة مما لا ينتج فائضاً متسعاً من الوقت للتقليب والتغيير والتبديـــل كما لدى الخاصة ! ــ إلاّ فى أوقات البطالـــة والكســاد التـــى يملؤها الضيق الشديد والنكد واليأس !! وهؤلاء على ضآلـــة شأن أفرادهم وسهولة إغضابهم وإضحاكهم وكثرة اندفاعاتـــهم وأحياناً عنفهم وقسوتهم ــ أشد وأعمق تمثيلاً للآدمية من السادة والأوساط وأصحاب المقامات الملتفتين لمســـتوياتهم ورقيــهم وثقافتهــم ومكانتهم .. فأولئك غارقون إلى الأذقان فى دنيـــاهم لا ينظرون إلى داخلهم إلاّ من أجل أغراضهم الخارجيـــة !! .. لم ينفعوا ولا ينفعون ولن ينفعوا البشرية ــ إلاّ فـــى الماديـــات والموضوعيـــات مـــن المعـــارف والعلـــوم والاختراعـــــات والاستكشافات والفنون ، وهذه وحدها قد لا تكفى لبقاء جنسنا !

لأن جنسنا قد يكون باقياً منذ القدم إلى اليوم بفضل خصـــائص العامة الحسنة والقبيحة معاً !

وإذا كتب الله تعالى اطراد وتقدم وتطور هـــذا الجنــس لبقائه ، فلن يكون ذلك إلاّ مع تطور العامة وتقدمها ــ تطــوراً وتقدماً شاملين لداخل الآدمى وخارجه معاً ممـــا لا يتــأتى إلاّ بالالتفات لهذين بنفس العناية والدرجة .. ولن يتم هـــذا إلاّ إذا كفت الخاصة عن ازدراء العامة ، واجتهدت ما أمكنها الاجتهاد فى الامتزاج بالعامة لأخـــذ يدهـــا فـــى الـــترقى والاســتنارة وتخليصها إلى غير رجعة من الجهالة والخرافـــة والســطحية والاندفاع !!

يبدو أن بقاء البشرية سيظل متوقفاً على أكثريتهم وليس على أقليتهم مهما برعت وارتقت وحدها تلك الأقلية ، وسيزداد مع الزيادة فى تفـــوق الأقلية ــ ابتعادهـــا عن الأكثرية وابتعاد الأكثرية عنهـــا ، وربمـــا انتهـــى الأمر بتدمير هذه وتلـــك ــ ما لم تتقارب الأقلية المتفوقة الآن ــ تقارباً حقيقيا مثمراً مـــن الأكثرية والعكس غير منتظر وغير صحيح !

إن فى التفوق الحالى للأقلية كثيراً من العزلـــة وقليــلاً جداً من الإيثار وإستغراقاً تاماً فى البحث عـــن حقيقــة هــذه الجزئية أو تلك وتتبعاً للنتائج التى تترتب أو يمكن أن تـــترتب عليها عملياً وصناعياً وتجارياً وأثرها فـــى الاقتصـــاد العـــام الداخلى والخارجى ، ثم إغفالاً يكاد يكون تاماً لما يجرى فعـــلاً ويومياً داخل سواد الناس الذين لم يشاركوا فى ذلك الاســتغراق بكثير أو قليل .. وهم دائما المعرضون فى النهايــــة لابتــلاع جرعاته وتحمل نتائجه على غير تهيئة جدية واســتعداد كــاف وتبصير مخلص منير ! .

ويتنافس أفراد الأقلية المتفوقة على النتائج ، وتســـجل أسماؤهم فى دوائر المعارف ، ويغرون على ذلــــك بـــالجوائز المحلية والدولية ، ويشار إلى بعضهم فى الكتــــب المدرســية والجامعية ، وتسمى بأسمائهم الشوارع والميادين ودور الخــير والمعروف !! كما تســـمى بأســمائهم النظريـــات والقواعــد والمقاييس والدرجـــات .. ويبدو مـــع ذلك كله أن دنيا البشـــر هى دائماً دنيا الأكثرية لا الأقلية المتفوقة ، وستبقى كذلك إلـــى

ما شاء الله تعالى ! والتفات الأقلية المتفوقة إلى تفوقها وحـــده لن يغير كثيراً من دنيانا ، بل ربما زادها اختلافاً واضطرابـــاً وعداءً وتعاسة وشقاءً ، على عكس ما تتخيله الأقلية المتفوقـــة من أن استمرار التقدم العلمي والصناعى والزراعـــى والفنـــى الذى تقوده الأقلية المتفوقة سيؤدى إلى سيادة التعقل والتفــــاهم والأمان والسلام فى عالم الإنسان !!

وربمـــا لأن رزق عامـــة الناس يأتيهـــم عـــن يومـــهم أو أسبوعياً أو شهرياً أو فى مواسم الزرع أو الحصد ـــ كـــان تبصر غالبيتهم محدوداً دائماً إلاّ لدى أقل القليل منـــهم ، وهـــم عادة لا يأخذون أنفسهم بضبط النفس والاقتصاد فى الإنفاق من رزقهم المحدود كما يفعل أغلب أهل الطبقة المتوسطة الذيـــن ينظرون إلى الغد وإلى تفادى الاحتياج وإلى الأمل مع مـــرور الوقت فى صورة من صور اليسر أو الإثراء !

ومع قلة ضبط النفس وعدم الالتفات إلى الاقتصاد فـــى الرزق المحدود ، ساد بين العامة الإيمان بالمقـــادير والتسـليم بأحكامهـــا مع عدم التفريط فى انتهاز ساعة حلوة أو يوم طيب

أو لحظة أنس مع الأهل أو الأحباب أو الجيران ، أو مع سرعة الانتقال من ذلك ومثله إلى عكسه من ضيق الصدر والعناد والاندفاع والاشتباك وأحياناً مع الإضراب والتجمهر والتمرد ومضاعفاته .. وحدة هذا القلق فى مزاج العامة قديمة قدم البشرية نفسها . وهذه الحدة لا يغيرها التعليم وإنما قد يغيرها تغيير البيئة والمحيط غالباً !

والعامة هى التى تجمع الجماعات البشرية وتحفظ عاداتها ومشاربها وطقوسها الدينية والدنيوية ، وتستبقى آمالها وأحلامها وأخبارها ومصدقاتها ومأثوراتها وقديمها الحى الرائج وخواصها وطبائعها الأكثر استقراراً .. ذلك لأنها برتابة عيشها وتماثل أيامها ولياليها وندرة الاعتزاز بالذات والزهو فى أفرادها ــ أقل تعرضاً للتعديل والتبديل والتغيير ممن فوقها من الطبقات .. وإذا كانت العامة فى أيامنا ــ خاصة فى المدن ــ أكثر حركة وجرأة واندفاعاً إلى الظهور وفرض الذات بالتواجد الكثيف فى الطرقات والميادين والأسواق والملاعب والنوادى والمحافل والمجتمعات ، وذلك بفضل أساليب

ووسائل وأوضـــاع وإغراءات الحضـــارة الحالية ــ فإن ذلـــك كله لم يتجاوز السطح .. وهو ظاهرة جاءت لتذهب ، إذ أسـس وركائز حياة الجماهير لم تتغير ، بل لعلها زادت قلقاً وقلة أمان وبعداً عن الرضا والاستقرار وشعوراً بالغربـــة وعـــدم الثقـــة واتجاهاً يتزايد إلى القنوط واليأس والتدمير والتخريـــب بغـــير تمييز وبغير إقبال جاد إيجابى فَعّال على ما هو خـــير أو نفـــع حاضر أو مستقبل للناس فى دنياهم وأخراهم معاً !.

إذ الترويع والإهلاك العشوائى وهدم الأنظمة الموجـودة العاملة ــ ذلك كله ليس إلاّ شيطنة لإرضاء وإســكات وســتر الغيظ والعجز والشعور الممض العميـــق بالخيبـــة وبالكفـــر بالإنسانية وبضرورة أن تزول . ولا يصل العامة إلـــى تلـــك الدرجة الهائلة من الإحساس بضيق العالم واستحالة البقاء عليـه وفيه إلاَّ باجتماع التحريض مع الإغراء والإغواء مـــن داخـــل الجماعـــة وخارجهـــا حـــال وجـــود أزمـــة اقتصادية تدهمهم أو يشعرون أنها تدهمهم فعلاً شعوراً لا ذنب لهم فيه !

وحياة الآدميين جميعاً منذ كانوا ، معظمها محاكاة بين بعضهم وبعض تقريبية عفوية كثيراً ، وقصدية أحياناً ، تتغاير فى الجماعة الواحدة قليلاً أو كثيرا بتغاير الأفراد واختلاف أعمارهم وأدوارهم وظروفهم وبيئاتهم وعصورهم .. وعلى أساس هذه المحاكاة التقريبية وجدت فيما يبدو الجماعات البشرية وأعرافها وتقاليدها وأصولها وأخلاقها وقوانينها وقواعدها ، وكذلك نقائصها وعيوبها التى تأصلت بالاعتياد وطول الممارسة ، وأعاقت وتعيق تقدمها وترقيها كله أو جانباً منه ! ..

فنظرة كل منا إلى جماعة فى هذه المناسبة أو تلك أو فى هذا الموقف أو الموضوع أو ذاك ـ بفرض إمكان تقبلها وتغيره فيها ـ ليست من عنده وحده كما يظن ، ولا هى نبت أفكاره هو .. بل شريك فيها مما هو من صنع ألوف صنوف المحاكاة لما لا حصر له من الخلق . فحكمى وحكمك وحكمه على أى شىء ـ ليس خالصاً ملكاً لأى منا مهما أجهد نفسه فى تقصيه واستقصائه !

إننا دائماً نركب ما سبق لغيرنا ركوبه بوجه أو آخـــر ، وحين نزيد عليه جديداً غير مسبوق نسنده كله إلى أنفسنا باســم أو وصف جديد دون اعتراض من الآخرين .. لأن هــذا هــو الطريق الممكن الذى سمحت به الحياة للآدميين .. ولذا كـــان تعليم البشر وتعلمهم وعلومهم وآدابهم وكتبهم ورســائلهم مــن أول الدهر وإلى اليوم والغد ــ أغلبها محاكاة وترديد وتدريــب على تكرار وتطبيق لما عُرِف وعَلِم ، ولكن البشر ليسوا قــط بآلات لا يخرج منها إلاّ المتطابق المتماثل ، وليــس المخــالف منها عواراً معيباً ، وليسوا بهائم قريبة من الآلات مــن جهــة رتابــة الأداء الذى يستحيل أن يتغير فى نظرنا سواء لحياتــها أو لخدمات الإنسان الذى يستخدمها .. وهنا يكمن سر بشــريتنا وتميزها وقابليتها التى لا تعرف حداً سواء فى الارتقاء أو فــى الانحطــاط ولا يجلّى ذلك السر العميق أن نقــول إن تركيبنــا أكثر تعقيداً وتخصيصاً ، لأن ما عرفناه إلى اليوم مما نســميه تركيبنا ، من ذلك المجهول الهائل ــ على كثرته فى نظرتنــا

الراهنة ــ يبدو عند التأمل أنه نقاط من بحر طامٍ يحتاج فهمه إلى ملايين الأعمار والعقول فى ملايين السنين !!

• • •

توقيت حياة كل آدمى ــ بمعنى أن حياته مؤقتة ــ هو توقيت أزلى يجدد باستمرار وجود الأفراد وبالتالى الجماعات ، وهذا هو الذى يمنع البشر من أن يحملهم إحساسهم ببحر المجهول المفزع على القعود والتوقف والتسليم واليأس المؤدى إلى الانتكاس والردة والقنوع بالعبث والجهالة والشهوة والغفلة .. توقيت حياة الآدمى ــ هو الذى يضمن استمرار تجدد ما لدى البشر من الأشواق والطاقات والهمم والتطلعات والأهداف والأغراض والآمال والأمانى . وهو دور سام عميق أساسى يقوم به الموت فى مسيرة حياة الآدميين المليئة بالعجب والأسرار . وأغلب البشر فى كل زمان لم ولا يفطنون إلى هذا الدور الجليل للموت فى بقاء البشرية واستمرار نموها وتطورها .. فهم يحيطون الموت بالأحزان لوقت يقصر أو يطول ، ويذكرون موتاهم أمداً بالعطف والأسى دون أن

يؤدى الحزن أو الأسى إلى زهد الحى فـــى حياتـــه أو يقلـــل حرصـــه عليهـــا والاستمتاع بهـــا مـــا أمكنه . فموت الأفراد حركة من الحركات الضرورية لحياة البشر لا تســـتغنى عنـــها تلك الحياة قط . يحجب قيمة دورها الضرورى للحياة خـــوف الآدمى من الموت ومقته لمفارقة الدنيا ، وهو فى دورة الحيـــاة الدنيا مجرد تسليم لليقظة فى دورة الإدراك ، ونحـــن جميعـــاً غرباء عن الحياة الآخرة غرابة الأجنة عن الدنيا وأهلـــها وإن كنا ـ أو بعضنا ـ ننتظرها ونفكر فيها قليلاً أو كثـــيراً علـــى نحو هامشى من قرون !

ونحن لا نعيش جميعاً حياتنا جـــادين شـــاعرين بثقـــل مسئولياتها وواجباتها ، فقد منحنا القدرة على التغافل والتناســـى والتحامق والفرار والتهرب والاعتياد على ذلك لدهور .. ومـــن هذا الباب تراكمت فينا الأخطـــاء والانحرافـــات والالتـــواءات والادعاءات والمزاعم والافتعالات للأصول والأعراق والمـــآثر والمكانات !!.. لأننا لم نعط ما أعطى سوانا من الأحياء مـــن

الحدود الكابحة التى تحول بينها وبين تلك الشطحات والحماقات والمغامرات !

والعجيب فى أمرنا أن تلـــك الشـــطحات والحماقـــات والمغامرات أولها التفاتات منفردة أو مشتركة تجمع بين أكـــثر من فرد ، مقصودة واعية يعقبها استغراق فيمـــا دخلنـــا فيـــه والتفتنا إليه . لأن الالتفات ملكة فى كل آدمى ، تتفـــاوت قـــوة وضعفاً بحسب نصيب الأفراد منها .. هى طريقه إلى الشـــر أو إلى الخير .. لأنها سبيله إما إلى الضلال وإما إلى الرشـــاد .. وشأنها شأن غيرها من ملكات البشر .. أولها بدائل لا تكـــاد تلاحظ ثم تنمو تدريجياً فى هذا الاتجاه أو ذاك مع أطوار الحياة وأحوالهـــا فى الجماعة وعصرها وحضارة ذلـــك العصـــر . وكـــل ما لدينا الآن وما كان لدينا من قبل من خير أو شـــر ، نافع أو ضار ، راقٍ أو متخلف ، أقمناه على ملكـــة الالتفـــات والانتباه . بدون نموهـــا وتعميق نموهـــا لـــدى البشـــر فـــى اتجـــاه الخير لـــم يكـــن يوجـــد علم أو دين أو أخلاق أو فـــن أو اجتماع أو اقتصاد أو سياسة أو إنسانية ، وفى اتجـــاه الشر

لــم يكــن يوجد طمع أو جشع أو شهــوة أو إدمــان أو حقـد أو خبث أو مكـــر أو تمرد أو نهب أو سطو أو تدمير أو إفناء أو تأله أو استبداد أو سيطرة !!

وتختلف درجات التفات البشرية بعامة ـ أعنى البشـرية فى الجماعات المتقدمة ـ باختلاف العصور والدهــور التــى مرت بها .. تشهد بهذا كتب التاريخ التــى فــى أيدينــا الآن ، وذلك لأن الالتفات قرين الاهتمام وتوأمه .. فقد أتى مثلاً علــى الدين حين من الدهر تفوق فيه نفوذه على السياسة ثم اتجه إلــى الحرب والفتح فعاد إليها ، وظل هبوط الاهتمام بالدين يــتزايد إلى يومنا هذا ، وبقيت السياسة تتسيد علــى مصــائر النــاس وجماعاتهم هنا وهناك لأكثر من ثلاثة عشر قرناً بما فى كفيــها من مد وجزر واعتدال وانحلال ويقظة وخمول ورشد وحمــق وأمانــة نسبية وتدليس وخداع .. يجرى ذلك دون أن تتوقــف أو ترتد إلى الخلف والسقوط مسيرة العلم والفهم والفـــن ، لأن القائمين عليها وبها قليلو العدد دائماً بعيدون ما أمكنـــهم عــن طائلة السياسة ودهاء أصحاب المصالح وقلما تعرضوا لفرص

الهرس والدهس التى تعرض لها العامة والكثرة فى كل قـــرن مرة ــ بل مرات !

ثم إن الآدميين ــ لاعتيادهم الدائب الدائم على استخدام حواسهم ــ ينسون أنها ليست مصدر حياتهم ، ولا هـــى كـــل ظواهر ومساعى هذه الحياة ، ولا يدركون إدراكا واعيا أنـــها جزء فقط من اجزاء تكوينهم ، وأداة من أدوات خدمتهم التـــى جاد بها خالقهم .. فانصراف الآدمى بقضــه وقضيضــه إلـــى إشباع حواسه أو تركيزه علـــى لذاتـــها ومتعتـــها ــ تعطيـــل لإنسانيته يشبه الإخصاء لها ويحول بين حياته وبين تمام النمـــو والنضج ويحرمها من الـــترقى والتطـــور اللذيـــن تنتظرهمـــا وتحصل عليـــهما إن رشـــدت وانتفعـــت بجمـــاع مواهبـــها واستعداداتها التى أنعم بها عليها بارئها !

ويجب ألاً ننسى ولا نذر من نـــاموس حياتنـــا وحيـــاة الأحياء منا جميعـــاً نباتاً وحيواناً وبشراً ، بل يجب أن نجـــلَ بدايتها من البذرة إلى النضج فى كل صورها .. وهو ما نسميه النمو الذى يعقبه الازدياد الذى يكمل نقصاً أو التقدم الذى يحـــل

محل تأخر أو الترقى الذى يحقق أملا فيما يبدو للخـــروج مـــن غفلاتنا وضلالاتنا ونقائصنا وأخطائنا ويقودنا للآتى المأمــــول من كمالنا ورشدنا وفضائلنا وتقدمنا وتطورنا مما قـــد نـــورث بعضه لأجيال لا ندرى صلتنا بها ويمتنع علينا كليةً الاتصـــــال بها !

فالحياة دائمة الركوب لأحيائـــها المتفـــانين المتعـــاقبين المتناسلين والمتوالدين ، ونحن نقاط فيها نغذى مسيرتها ونحمل رايتها ما حيينا ، وإنما بكثير من الالتواء والعنــــاد .. وأحيانـــاً نقاومها ونبلغ فى مقاومتها حد الامتناع والرفض القاطع حتـــــى ليرفض بعضنا بعضا رفضاً نهائياً متعللاً بينه وبين نفسه بعلـــل وذرائع تبدو له قاصرة ، أغلبها غامض فـــى نظـــر الإنســـان العادى .

ثم إن حياة الإنسان التى تبدو بسيطة خالية مـــن العقـــد والتعقيد لمن يحياها بلا طول تأمل .. هذه الحياة هى فى واقعها شديدة التعقيد إلى غير حد فى المجتمعات الكبيرة والمتوسـطة ، أما فى المجتمعات الصغيرة البعيدة عن العمران والحضـــارة ـــ

فبساطتها ترجع فقط إلى البداوة وما يماثلها ، وهـــذه بسَــطها المكان الذى فرض بساطته على الزمن والجو اللذيـــن تعيــش فيهما الجماعة الصغيرة المعزولة عن العالم المتحضر . ولذلــك يشعر بوطأة التعقيد من فارق الصغر وانتقل فجـــأة إلـــى بلــد متحضر تتناوبه فيه تعقيدات الحياة وشدة شعــوره هو بالحيرة والشقـــاء فى ذلك البلد وشدة رغبته فى العـــودة إلى بلده الـذى فارقه ! فإذا ما استطاع التغلب على هذه الرغبة ، تناقص ذلــك الشعور لديه ثم زال بالاعتياد ، وصار مدركـــاً متفهماً متقبـــلاً لما يقابله وما يمكن أن يقابله من تعقيدات حياة الآدمى فى تلــك المجتمعات المتحضرة التى تزداد الحياة فيها باســـتمرار فـــى التعقيد والتركيب مع اطراد ترقى الحضارة وتطورها !

وفكرة الآدمـــى عن حياته الدنيا مهوشة مفككة مليئــــة بالتشويه والتناقض والثغرات والعثرات برغم إقراره فى نفـــس الوقت بالعديد من الأصول والقواعـــد الدينيـــة والأخلاقيـــة . وفكرته عن الحياة الآخرة هى أيضاً فكـــرة غامضـــة شـــديدة الغموض لأنها عن حياة خـــلاف حياتـــه هنـــا التـــى عرفـــها

واعتادها ويعيشها على هـذه الأرض .. فكرة الآدمى الغامضة عن الآخرة سنادها فقط الإيمان لا المعاينـة الفعليـة ، وهـذا الإيمان يجىء ويذهب ويقوى ويضعف ، وغايته الأولى ضمان استقامة الآدمى فى دنياه أو عودته إلى هذه الاستقامة إذا كـان قد فارقها قبل رحيله . لأن الاستقامة طريق قويم سـليم فـى الدارين ، وهى الطريق الوحيد لإنسانية الآدمى التى مـا زلنـا نترخص فى عدم الالتزام بها من وقت لآخر إذعانـاً للأهـواء والمآرب والأغراض الخاصة أو للعصبيات والقوميات والملـل والنحل ، وجريا وراء المصالح والمنافع فى معظم الأحوال !

وعى الآدمى ، كيف وإلى أين ؟!

وعينا فى اليقظة يجرى بلا توقف ، وهو يجرى علـــى درجـــات من السرعة والبطء والســطحية والعمــق ، دون أن يفطن ، وغالباً دون أن يراقب جريانه ، بل ودون أن يلاحظـــه .. مستسلمـــاً للعواطف عادة .. وأحياناً يستوقفه الفعل أو الألــم أو الخطر .. وتيار الوعى لا يخلو قط من الغموض والخلط .. تتزاحم فيه الرؤى والصور والخواطر والظنــون والأفكـــار ـــ وهو لا يهتم إلاّ فى النادر بمحاولات التأمل والإفراز وعـــزل الجاد من غير الجاد والباقى من العرضى وتمييز العميق مـــن السطحى . ولعل هذا مقصود فى الخلقة التى يبدو أنها مبنيـــة على توالى وتكرار الإيجـــاد والإفنـــاء والمـــاضى والحـــاضر والمستقبل والزمان والمكان والبدايات والنهايات .. وربما مثـــل التشابـــه والاختلاف فى الأفراد والجماعات والأجيال ، نوعـــاً أو أنواعاً من تشابهات واختلافات الظـــروف والأحـــوال فـــى

البيئات والمجتمعات . تقوى وتتأكد مع الاعتياد والاطراد وتلازم السِحنْ .

ومحال أن يتصور الوعى البشرى مقدار ما خلق ويخلق الخالق جل وعلا من الأحياء ومن بينهم الآدميون منذ وجدت أرضنا .. فهذه المخلوقات تزيد على مليارات المليارات ، ومن ثمّ فقد تعلق البشر بنطاق وعيهم هم كأساس أولى لكل معارفهم وعلومهم وفنونهم الماضية والحاضرة والمستقبلة ، وكذلك عقائدهم ونحلهم !.. إذ أن وعيهم فى الواقع يسبق باستمرار إيمانهم بغيبيات وعيهم !

ووعينا ــ بالنسبة للخالق عز وجل ــ محصور حصراً لا فكاك لنا منه فى أننا مخلوقون لم نكن ثم كنا ثم لا نكون ــ من ضمن مخلوقاته التى لا تكاد تحصى ، وأننا ــ أردنا أو لم نرد ــ يعيش كل منا حياته فى دنيا خلقها الخالق عز وجل ضمن كون هائل جداً لا سبيل إلى أن نعرف مداه ، وركب سبحانه أوضاعه وطاقاته وحركاته وسكناته .. لا نستطيع مهما تصورنا وحاولنا وأبدعنا وشرعنا ونفذنا بعقولنا وخيالنا

ومعارفنا ، من تعديلات وتغييرات تمت أو تتم .. لا نســـتطيع أن نغير هذه الدنيا وهذا الكون أو نبدلهما زيادة أو انتقاصـــاً .. إذ أن جميع ما فينا ومنا ومعنا أحداث ومجرد أحداث صلاتـــها بخالقها صلات أحداث بمحدث ، وكائنات بمكون وبدائع بمبـدع .. ننسى نحن حقيقتها معظم أيامنا وقد نحاول أحياناً ــ إعـــلان ولائنا أو إعراضنا لها أو عليها سراً أو علانية بحركاتنا ولغاتنا ورموزنا فى إشاراتنا وآمالنا وعواطفنا .. وهذه كلها بشـــرية ، محض بشرية لا تحدث آثارها المرجوة أو المـــرادة إلاّ علـــى حياة ووعى وعقل وعواطف ومصائر كل منـــا فـــى ماضيـــه وحاضره ومستقبله .. إذ دنيا الآدميـــين ليســـت إلاّ تكـــراراً وتوالياً لا ينقطعان لوجودهم المرتبط المتصل بغنائهم هم ومـــا معهم وعندهـــم وحولهـــم مما يمكن أن تنقله حواســـهم إلـــى وعيهم ، أو يجول بخيالهم ، أو تتداوله عقولهم أو عواطفهم .

وانصراف الآدميين كليةً إلى خالقهم والقعود عن الحيـــاة ــ لا يمكن أن يكون مطلوباً منهم لأن عليهم بحكم الطبـــع ــ السعى فى الأرض لقضاء احتياجات الحياة لكل منهم إلـــى أن

يفارقها .. وهذه الاحتياجات تشغل فى أغلب الأحيان أغلب أعمار معظمهم أولاً وقبل سواها ، ومن ثم لا يبقى واقعاً للعبادة فيما عدا المتصوفة والنساك ـ إلاّ هامش مفروض فيه أن يزكيهم ويذكرهم ويعينهم على استقامة وإخلاص ذلك السعى الذى ليس منه مفر فيما يبدو حتى للموسرين . إذ حياة الحمقى والأغرار والمترفين لا تترك لكسلهم وتفاهتهم وفسادهم مجالاً لا للعبادة ولا للعمل الجاد .. هذا السعى الجاد يضاف إليه ضرورة استمرار الحياة البشرية باجتماع الذكور والإناث برغم اختلاف الجنس فى الطبع والعاطفة والعقل واحتياج ذلك التعايش إلى الصبر والاعتياد على تحمل هذا الاختلاف مما يطفئ حتماً حرارة المحبة وينقل اهتمام الطرفين إلى العناية المشتركة بالأسرة .

ووعينا يولد مع ميلادنا وينمو مع نمونا . لكننا ننساه ! .. ننساه فى بداياتنا وننسى وظيفته ومهمته وضرورته للعقل والإرادة والاختيار ، وننسى لذلك حاجته الدائمة إلى اليقظة والتيقظ وإلى مقاومة الإغفال والغفلة ، إذ منها يدخل ويتسيد

فى وعينا ــ الوهم والغرور والطمع والكبرياء ، أو عكس ذلك الشعور بالصغار أو الكآبة أو التشاؤم أو القنوط أو اليأس من أنفسنا !

واليقظة أو التيقظ اعتياد يحتاج الإحساس بوجوده إلى المحافظة على تنميته ، لأنه من المقومات الأساسية للوعى ... وعموم الآدميين يشتركون فى عموم الوعى ، لكنهم على الدوام يختلفون فى مقداره فى كل عمر ومناسبة وموقف وربما أيضاً فى كل مكان ! ــ ودواعى اختلافهم فيه أفراداً وجماعات وهى لم تنقطع ولن تنقطع ــ تزيد كثيراً عن دواعى اتفاقاتهم التى يضمن بقاءها غالباً اعتيادهم على تنفيذها .. ولعل لهذه الاختلافات أصل فى خلقة الإنسان من أصول دفعه إلى الانتشار ومن ثمّ إلى التنوع !

وتقاس يقظة الآدمى الفرد بدرجة شوقه وإصراره على التحقق والتأكد بإمكاناته المتاحة له ــ من صحة ومعنى ما دعاه بحواسه مباشرة أو نقلاً عن غيره أو بناء منه على ظنه وتأمله وحسابه عن هذا أو ذاك !

.وقلما توجد يقظة الوعى فى الآدمى الفرد عامة شـــاملة لكل ما يعيه أو يمكن أن يعيه . فوعينا اليقظ دائماً ــ حتى لدى علمائنا ــ جزئى فقط تعمل يقظته الجزئية ضمن حشـــد مـــن صور الوعى غمرتها العادات والأعراف والأصول والقواعـــد والقوانين ــ لأن الآدمى يعيش فى مجتمعات متقدمة أو متأخرة تمتد أعمارها تحت أسماء مختلفة لا يحركها وعى واحد لآدمى معين وإنما يديرها واقع آخر مبناه التسليم العام مـــن غالبيـــة الجماعة بالالتزام الذى تفرضه العادات والأعراف والأنظمـــة والقوانين والسلطات ، أى طاعة الغالبية الغالبـــة لمـــا يســـمى أوامر وقرارات ولىّ الأمر أو الدولة أو المؤسسات الدســـتورية أو الحكومـــة أو الإدارة إلـــى أن تثور عليهـــا تلك الغالبيـــــة أو تضطر الأغلبية للخضوع لسلطان أجنبى !

فالجماعات لا توصف إلاّ مجازاً بيقظة الوعى أو بعـــدم يقظته ، أى لا توصف بما يحرك وعـــى الفـــرد فـــى حياتـــه الخاصـــة تبعـــاً لظروفـــه وأحوالـــه .. فالفرد فى الجماعـــــة إنما يتحرك دائماً فى إطار حركتهـــا هى ، ولا تجـــدى يقظـــة

وعيه بالغة مهما بلغت من التأثير إلاّ فى نادر النادر !
كما لا تجدى قلة يقظة الوعى لدى بعض الأفراد ، إلاّ إذا انتشرت وشملت غالب الخاصة والعامة فى الجماعة !

ويبدو أن نطاق وعى الآدمى هو أولاً العالم الخارجى من حوله وما يستطيع أن يعلمه ويعمله فى ذلك العالم .. كما يبدو أن آثار نشاطه الحيوى من العالم الخارجى ترتد على داخله فتزيد أو تنقص منه وفيه ، وينعكس أثر ذلك على خارجه وداخله باستمرار . وهذه الظاهرة الفريدة بنشاطها الدائب هى التى ميزت الآدميين عن سائر الكائنات الحية الأخرى على الأرض .. فكلها بلا استثناء يقتصر نشاطها على نموها ونسلها بدنياً فى الحدود والمراحل المرسومة لها ، ولم يوجد من تلك الأحياء ولن يوجد صانع يجمل سكنه أو طعامه ، أو يصنع ملبسه ، أو يجرب دواءً لمرضه ، أو يكشف منجماً لمواده ، أو يزرع حقلاً فى موسمه ، أو ينشئ مدينة أو ميناءً أو مطاراً أو قطاراً

أو حصناً ، أو يخترع سلاحاً أو آلةً ، أو يبتكر لغةً أو وسيلةً تغنى عنها لمن فقد القدرة على الكلام أو آثر الاستخفاء .

* * *

وعى الآدميين المنصرف إلى العالم الخارجى ، هو ــ فيما يبدو ــ الذى أقام لديهم معنى الأسرة والقرابة والنسب والصداقة والعصبية والوطنية والإنسانية والحضارة ، ورد هذه المعانى العامة الشاملة إلى وعيهم بداخلهم قد قواها وخلطها بعواطفهم وغرائزهم ، وأخذت من ثم مقامها لدى صغيرهم وكبيرهم وجاهلهم وعالمهم .. أقول إن هذا الانصراف الهام إلى العالم الخارجى من جانب الإنسان ، هو الذى مكنه من أن يقيم دائرة من العناية والرعاية من حول الوليد الذى يولد عرياناً ويظل عرياناً إذا لم يجد كساءً إلى أن يموت ، وهو الذى مكنه من أن يقيم الأسرة والقرابة والقبيلة والمجتمع والقرية والأمة ومن فوق ذلك كله الدين والملة !

وهذا الانصراف الهام جداً من الإنسان إلى عالمه الخارجى هو الذى استعان بالأديان ، ليتوج بها نجاح وعى

الإنسان بخارجه الفسيح الهائل فى الشعور بالكون العظيم وخالقه الأعظم .. الكائنات الحية الأخرى حرمت من سعة الوعى بالعالم الخارجى حرماناً شديداً حال بينها وبين ما زود به الآدميون من الخيال والذاكرة والعقل والإرادة والاختيار ، وهى وسائلهم فى التعرف على الكون فى حدود قدراتهم وحساباتهم وإمكاناتهم وظروفهم وعصورهم وفرصهم ووسائلهم فى المحافظة النسبية على ما استطاعوا حفظه أو المحافظة عليه من معارفهم عن العالم الخارجى زماناً ومكاناً وتقدماً وتأخراً ! .. وإذ لم تترك الأحياء الأخرى معارف ومعلومات مباشرة مقصودة للإنسان أو لغيره من المخلوقات ، فإن كل ما يعرفه الإنسان عنها وعن أحيائها وأمواتها وبقاياها حديثة أو قديمة ناقصة أو كاملة ، إنما هى دائماً معلومات نسبية ظنية تتقاسمها النظريات بين الرجحان والاحتمال !

ولعل أكثر ما يشغل وعى كل منا عـــادة ، بدرجـــات مختلفة ، هو عن الماديات والمعنويات وليس عن الأحيـــاء .. فهذه تجذبنا إلى خارج أنفسنا جذباً قوياً قد ألفنـــاه ولا نحـــاول التخلص منه ، وقد أغنى ذلك لغتنا وخيالنا وعقلنـــا وثقافتنـــا ومعارفنا وعلومنا وفنوننا وآدابنا وأثـــرى عقائدنـــا ومعابدنـــا وأعيادنا ومواسمنا .. هذا كله يزيد باستمرار أنشـــطة حياتنـــا سواء منها المجدية والمجدبة ، كما يغذى قدراتنا على التصور وأيضاً على الأحلام والأوهام !

وقبل أن يعرف البشر معنى التاريخ عرفوا دنياهم هـــم وقدرتهم على الاحتيال على الطبيعة ، وزادوا واستكثروا مـــن هذه القدرة حتى نسوا أنهم أبناؤها وسيبقون أبناءها ما بقـــوا ، فاستغرقت الماديات والمعنويات البشرية التى ابتكروها التفاتـــهم وعنايتهم وحرصهم وآمالهم وأطماعهم ويقظتهم ونومهم مـــن أقدم العصور إلى أحدثها .. وهم قد بدأوا الآن يشعرون بشـــىء من القلق وراء ما بلغته دنيـــاهم وحضارتـــهم مـــن الاندفـــاع والتضخم والمغالاة فى التخصص أو فى الانتشار والتجميـــع ،

فأخذوا فى بطء وتردد يحاولون الالتفات إلى البيئـــة الطبيعيـــة وإلى إمكان وواجب حماية ما بقى الآن منــــها لكـــى تصـــان حضارة الإنسان من الدمار والزوال وحتى تبقى سيطرة البشـــر على الطبيعة فى حدودها المناسبة لهم ، وفى هذا ما فيه مــــــن الغرور وخداع النظر والسطحية !.. إذ يبدو أن ما يحتاج إليــه البشر بعد ما عرفه علماؤهم وباحثوهم حتى الآن من المعــارف والعلوم الوضعية الطبيعية والكيماوية عن الكون هو أن يربطوا إبقاء البشرية ببقاء الكون نفسه من حيث إنهم وإن كانوا ماديـــاً جزءاً ضئيلاً من الكائنات ، فإنهم ــ من حيث الفـــهم والذكـــاء والقدرة على الخيال والتصور والتذكر والمثابرة والتركـــيز ــ جزء هام نافع قد يكون ثميناً للكون نفسه ، وذلك تقدير العليـــم الحكيم .

ثم إن وعى الآدمى بذاته ونفسه ــ على قوتـــه الهائلـــة المتمكنة ــ يقابله وهن وضعف وعيه بإنسانيته ولوازمها مــــن المشاعر العالية الراقية ، إذ يستلزم هذا الوعـــى مـــن الفـــرد الشعور بضـــرورة احـــترام الإنســانية ومقاومتــه لامتهانــها

واعتراضه على تقييدها ورفضه لكل حجر على حريتـــها فـــى الاعتقاد والتفكير والتعبير العلني وحقه في اتصال الأفراد فـــى ذلك كله بعضها ببعض . هذه الحقوق في دساتيرها من لـــوازم الوعي الإنساني ، وهي مرحلة ثمينة قد يرتقـــى إليـــها وعـــى الآدمي يوما ما .. وقد أعلنت الجماعات الراقية هذه الحقـــوق من أواخر القرن الثامن عشر ، لكنها لم تنجح فـــــى التزامـــها والتقيد بها نجاحاً كاملاً ولا شبه كامل ، وقلدتـــــها فـــى ذلـــك الجماعات التي في طريقها إلى التقدم ، وعجزت هي الأخـــرى حتى الآن عن إتمامه بل عن المضي في إتمامه . لأن البشـــــر مكبلون بعقائد وعلاقات وروابط وتقاليد وعـــادات ومصدقـــات متمكنة منذ قرون عميقة الجذور في ذاكرتهم ، منتشرة متشعبة في خيالهم وأفكارهم على مـــدى ماضيـــهم الطويـــل .. هـــذا الماضي الذي يشعرون بقـــوة تـــأثيره فـــى ســـلوكهم دون أن يستطيعوا ــ بتحليله وفهمه ــ التخلص من غموضه !!

وقلما نلاحظ أن وعى كل منا ميال إلى الإضافة أو الادعاء ، سواء فيما بينه وبين نفسه ، أو مع الآخرين .. ربما لأن وظيفتى الوعى والعقل سابقتان دائماً للعمليات التى تجرى فى كل منهما .. هذا ورقى عمليات الوعى مرتبط ارتباطاً برقى العمليات العقلية .. وبسبب هذا الاشتراك إيجاباً وسلباً ، يتحقق وصفنا له بالرقى تارة وبالمألوف تارة أخرى وبالجهل وقلة التجربة طوراً ، وطوراً بالتخلف والغفلة ، وأحيانا بالعته !!

والبشر يتعايشون معاً دائما هم وآباؤهم وأبناؤهم بما تصالحوا عليه ضمناً واعتادوه من وجود وعى وعقل عامين مشتركين .. ولا يحول هذا القدر من الاشتراك القابل للنقص والزيادة دون اختلاف أفرادهم ـ كثرة أو قلة ـ على درجة الوعى الراقى أو درجة الوعى الجاهل قليل التجربة .. وهذا الوعى المشترك بين أفراد وجماعة قد يقارب أو يخالف نظيره فى جماعات أخرى ، ويختلف بين الأجيال المختلفة فى نفس الجماعة اختلافاً جزئياً أو كلياً تبعاً لدرجة تغيرها وتطورها ،

لكن لم تعد الجماعات البشرية فى العصر الحديث تكتفى بذلـــك التصالح الضمنى المعتاد ، بـــل حاولت ما أمكنتها ظروفـــها ، أن تحل محله نشر التعليم بكل درجاته أمام جميــــع الطبقـــات وجميع الأعمار ، فخلقت بين أفرادها ما يسمى بالوعى العلمـــى والأدبى والتاريخى والفنى والطبـــى والهندســـى والاقتصـــادى والاجتماعى ، فأوجدت بتلك الحركة الشاملة ــ دون أن تقصـــد ــ فروقاً وانقسامات لا أول لـــــها ولا آخـــر فـــى طموحـــات ومساعى وأغراض وآمال وأحلام تلك الطوائف فى الجماعـــــة الواحدة ، وضاعفت بذلك صعوبة المحافظة فيها على الســـــلام والوئام ، وقللت فى الجماعة أسباب الاطمئنان علـــى مســـتقبل وحدتها وتقدمها . ويبدو أن هذا ومثله من حيث مخاوفه الحالية والمستقبلة على الجماعات ، ليس جديداً .. فكم من نظام بشـــر الخلق واستبشروا بنجاحه وثماره ، عاد فى نهاية الأمر عليـــهم بالمتاعب والخسران ! وهذا طبيعى ومنتظر فى جنس قـــامت حياته فى الماضى وتقوم الآن وستقوم فى المســـتقبل ــ علـــى الاحتمالات التى تصدق ولا تصدق ، ولا يستطيع بالتـــالى أن

يتجنب المجازفة إلاّ بأن ينحط إلى مراتب الأحياء الأخرى الموجودة معه على هذه الأرض أو يفنى !

*　*　*

لعل وعينا كآدميين مؤسس كله على شعورنا بالاحتمالات التى يرينا إياها وعينا ذاته مع الحواس والعقل والتفاتنا لتعددها ولنوع تصورنا لنتائجها الذى لا يصحبه فى الأعم الأغلب حساب ما يصحبها من جهود ومخاطر ، ولذلك فإن مشكلة البشر الكبرى هى مشكلة ضرورة التعامل مع احتمالات واختيارات بالغة التعدد والتنوع ، ولا مفر لنا على الدوام من مواجهتها فى كل لحظة والتعرض لنتائج احتمالاتها التى نختار من بينها ما نريده .. ونجاتنا من مخاطر هذه الاختيارات تتوقف دائماً على مقدار ما لدينا من العقل والتجربة والعزم ، وعلى مقدار ما نصيبه أو نخطئه من التوفيق .. وكلما زدنا من هذه زدنا أماناً ورقياً وابتعاداً عن الأزمات والكوارث !

فمعظم البشر منذ خلقوا ضحايا لثقتهم العمياء في وعيهم غير البصير الذى تخدم فيه العقول الذليلة تلك الاختيارات الضالة المضلة .. والعقول الذليلة دائماً أكثر من الكثير ، والشهوات والرغبات المخدومة هى دائماً أقل عدداً من العقول التى فى خدمتها أو المعروضة لخدمتها !

وظاهرة العقول الذليلة المنتشرة من قديم الزمان في كل جماعة بشرية متقدمة أو متأخرة ، ربما كان أساسها ظاهرة الإذعان الغريزى لتصور القوة الخارجية فى جماعات الحيوان .. والذين يفطنون إلى وجود هذه الظاهرة فى الجماعة وإلى تأثيرها أفراد قليلون أو كثيرون .. منهم من يقاومها ومنهم من يستغلها وينتفع بها .. وذليل العقل لا يلبث حتى يشغله نجاحه فى إرضاء مخدومه القوى فى نظره ويعتبر نفسه متفوقاً على مخدومه فى التدبير والحيلة والذكاء .. وهكذا تتجاذب وتتعايش الانحرافات والالتواءات داخل كل مجتمع ، ويبدو أن لذلك التعايش والتجاذب نصيباً واضحاً في تشكيل العلاقات والمقامات بين الأفراد والرؤساء وبين مأموريهم ومرءوسيهم

وحاشيتهم ، وبين القادة والزعماء والأثرياء وبين أتباعهم ، وبين أرباب الأعمال وبين عملائهم وأجرائهم .. لأن الآدميين حتى الآن وإلى مستقبل غير قريب لم ولن يفطنوا تماماً إلى أن إنسانية الآدمى أعلى وأثمن من الإمارات والرئاسات والقيادات والزعامات والثروات والملكيات !! .. وأن هذه المزايا البشرية المحسوبة من القيم الاجتماعية فى طريقها إلى الزوال إن اطرد بغير انتكاسات وتراجعات وردّات ــ ترقى وتطور وعى الآدميين الحاليين !

إن وعينا حين يلتفت إلى حياة كل منا ، ويقارنها بعمر وجود الأرض وعمر وجود الشمس ــ وهما أكثر الأجرام صلة بوجودنا ــ يجد أننا مجرد هباءات جاءت فى لمحات وتزول بزوالها ، لكن وعينا حين يرى أننا نعى ذلك الواقع ونعى حجم الأرض والشمس ، ونعرف تقريبا عمرها المديد ، ونعى كثيراً من أحوال سابقينا من الأحياء على الأرض خلال مئات ملايين السنين ، كما نتوقع بعض ما ينتظر جنسنا فى ضوء عقولنا ومعارفنا ، لا نكون مخطئين إذا رأينا ووثقنا فى

أن لدينا شيئا ميزنا حتماً عن أجرام الكون وأعمارها وأحجامها وطاقاتها ، كما ميزنا عن بقية الأحياء التى عرفتها الأرض ما انقرض منها وما بقى معنا !! فقد مُيّز الآدميون بما لم تمتز به الأجرام الهائلة التى نعرفها ولا الأحياء الأخرى الموجودة أو التى كانت موجودة واندثرت تباعاً من أحقاب لا تعد !

فلماذا ؟

لأن الحياة ميزت طريقها فى الوجود أو الإيجاد الحى فى جنسنا ، فوسعت فينا إلى غير حد الاستعدادات والإمكانات غير الحسية ، كالوعى والفهم والحفظ والبحث والذكاء والبصيرة ، وتخطت نطاق أجسادنا المبنية على المركبات والعناصر المادية التى لا يمكن أن تجاوز إمكاناتها فى كل آدمى !!

ومصادر وعى الآدمى دائماً من خارجه .. إنه يولد فارغ الوعى ، وينمو ويمتلئ وعيه بما يدخله من خارجه حتى ولو كان يرفضه أو يبغضه .. الرفض أو البغض أو المقت لايوقف الوعى .. لذلك فإن الآدمى يعى ما يدخله من خارجه

مع رفضه له ، ولأن وعى كل آدمى نتاج مجتمعـــه ـ فــإن حصيلة وعيه مـــن الموضوعــات والخــبرات والمعلومــات والأحداث تأتيه من غيره وبتعريف غـــيره ـ حيــاً أو ميتــاً معروفاً لديه أو غير معروف ، وقد ساعد هذا علــــى اتســاع الوعى من عمر إلى عمر، ومن جيل إلى جيل ما لـــم تتجــط البيئة فيتدهور الحال !

ومجرد دخول الموضوع فى هذا الوعى أو ذاك ، يأخذ دائماً خاصية وفردية صاحبه .. حتى عندمــا يتبيــن صاحبــه بطلانه ويعلن زيفه ، وذلك لأن ما يعيه الإنسان يمتزج بذاتـــه التى لا يمكن أن يشاركه فيها غيره !

وقد أدى اعتماد نمو الوعى على ما يدخـــل فيـــه مـــن خارجه إلى ضرورة وجود اللغـــات واتســاعها مـــع اتســاع الجماعات وتعقيد مطالب أفرادها ومشاغلهم ـ تمكينا لهم مـــن التواصـــل والتفاهـــم والتعامـــل أو من الاختلاف والمنازعـــة أو العداء !

وقد أدت اللغات من قديم الزمان إلـــى تدويــن وحفــظ وتنمية وزيادة وتطوير المعــارف والعلــوم والفنــون والآداب والتواريخ التى معنا الآن ، ولم يخل منها كل جيـــل ســابق ، ومازالت اللغات وستبقى تؤدى دورها الأساسى بمزيــد مــن الرقى والتطوير وبمزيد من إيقاظ وعى البشر لإفساح مجالاتــه وميادينه واتجاهاته ..كل ذلك برغم ما نشاهده اليوم فى معظــم المجتمعات من انتشار القلــق والســخط والغــلاء والتنصــل والتمرد والفتن ــ وهــو مــا تتعرض له المجتمعات المتقدمــة أو الراغبة فى التقدم ــ من وقت لآخر ــ كــأثر مــن آثــار صعوبة المحافظة على استمرار التقدم .

والخطاب والتخاطب ظاهرتان لغويتان عنــد البشــر ، وهما ظاهرتان أساسيتان تتجهان وتتوجهان أولاً وأخيراً إلـــى الوعى الآدمى ، تبدآن منه لتنفذا منه إلى العواطــف والميــول ولكى تعودا إليه لاحتضان جميع القرارات التى يقبــل عليــها الآدمى أو يتخذها أو يقبلها .. كبيرة كانت أو صغيرة .. مهمة

أو غير مهمة على مدى ما يتخذه الآدمى منـــها فـــى حياتـــه بأسرها !

ووعينا يدرّج إدراكاته إلى درجات أى ينزلها منـــازل متدرجة ، على مقدار ما تبلغ إليه ثقته فيما يعيـــه بيـــن واقـــع وراجـــح وجائز ومحتمل ونـــادر ومحـــض صدفـــة أو حـــظ ومستحيل ، وهو يوزع تقديراته وحسابات عقلـــه ـــ عـــادة ـــ على نطاق خبراته لما اعتاد حصوله فى الترتيب التنازلى لتلـــك الدرجات البشريـــــة التـــى لا نظير لها فى ســـائر الأحيـــاء الأخرى المحرومة من سعة الوعى الآدمى وعمقـــه .. وهـــذه الدرجات الاصطلاحية لا يرجـــع وجودها وتقسيمها وكثرتـــها أو ندرتها أو استحالتها إلى ناموس كونى ، وإنما يرجـــع فقـــط إلـــى بشريتنا وخصائصهـــا القابلة للتمدد والتقلص إلى أبعـــاد قد يأبى وعى جيلنا الحالى تصديقها فضلاً عن تصور إمكانـــها فى مستقبل قريب أو بعيد !

فهرس الكتاب

كتاب الهلال
يقدم :

شارع عماد الدين

حكايات الفن والنجوم

الفريد فرج

يصدر : ٥ نوفمبر ٢٠٠٥

أحدث إصدارات كتب الهلال عامى ٢٠٠٤ ، ٢٠٠٥

اسم الكتاب	المؤلف	الشهر	السنة
المخطوطات الألفية كنوز مخفية	د. يوسف زيدان	أكتوبر	٢٠٠٤
التجانس اليهودى والشخصية اليهودية	د. عبد الوهاب المسيرى	نوفمبر	٢٠٠٤
مشيناها خطى «سيرة ذاتية»	د. رءوف عباس	ديسمبر	٢٠٠٤
القراءة الصهيونية للتاريخ الحروب الصليبية نموذجا	د. قاسم عبده قاسم	يناير	٢٠٠٥
الإسلام والدولة المدنية	د. عبدالمعطى محمد بيومى	فبراير	٢٠٠٥
فى أصول المسألة الحضارية	د. أنور عبدالملك	مارس	٢٠٠٥
الجماعة الوطنية العزلة والاندماج	طارق البشرى	ابريل	٢٠٠٥
آرثر ميللر أبو المسرح الأمريكى	د. عبد العزيز حمودة	مايو	٢٠٠٥
مسيرتى ومصر نحو القرن الحادى والعشرين	د. مصطفى سويف	يونيه	٢٠٠٥
صدمة الأنترنت وأزمة المثقفين	د. أحمد صالح	يوليه	٢٠٠٥
أحمد حسنين أسرار السياسة والحب	محمود صلاح	أغسطس	٢٠٠٥
مصر والإصلاح السياسى	د. يونان لبيب رزق	سبتمبر	٢٠٠٥

محمد أبو الغار

يهود مصر

من الازدهار إلى الشتات

دار الهلال

عجائب وأساطير

د. شوقي ضيف



دار الهلال

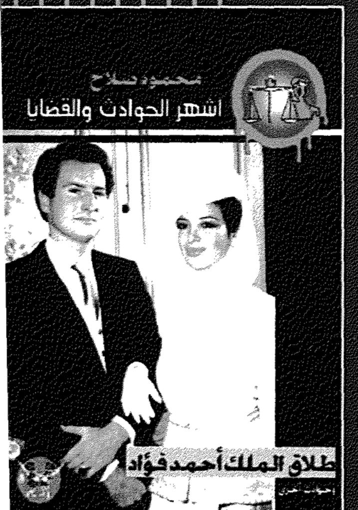
رقم الايداع
١٥٤٠٤ / ٢٠٠٥
I.S.B.N
977 - 07 - 1156 - X

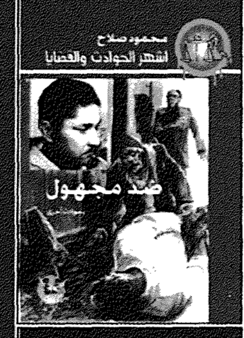
اشهر الحوادث والقضايا

الحوادث العنيفة والقضايا المثيرة
التى روّعت الناس وصدمت المشاعر













طباعة ونشر المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع بالقاهرة - المطابع : ٨، ١٠ شارع المنطقة الصناعية بالعباسية - منافذ البيع : ١٠، ١٦ شارع كامل صدقى الفجالة - ٤ شارع الإسحاقى بمنشية البكرى روكسى مصر الجديدة - القاهرة ت : ٦٨٢٣٧٩٢ - ٥٩٠٨٤٥٥ - ٢٥٨٦١٩٧ . فاكس : ٢٠٢/٢٥٩٦٦٥٠ ج.م.ع -

هذا الكتاب

رجائى عطية

ما من آدمى إلا وهو مشدود إلى ذاته، يفكر من هو ؟ وكيف كان ؟ وإلام سيكون ؟! ما موضعه فى هذا الكون المعجز للإفهام ؟ وما سبيله فى هذه الحياة التى يأتيها غير مخيّر ويغادرها فى أجل محتوم ؟!

حول الإنسان ، والكون ، والحياة ، تدور هذه الخواطر التى تشغل الآدمى العاقل حيث كان .. الإنسان مجهول إلى ذاته ، يريد بمعرفة نفسه أن يلتحم مع حاضره وأن يستشرف مستقبله ، وأن يكون لحياته معنى .. إن حياة الأحياء ومن بينها البشر ، نظام كونى إلهى جليل جداً يجمع بين شدة البساطة وشدة التعقيد والتركيب .. مهما بدا لنا من المعرفة والفطانة والذكاء ، فإننا لا نرى ما يحفل به الكون والحياة إلا من ثقب ضئيل جدا .. شديد الضآلة ، ومن زاوية بالغة السطحية !

فهل نستطيع فهما أعمق للإنسان ، والكون ، ا

حول هذا كله يدور هذا الكتاب للمفكر الأديب رجائى عطية الذى أثرى المكتبة العربية ، كما أثر: واحداً من أنبغ أعلامها - بعديد من المؤلفات وعلوم الكتاب والإسلاميات ، ومن أبرز مؤلفاته : د من هدى النبوة ، عالمية الإسلام ، ماذا أقول لكم الوطن والحياة ، الإنسان العاقل وزاده الخيال النبوية فى رحاب التنزيل فى خمس مجلدات الموسوعية وراء الخواطر العميقة التى ساقها الكتاب حول الإنسان ، والكون ، والحياة.